

رينهـرت دوزى

المسلمون فى الأندلس



ترجمة وتعليق وتقديم

د. حسن حبشى

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

المسألة الأولى في الإسلام

الجزء الثاني

البيان الإسلامي

تأليف

رينهكروفت دوزي

ترجمة وتعليق وتقييم

د. حسن حبشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

HISTOIRE
DES
MUSULMANS D'ESPAGNE

JUSQU'À LA CONQUÊTE DE L'ANDALOUSIE PAR LES ALMORAVIDES

(711—1110)

PAR

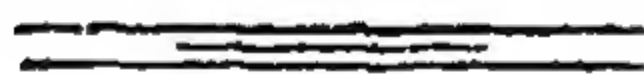
R. DOZY

NOUVELLE ÉDITION REVUE ET MISE À JOUR

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

TOME II



LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE
CI-DEVANT E. J. BRILL S.A.
LEYDE — 1932

مقدمة الجزء الثانى

هذا هو الجزء الثانى من الترجمة العربية لتاريخ المسلمين فى الأندلس لدوزى ، نقدمه شاكرين الله تعالى على ما لقيه سابقه من الاقبال ، راجين أن نتبعه بالثالث الذى يكمل به تاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى دخول المرابطين ، والذى سيتضمن كشافات تعين القارئ على العثور على ما ينشده ، كما سنزوده بملاحق تاريخية خاصة بهذه الفترة وقوائم بالأماكن والأعلام بالرسمين العربى والأفرنجى والمصادر التى رجع المؤلف ورجعنا اليها .

ولقد كانت التفاتة طيبة من القوامين على ندوة (*) « الأندلس : الدرس والتاريخ » التى أقامتها كلية آداب جامعة اسكندرية بالتعاون مع رابطة الجامعات الاسلامية أن تكرم ذكرى « دوزى » بين من كرمتهم من العلماء والباحثين من الشرق والغرب ممن أسهموا فى مجال التاريخ الأندلسى .

والله الموفق

القاهرة فى العشرين من ذى القعدة ١٤١٤ هـ ١٠ د • حسن حبشى
أول مايو ١٩٩٤ م

(*) اقيمت هذه الندوة بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة الاسكندرية فى الفترة من ١٢ حتى ١٥ أبريل ١٩٩٤ (= ٢ - ٤ من ذى القعدة ١٤١٤ هـ) . وكان مؤلف هذا الكتاب ومترجمه ممن كرمتهم الندوة .

الفصل الأول

- حركات المقاومة بالشرق في القرن الثالث الهجرى .
- ظهور عبد الله بن ميمون ودعواه الباطلة . الطابع السرى
- للحركات فى اليمن والمغرب . الفاطميون والأندلس ودعوة
- ابن مسرة . مملكة ليون وحركة « بلاى » التمردية . ثورة
- اهل جليقية . ادعاء أحمد بن معاوية الأموى المهدية .
- تجنيده البربر لمحاربة الليونيين . مقاومة ذلول بن يعيش له .

الفصل الأول

لقد أبدت الحكومة الإسلامية في الشرق من جانبها روح التسامح الديني نحو أهل البلاد المسلمين من أتباع الديانات القديمة الذين لم يهددوا قط سلامة الدولة ، إلا أنها لم تكن تستطيع أن تتهاون أبداً إزاء المسلمين الذين تظاهروا بالإيمان بينما ظلت قلوبهم غلغلا في الوثنية والذين بذلوا قصارى جهدهم خفية لتغيير وجهة الإسلام وذلك بتطعيمه بعقائدهم الخاصة .

لقد كان الدافع الديني هو الدافع الحقيقي الكامن في نفوس المتظاهرين بالإسلام في فارس وفي إسبانيا أيضاً ، وكان عددهم عظيماً ، والأغلب أن هؤلاء المنافقين كانوا من الرجال المتقلبين وأكثر القوم جشعا في المجتمع . ولما كانت الطبقة العربية المتنفذة قد أخذتهم أخذا عنيفا أنى ثقفتهم فقد تآقوا لبعث قوميتهم الفارسية وأحياء الامبراطورية الإيرانية (١) فلا عجب أن لم تتوان الحكومة في استعمال الشدة الضارية معهم حتى أن الخليفة المهدي [العباسي] عمد في كبح جماحهم إلى إنشاء ديوان (٢) عرف بديوان الزندقة ظل قائما حتى أواخر أيام هرون الرشيد .

ولما كان الضغط يولد الانفجار ، والاضطهاد يؤدي إلى الثورة فقد قام في « أذربيجان » رجل اسمه « بابك » تزعم طائفة « الخرمية » أو « الفسقة » (٣) كما سماهم خصومهم . وانقضت عشرون سنة من ٨١٧ حتى ٨٣٧ م (= ٢٠٢ - ٢٢٣ هـ) ظل خلالها « ابن حفصون » الفارسي هذا ينزل الهزائم الساحقة بجيوش الخليفة التي كان يبعثها الأخير إليه ، ولم تفلح هذه الكتائب المجيشة في القبض عليه إلا بعد أن أفنى من رجالها مائتين وخمسين ألفا (٤) .

بيد أنه كان هناك ما هو أشد خطرا من إخماد الثورات المسلحة وأعنى به محاولة كشف الطوائف السرية ، كما انتشرت في الخفاء العقائد الفارسية القديمة والأفكار الفلسفية التي تبرزها خطورة ، وقد أسفر هذا

الصراع بين الديانات والملل المختلفة عن قيام جمهور كبير في الشرق نبذ هذا كله زعما منه أن « الأديان إنما هي للعامّة وحدهم » (٥) .

في أحضان هذه الجماعة السرية ، وفي مستهل القرن التاسع للميلاد ، خرج باعث طائفة الاسماعيلية « عبد الله بن ميمون » (٦) الذي كان من أسرة فارسية مانوية العقيدة تزعم وجود الهين أحدهما للنور والآخر للظلمة .

كان « عبد الله بن ميمون » هذا ابن قداح ذكي الفؤاد ، ولما كان يتجنب الوقوع تحت شبهات ديوان الزندقة الذي راح ضحيته سبعون من أصدقائه فقد لاذ ببيت المقدس حيث أخذ ينشر في الخفاء العلوم والآراء الهدامة، في الوقت الذي كان يتظاهر فيه بالعطف البالغ على الشيعة ويتغالي في تعظيمها . ولم يقتصر شأنه - تحت توجيه أبيه له - على أن يكون داعية حاذقا فحسب ولا قداحا بارعا في طب العيون فقط بل أصبح كذلك ذا الملم تام بالعقائد الدينية والمبادئ الفلسفية ، فحاول في بداية الأمر أن يحمل الناس على اعتباره نبيا اعتمادا منه على مواهبه ، لكنه فشل في هذه التجربة ، ومن ثم أخذ يمهّد الطريق شيئا فشيئا لتدبير مشروع أعظم اتساعا وأجل خطرا (٧) .

وكانت الفكرة المختصرة في ذهن « ابن ميمون » ترمي إلى تأليف جماعة سرية تضم إليها جموع الغابيين والمغلوبين على السواء ليعملوا بها واحدة ، وجعل أعضائها مرتبين على درجات في الاطلاع على أسرارها ، ففيها المفكرون الأحرار الذين لا يرون في الدين الا غلا في الأعناق ، وفيها المتمسكون بدياناتهم من جميع الملل ، وكان هدفه من وراء ذلك يتمثل في اتخاذ هؤلاء الأتقياء وسيلة للسيطرة على المتشككين واستغلال أولئك الفاتحين في قلب وضع الامبراطورية التي أقاموا دعائمها ، كما استهدف من وراء ذلك أن يؤلف في النهاية من هؤلاء وهؤلاء جماعة واحدة ضخمة تمثل لأمره وتدين بالطاعة له ، وتستطيع في الوقت الملائم أن تنقل العرش إلى أبنائه من بعده ان لم يكن له هو نفسه في حياته . ولا مشاحة في أن هذه فكرة خطيرة تنطوي على جرأة بالغة وتتطلب همه جبارة واقداما لا مثيل له ، ودراية عميقة بما جبلت عليه الطبيعة البشرية .

انطوت الوسائل التي عمد إليها ابن ميمون على مكر شيطاني ، فهو في ظاهر أمره «اسماعيلي» . وكان الانقراض مقدرا لهذه الطائفة نظرا لحاجتها إلى زعيم ينفض فيها حياة جديدة ، فجاءها ابن ميمون ووعدّها بالزعيم المنتظر وقال (٨) : « لم تكن الدنيا ولن تكون بلا امام ، كائنا من كان هذا الامام . قد كانت الامامة في أبيه وجده وفيمن قبلهما حتى

تنحدر الى آدم ، كذلك فان ابن الامام امام وحفيده أيضا ، وهكذا حتى ينتهى العالم ، ولا يقبض الامام حتى يولد له ولد تؤول الامامة اليه من بعد أبيه ، غير أنه لا يتم ظهور الامام على الدوام ، فقد يظهر أحيانا ويختفى أخرى وهكذا دواليك كما يتعاقب الجديدان . ومتى كان الامام ظاهرا استترت دعواه فان اختفى ظهرت ، وحينذاك يظهر دعائه بين الناس .

وتمكيننا لهذه العقيدة فى النفوس نرى « عبد الله بن ميمون » يقتبس آيات من القرآن الكريم وساعدته هذه الفكرة على ايقاظ آمال الاسماعيلية الذين أخذوا بفكرة الامام المخفى ، وانه سوف يظهر أخيرا فيدبر أمر العالم ويملأه عدلا . وعلى أية حال فان عبد الله هذا كان يحتقر فى قرارة نفسه هذه الطائفة ، وما كان تظاهره بالدعوة الى آل علي [بن أبى طالب] الا وسيلة لتحقيق مآربه . واذا كان هو فارسيا فى صميمه فقد كان يضمير البغض للعرب جميعا ، غير مستثنى منهم أحدا حتى عليا أبنائوه .

لم يخطئ عبد الله بن ميمون فيما دبر ، ومن ثم أشار على أتباعه الخلفاء بآلا تأخذهم هداة فى قتل كل من يقع فى أيديهم من أولاد علي (٩) .

ولم يحاول أن يستخلص أتباعه الأوفياء من بين رجال الشيعة بل أخذ يفتش عنهم بين الزرادشتيين والمناويين ووثنى حران وبين عشاق الفلسفة اليونانية (١٠) الذين كان جل اعتماده عليهم ، وأفضى اليهم - دون سواهم . بكلمة السر الأخيرة ، وذكر لهم أن ليس الأئمة والديانات والأخلاق غير ادعاء كاذب وهم باطل ، أما غير هؤلاء الرجال أو « الحمير » - كما كان يسميهم - فلم تكن لهم فى رأيه القدرة على استيعاب هذه المبادئ وأمثالها . ومع ذلك فانه لم يحقر من شأن هذه الجماعة بغية الوصول الى هدفه المنشود بل سار على العكس من ذلك اذ نراه يجد كل الجهد فى الحصول على مساعدتها وتأييدها له ، الا أنه أخذ حذره واحتاط فلم يطلع المدنيين والأتقياء الا على المبادئ الأولية للطائفة . أما دعائه الذين وقر فى نفوسهم أن واجبهم الأول هو اخفاء أغراضهم الحقيقية والامتنال لما يلقى اليهم امتثالا تاما فكانوا قرابة ألف جماعة يختلف بعضهم عن بعض ، وقد أمرهم أن يخاطبوا كل فرد على قدر عقله ، فسيطر هؤلاء على الطغمام والجهلة بما كانوا يلقونه اليهم من خزعبلات ينزلونها من أنفسهم منزلة المعجزات ، أو من معميات تثير الدهشة والفضول ، فإذا كانوا مع الأتقياء طلعوا عليهم بمسوح الورع والتقوى ، وبذلك لبسوا لكل حال لبوسها ، فهم صوفيون مع المتصوفة يفسرون لهم المعانى الخفية للأمور الظاهرة وكذلك الرموز والمعانى الرمزية، مستغلين فى ذلك ما ابتلى به

هذا الجيل من النكبات ، موشين لأبنائه الآمال الفضفاضة بمقدم عصر
أزهى تتنفس فيه الصعداء جميع الطوائف ، ووعدوا المسلمين بقرب ظهور
« المهدي » الذي تنبأ به الرسول [عليه الصلاة والسلام] ، ووعدوا اليهود
بالمسيح المنتظر ، والنصارى بمعزيهم . ثم وجدوا أنفسهم في حاجة الى
معونة العرب من أهل السنة الذين كان من العسير ضمهم الى صفوفهم
لكنهم شعروا بحاجتهم الملحة اليهم كي يجدوا لهم ملجأ وملأذا يدرأ عنهم
الشبهات ويصد عنهم عادية السلطة الحاكمة ومطاردتها اياهم ، كما كانوا
يريدون استغلال ثرواتهم الضخمة في تحقيق مآربهم ، ومن ثم أخذ هؤلاء
الدعاة في اثارة كبرياء العرب القومي زاعمين لهم أن جنسهم هو أصل
جميع الفضائل الدنيوية ، وأن الفرس ما خلقوا الا لكي يكونوا عبيدا لهم ،
وتظاهروا أمامهم بازديادهم المال ، وأظهروا الرحمة البالغة كسبا لثقتهم
التي ما كادوا يحصلون عليها حتى أخذوا يضيقون الخناق عليهم وجعلوهم
في موطئ النعال ، ثم أخذوا بعد ذلك يلقون الى العرب أن من واجبهم
اعانة الطائفة بعبادتهم المالية والتنازل عن ممتلكاتهم لها (١١) .

بهذه الوسيلة أصبح كثير من الجماعات المختلفة تعمل معا في عمل
لا تعرف مرماه الا شردمة ضئيلون، وأخذ هذا المشروع في السير قدما الى
الأمم لكن في خطى بطيئة ، واذ ذاك أدرك عبد الله أنه لن يتأتى له أن
يشاهد بنفسه ثمرة عمله فعهد الى ابنه أحمد - الذي خلفه في الزعامة -
بإقتفاء أثره ومتابعة العمل ، واستطاعت الجماعة أن تمضي للأمام في خطى
سراع تحت لواء أحمد ومن جاء بعده ، ويرجع الفضل في ذلك على
الخصوص الى انضمام كثير من رجال الشيعة الأخرى اليه ، وكان هذا
الفرع - كما قلنا من قبل - يجعل الامامة في أبناء موسى ولد جعفر
الصادق ، بيد أنه لما كان الامام الثاني عشر محمد قد اختفى وهو في
الثانية عشرة من عمره في سرداب [بسامراء] دخله هو وأمه عام ٨٧٩ م
(= ٢٦٦ هـ) ، ولما كان أتباعه وهم الاثنا عشرية (١٢) - كما يسمون -
قد طال انتظارهم رجوعه بلا جدوى فلم يكن من العسير عليهم الانضمام الى
صفوف الاسماعيلية الذين أسعدتهم الظروف بأن كان يرأسهم زعيم على
قيد الحياة وعلى أتم أهبة لأظهار نفسه حينما تؤذن الظروف بذلك .

ولما كان عام ٨٤٤ م (= ٢٧١ هـ) قام أحد دعاة الاسماعيلية
واسمه ابن حوشب [وكان من قبل اثني عشرية] ودعى جهارا في اليمن
فدانت له صنعاء وأوفد دعائه الى جل أقاليم البلاد فذهب اثنان منهم
ليحرقا - على حد قول الشيعة - أرض كتامة واقليم قسنطينة ، ولما
مات بعث ابن حوشب أحد تلاميذه ويدعى عبد الله (١٣) .

كان أبو عبد الله [المحتسب] رجلا نشيطا مقداما مالكا لأعنة
الفصاحة ، وعلى جانب كبير من الخبث والدهاء مكنه من السيطرة على

عقول البربر ، فكان خيز من يقوم بأداء المهمة التي نيطت به على الرغم من أنه لم يكن يعرف الا المبادئ الأولية للطائفة ، حتى ان دعائه أنفسهم لم يكونوا يدركون في بعض الأحيان الهدف المنشود من هذا العمل (١٤) .

بدأ عبد الله مهمته بتعليم أبناء كتامة محاولا اكتساب ثقة مضيفيه ، حتى اذا وثق من نجاح مشروعه طرح القناع من على وجهه وسمى نفسه بالشيعي ، وبشر بالمهدي المنتظر ، ووعد أهل كتامة بخير الدنيا والآخرة . اذا هم اشتركوا في الجهاد ، وسرعان ما أذعنوا في غير عسر له واجتذبتهم ذلك الداعية الى صفه بما كان يلقيه اليهم من كلام خفي المعاني ، كما يسر له مهمته أيضا الأسلاب التي غنموها ، وكانت كتامة من أكثر القبائل رجالا وأقواها بأسا ، واستطاعت المحافظة على استقلالها القديم والروح الحربية التي انطبع عليها أبناؤها ، ومن ثم كان نجاحهم يمشي في خطى سراع الى الأمام ، حتى انهم بعد استيلائهم على آخر مدينة كانت في حوزة الأمير الأغلبى الذي حكمت أسرته البلاد أكثر من قرن أكرهوه على الفرار من محل اقامته بصورة عجز معها عن استصحاب امرأته معه ، وحينذاك قام عبد الله فأجلس على العرش سنة ٩٠٩ م (= ٢٩٨ هـ) سعيدا المهدي زعيم الطائفة وهو من نسل عبد الله القداح ، فزعم أنه من ذرية علي وتسمى باسم عبد الله المهدي (١٥) ، ولما أصبح خليفة فانه - وهو واضع دعائم الأسرة الفاطمية - أخذ يعنى بنشر مبادئ هذا المذهب ، ولربما كان يكون أكثر صراحة أمام الناس لو أنه أحرز انتصاره هذا في قطر آخر كفارس مثلا ، لكنه لما كان يدين بعرشه الى فئة نصف همجية وليس لها ادراك للمعاني الفلسفية فقد اضطره ذلك الى الاشتداد على نفسه وعلى أعضاء الطائفة المتقدمين الذين أظهروا التشريق (١٦) . كذلك لم يصرح علانية بمقصد الطائفة الحقيقي الى أن كان مستهل القرن الحادى عشر الميلادى حين ثبتت قوة الفاطميين وأصبحت مدعمة الأساس لا يخشى عليها فأفصح عما كان خافيا وكذلك حين أصبح في مقلورهم - بفضل جيوشهم الجرارة وأموالهم الكثيرة - من السير قدما غير مكترئين كثيرا بحق الوراثة الشرعى (١٧) .

لم تكن الاسماعيلية في بداية الأمر تفترق عن الطوائف الأخرى الا بتعصبها وفظاظتها ، فكان رجالها يجلدون أئمة الدين والفقهاء ويقتلونهم صلبا لتوقيعهم ذكرى الخلفاء الثلاثة الأوائل (١٨) أو لجهلهم الصيغة الشيعية أو لاصدار فتاويهم وفق المذهب المالكي وذاق المسلمون منهم كل وبال ونكال ، وكان أكبر ما يخشاه المتزوج أن يقع عندهم تحت طائلة القصاص بعدهم اياه كافرا اذ يرغمونه على مشاهدة زوجته وهي تغتصب في حضرته ويصفع على قفاه ويبصق في وجهه .

وقد حاول عبید الله - والحق يقال - كبح جماح جنده لكنه لم يبلغ

ما أرادهم منهم ، أما شيعته الذين يقال انهم لم يكونوا يريدون رئيسا محجوبا فقد ألّوا وعيمهم عن رضا وطيب خاطر بما يتفق وأراء الفرس الذين كانوا يزعمون تجسد الروح الالهى فى شخص الحاكم ، لكنهم فعلوا ذلك على أن يسمح لهم بممارسة كل ما يريدون ، وهيئات أن يرى من ضريب لما ارتكبه أولئك القساة فى البلدان المفتوحة من البقائع ، فقد حدث فى برقة أن قطع قائدهم أوصال بعض سكانها وجعلها شواء ثم أرغم البعض على أكل هذا اللحم المذهب ، ولما فرغ من ذلك ألقى بهؤلاء الآخرين الى النار فأوقع فى أيدي الاقريقيين البؤساء الذين أخلدوا الى السكون التمام ولم يكن أملهم فى النجاة يتجاوز القبر حتى لقد كتب أحمد ماضريهم (١٩) يقول : « وهذا دليل على هوان الدنيا على الله وصغر قدرها عنده ، اذ يمكن فيها لهؤلاء الكفرة الفجار أن يسبوا أولياء الله سنوء العذاب والمعاد القيامة ، والحاكم الله » .

* * *

كان اعتزاز الفاطميين بالحاكم العالمى جاعلا اياهم مصدر خطر على جميع الممالك الاسلامية عامة والأندلس خاصة ، ذلك أنهم كانوا يتوقعون منذ زمن بعيد لأن تكون لهم السيطرة على هذه البقاع النجميلة الثرية ، ثم أصبح عبيد الله بالكا لدولة الأغالية تقريبا قبل تحالفه مع ابن حفصون بيند أنه لم يكن هناك داع لأن يتطرق اليأس الى قلوب الفاطميين ، اذ جاس مبعوثوهم السريون أرباض شبه جزيرة ايبيريا فى زى تجار .

ويمكن للمرء أن يكون لنفسه فكرة عن التقارير التى رفعوها الى ولاية أمورهم اذا ما قرأ احدى هذه الرسائل التى دارت بينهم والواردة فى رحلة ابن حوقل (٢٠) اذ قال « ومن أعجب ما فى هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم عن اليأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأبطال والأبطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسه ومقدار جبايتها وموقع نعمها ولذاتها » .

كان لابد للفاطميين أن يجدوا أتباعا كثيرين لهم بين أهل الأندلس لو قدر لهم النجاح فى النزول بينهم ، اذ كانت عقيدة المهدي المنتظر سائدة فى اسبانيا كما هو الحال تماما فى بقية العالم الاسلامى ، ولقد حدث فى سنة ٩٠١ م (٢٨٨ هـ) - كما سنقص فيما بعد - أن قام أمير من البيت الأموى وادعى بأنه المهدي المنتظر ، وتطالعنا نبوءة أذاعها الفقيه عبد الملك بن حبيب (٢١) عام ٨٥٣ م (= ٢٣٩ هـ) ذكرها فى كتابه له أنشاء قبل قيام الدولة الفاطمية بعشرين سنة وفيها (٢٢) يزعم أن واحدا من نسل قاطبة الزهراء ستؤول اليه مقاليد الحكم فى اسبانيا ،

وسيفتزو القسطنطينية التي كانت معدودة اذ ذاك عاصمة العالم المسيحي ،
 وأنه سيقتل جميع الذكور في قرطبة وما جاورها من الولايات ويبيع
 نساءهم وأولادهم حتى يصبح في قدرة المرء أن يحصل على الغلام بسوط
 والخوذ الصغيرة بمهماز » ، فامن الرعاغ - كما جرت العادة في مثل تلك
 الأحوال - بصحة هذه النبوءة ، غير أنه يمكن القول بأنه كان في قدرة
 الفاطميين أن يجدوا من يحاربهم من ذوى العقول الناضجة لاسيما من
 المفكرين الأحرار ، اذ دخلت الفلسفة اسبانيا في عهد الأمير محمد خامس
 حكام بنى أمية (٢٣) ، غير أن الناس كانوا يتلففون على حلق للفلاسفة
 لأن القوم هنا كانوا أكثر تعصبا من سواهم في أسبانيا ، كما أن علماء
 الدين من أهل الأندلس الذين رحلوا الى المشرق كانوا يتكلمون في شيء
 من الحذر الشديد عن تسامح العباسيين لاسيما فيما يتعلق باجتماعات
 أئمة جميع الأديان والمذاهب حيث يطرحون على بساط البحث في هذه
 اللقاءات مسائل تتعلق بما وراء الطبيعة ويعالجونها بلا مبالاة ، كما أن
 المسلمين كانوا يتناولون في هذه الاجتماعات (٢٤) القرآن ، وكان القوم
 يمقتون الفلاسفة ويعدونهم زنادقة ينبغي حرقهم ورجمهم دون ما رحمة بهم
 أو شفقة (٢٥) ، ومن ثم أكره المفكرون الأحرار على كتم آرائهم ، ولا شك
 أنهم كرموا هذا الوضع ، واذن أفلا تدفعهم هذه الحال الى شد أزر الأسرة
 التي تتفق مبادئهم وإياها ؟

ذلك ما يذهب اليه الظن ١١

والظاهر أن الفاطميين كانوا على علم بهذا الأمر ، ويتضح لنا أنهم
 حاولوا تكوين ركن لهم في اسبانيا ، فبعثوا لها من أجل هذا السبب
 بالفيلسوف ابن مسرة (٢٦) ٨٨٣ - ٩٣١ م (= ٢٧٠ - ٣١٩ هـ) .

كان ابن مسرة هذا من أهل قرطبة وكان أخذاً بمذهب ألوهية
 الكون (٢٧) ، وقد تعمق في دراسة ترجمات بعض كتب يونانية معينة
 ينسبها العرب الى أمبيدوكليس ، ولما رمى بالزندقة اضطر الى مغادرة البلد
 والطواف بأرجاء الشرق حيث وقف على مبادئ الطوائف المختلفة ، والظاهر
 أنه انضم خفية الى طائفة الاسماعيلية السرية ، يحملنا على هذا الظن مسلكه
 في اسبانيا بعد رجوعه اليها اذ بدلا من أن يجهر بآرائه - كما كان يفعل
 أيام شبابه - أخذ في كتمانها وأظهر الكثير من الورع والتقشف ، ونحسب
 أن زعماء هذه الطائفة السرية ألقوا اليه أن تضليله الناس وخدعه إياهم
 لا يتأتى الا بطلوعه عليهم في مسوح أهل السنة والتقوى فتمكن بفضل
 هذا القناع الذي لبسه وبفضل أسنوبه العذب من اجتذاب العامة الى
 جانبه ، واختلف لسمع دروسه حشد كثيف من الطلاب الذين أخذ يفضي
 بهم شيئا فشيئا من اليقين الى الشك ومن الشك الى الجحود والكفر ، غير

أنه لم يوفق في خديعة الفقهاء الذين كانوا يسرون بهدي نفوسهم فتوجسوا خيفة منه ، وأججوا النيران لحرق كتبه وليس لحرقه هو اذ لم يكن عبد الرحمن الثالث [الناصر] يسمح بذلك .

وعلى أية حال فسواء أكان ابن مسرة هذا جاسوسا اسما عيلا أم لم يكن (لعدم وجود بينة قاطعة في هذا الصدد) الا أن الواقع هو أن الفاطميين لم يدعوا وسيلة ما لايجاد شيعة لهم في اسبانيا الا واتبعوها ونجحوا في هذا السبيل الى حد ما (٢٨) ، ولا مشاحة في أن سلطان الفاطميين كان خيرا للمفكرين الأحرار وان كان كارثة كبرى للجمهور لا سيما المسيحيين ، ولقد وردت في كلام ابن حوقل عبارة حوشية تفصح عما كان يتوقعه النصارى على أيدي الكتامين المتعصبين ، وذلك بعد أن ذكر أن المسيحيين الذين لقيهم يربون على عدة آلاف في القرى كثيرا ما يقيمون العقبات في طريق الحكومة بما يثيرونه من القلاقل والفتن ، فاقترح ابن حوقل وسيلة فعالة سريعة حتى لا يعاودوا الكرة بعد ذلك أبدا ألا وهي قتلهم جميعا على بكرة أبيهم (٢٩) .

كان هذا العمل - في نظر ابن حوقل - عملا لا غبار عليه ، غير أن الصعوبة الوحيدة فيه هي أن القتل يتطلب أمدا غير قصير ، ومن ثم تركت المسألة للزمن ، وكان من الواضح للعيان أن أهل كتامة كانوا لا يريدون تحقيق نبؤة عبد الملك بن حبيب تحقيقا حرفيا .

* * *

كان هذا هو الخطر الذي يهدد اسبانيا العربية من ناحية الجنوب ، أما الخطر الذي يهددها من الشمال فكان مصدره مملكة ليون التي أخذت في التضخم يوما بعد يوم ، وأصبح خطرها أجل وأدهى .

وليس هناك من أصل أتفه من أصل مملكة ليون هذه ففى القرن الثامن للميلاد كانت لا تزيد عن كورة يدين أهلها بالطاعة للمسلمين ، وحدث أن هرب ثلاثمائة رجل من سكانها تحت قيادة الزعيم « بلاى » واعتصموا بالجبال الشاهقة الواقعة شرقى « أشتوريش » وأقاموا فى كهف صغير يسمى « كوفادنيا » يقوم على نجد شاهق اذ يصعد المرء اليه تسعين خطوة ، وهو منحوت فى صخرة هائلة ويطل على واد سحيق يشقه أخدود تتجمع فيه السيول وتقوم على جانبيه سلسلتان من الصخور شديدتا الانحدار قل أن يتمكن الفارس من المرور بينهما الا بشق النفس (٣٠) ، ومن ثم لم يكن من العسير على ثلة ضئيلة من الشجعان دفع عادية المغير مهما شأهم عددا وعدة ، وهذا ما فعله الأشتوريون وان أغرقهم اليأس فى طياته حتى لقد سلم بعض أصحاب بلاى وأبى آخرون فمات أكثرهم جوعا ، ومرت على بلاى لحظات تلفت فيها حوله فلم يجد غير أربعين شخصا منهم

عشر نساء وليس لديهم جميعا ما يقتاتون به سوى العسل الذى يشتاره النحل ويضعه فى شقوق الصخور ، لذلك تركهم المسامون وشأنهم قائلين : « ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم » .

ورآى المسلمون ان ليس يجديهم نفعا أن يتعقبوا هذه الفالة فى ذلك الوادى الخطير الذى لاقى فيه كثير من الأبطال حتفهم دون أى عمل مجيد قاموا به (٣١)، وكان اهمال المسلمين هذا مساعدا لبلاى على تقوية عصابته فانضم اليه رهط كبير من الهاربين أخذ يشن بهم الغارات على الأرض الاسلامية ، وتوالت هذه الهجمات (٣٢) .

وأراد «مندوسة» (٣٣) البربرى - وكان اذ ذاك المتنفذ على الأشتوريين - أن يضع حدا لهذا التخريب فندب لمحاربة بلاى أحد قواده واسمه علقمة ، غير أن حملة علقمة هذه باءت بأعظم خسران ولقى جنوده أشنع هزيمة ، وكان علقمة نفسه بين القتلى ، فشدد نجاح عصابة بلاى من أزر الأشتوريين فرفعوا راية العصيان .

أما مندوسة الذى لم يكن لديه الجند الكافى لخماد هذه الثورة والذى خشى أن يقطع عليه خط الرجعة فقد غادر جييجون - محل اقامته - وشخص الى ليون ، لكنه لم يكده يقطع سبع مراحل حتى داهمه التوم وهاجموه وأصيب بخسارة فادحة ، فلما بلغ ليون دق اليأس والخوف جميع جنده لرفض العودة الى هذه الجبال التى تعيد لهم ذكرى خسائره (٣٤) .

سرعان ما ازدادت قوة الأشتوريين بعد أن تخلصوا من نير السلطان الأجنبى ، وكانت تتآخمهم من الشرق امارة « كئتمونيا » التى لم تخضع أبدا للمسلمين ، وتكاثرت قوات المسيحيين حين ارتقى عرش أشتوريش الفونس الذى كان قد تزوج قبل ذلك بابنة بلاى ، ومنذ ذلك الحين تكاثف الجميع - بطبيعة الحال - على صد المغير ورده الى الجنوب ، وواتتهم الظروف اذ ذاك حين اعتنق البربر مذهب الخوارج ، وكانت غالبية مسلمى الجنوب من هؤلاء البربر الذين ثاروا ضد العرب وأخرجوهم من البلاد لكنهم لقوا الهزيمة حين تابعوا سيرهم شطر الجنوب وقتلوا كأنهم الوحوش الضارية ، وعلى الرغم من أنهم لاقوا منيتهم بظلم السيوف الا أن المجاعة المروعة التى بدأت عام ٧٥٠ م (= ١٣١ - ١٣٦ هـ) وأصابت اسبانيا لمدة خمس سنوات متتالية كانت أقوى عامل فى اخضاع البربر (٣٥) ، فأجمع أكثرهم العزم على مغادرة اسبانيا واللحوق بأبناء عشيرتهم النازلين بالبريقية (٣٦) .

اهتبل أهل جليقية فرصة هذه الهجرة وقاموا جميعا قومة رجل واحد

متمردين على المغير الذي احتل بلادهم قبل عام ٧٥١ م (= ١٣٢ هـ)
وملكوا عليهم الفونس واستطاعوا بفضل معاونته اياهم الفتك بعدد كبير
من أعدائهم وارغام الباقين على الانسحاب الى أشتورقة .

واستمر البربر يتقدمون شطر الجنوب (٣٧) عامي ٧٥٣ - ٧٥٤
فأخلوا يراجة وبورتو وبازو وتخلص هذا القسم بأكمله - حتى منبع نهر
دويرة - من نير العبودية ، ولما كان العرب قد أخذوا في الارتداد على
طول الخط ولم يستطيعوا المكث في أشتورقة أو ليون أو سمورة أو لديمما
أو شملنقة فقد مضوا الى قورية وماردة .

أما في الجانب الشرقي فقد غادروا صلدانية وسيمكناس وسيجوفيا
وأفيلا ووخشمة وميرندة ، وتقع كلها على نهر الابرو ، كما غادروا شنشيرو
والزانكو وهما في ولاية رية ، ومنذ ذلك الحين أخذت المعازل الاسلامية
الهامة في التحول من الغرب الى الشرق حيث كويمبر على نهر موندجو ،
وحيث مدينة طلبيرة وطيطة على نهر تاجة ووادي الحجارة وطيطة
وبنلونة .

ومنذ سنة ٧٧٠ م (= ١٣٢ هـ) تعاونت الحروب الأهلية والمجاعة
العظمى على تحرير جزء كبير من اسبانيا من الحكم الاسلامي الذي لم يدم
أكثر من أربعين سنة ، غير أن الفونسو انتفع ببعض الشيء من الفوائد التي
تهيأت له فراح يذرع البقاع التي غادرها المسلمون وحكم السيف في رقاب
من وجده منهم بها ، وكانوا بلا شك ثلة قليلة ، غير أن أملة في امتلاك هذه
البلاد تبدد هباء لقلّة من لديه من العبيد اللّازمين لفلاحة الأرض في اقليم
فسيح كهذا الاقليم ولقلة توافر المال في يديه مما يلزمه لترميم تلك القلاع
والحصون التي عمد المسلمون الى هدمها أو تخريبها قبل رحيلهم ، ومن
ثم استصحب معه مواطنيها حين آب الى مملكته ولم يستطع أن يحتل سوى
الاقاليم المتاخمة لممتلكاته الأولى وهي اقليم « لبيانا » (أي الجزء الجنوبي
الشرقي من مقاطعة سانت أندريه) وقشتاله القديمة التي سميت فيها بعد
بردولة وشاطيء جليقية (٣٨) وربما مدينة ليون أيضا (٣٩) .

أما بقية الاقليم فلم يكن منذ زمن بعيد غير صحراء قفر تعتبر (٤٠)
حدا فاصلا بين نصارى ومسلمي الجنوب (٤١) .

الا أن خلفاء الفونس الأول أتموا ما عجز سلفهم عن ادراكه ، ذلك
أنهم في حروبهم ضد العرب دأبوا على اتخاذ مدينة ليون مركزا لهم وراحوا
يعملون شيئا فشيئا على إعادة بناء أهم المدن والقلاع ، فلما كان النصف

الثاني من القرن التاسع للميلاد - حين كان أهل الجنوب كله على وجه التقريب متمردين على السلطان - أخذ المسيحيون يمدون حدود اقليمهم حتى بلغوا نهر دويرة حيث شيدوا أربعة حصون قوية هي : سمورة ، وشمنقة وشنت اشتين دي جرمان وخشمة ، وهذه القلاع هي الحد الفاصل بينهم وبين المسلمين ، وهو حد ليس من اليسير اختراقه .

أما الاقليم الواسع الفقير المجلب (الممتد من نهر دورو الى وادي يانة) فقد بقي مستقلا غير تابع لأحد من العرب أو أهل ليون ، لكنه كان ميدان تنافس بينهما (٤٢) .

وأما من الناحية الغربية فقد كان الآخرون أكثر احتكاكا بأعدائهم الطبيعيين ، والسبب في ذلك أن حدودهم في تلك المنطقة كانت تمتد الى ما وراء « مندجو » (٤٣) الا أنه طالما اجتيزت هذه الحدود ، كما استفاد الليونيون أيضا من ضعف السلطان فأرسلوا بعض الحملات الجريئة التي ظلت تتابع سيرها حتى جاوزت نهري تاجه والوادي اليانع (٤٤) ، وكان معظم القبائل النازلة بين هذين النهرين من البربر ، ولم تكن قادرة على المقاومة لانصرافها بطبيعة الحال الى ما كان بينها من حروب (٤٥) ، ومن ثم فقد أكرهوا على الخضوع للمسيحيين ابقاء على نفوسهم من الدمار .

لكن يبدو أنه قد حانت للمسلمين أخيرا فرصة الانتقام ، ذلك أنه في سنة ٩٠١ م [= ٢٨٩ هـ] قام أمير من البيت الأموي واسمه أحمد بن معاوية ، وكان متكبا على دراسة الكيمياء والسحر كما كان طامعا في العرش - وأعلن بين البربر أنه المهدي المنتظر وحتم عليهم الانضمام الى صفوفه ليسير بهم جميعا ضد « سمورة » وهي المدينة التي أعاد الفونس الثالث بناءها بمعاونة حلفائه مسيحيي طليطلة سنة ٨٩٣ م (= ٢٨٠ هـ) والتي أضحت تثير الخوف في نفوس البربر كما كانوا يضعون فيها غنائمهم آمنين عليها لوقوعها خلف خنادق تحميها كما تقوم أمامها سبعة أسوار (٤٦) .

ولقد تكلمت دعوة أحمد بن معاوية البربر لحمل السلاح بنجاح عظيم ، ولما كانوا سدجا سريعي التأثير والتصديق لما يلقى اليهم ويتوقون للثأر لأنفسهم فقد التففت جماعات كثيرة منهم حول أمير زعموه يأتي بالمعجزات ويؤيده الباقون ، وآمنوا بما أكده لهم من أن أسوار جميع المدن سوف تدك دكا عند اقترابهم منها ، وما انقضت بضع شهور حتى كان هذا الداعي قد جمع حوله جيشا يبلغ ستين ألف رجل سار بهم شطر نهر دورو ، فلما اقترب من سمورة بعث الى الملك الفونس الثالث - وكان مقيما بها - رسالة عنيفة يحذره فيها من وخامة العاقبة ان لم يبادر هو ورعيته الى

اعتناق الاسلام ، فلما وقف الفونس على مضمون الخطاب تميز غيظا هو
وكبار رجال حاشيته ، وتملكهم الغضب وأقسموا لينتقم من كاتب هذه
الرسالة ، وأن يكون انتقامهم عنيفا منه ، ودلفوا الى جيادهم فامتطوها
لمهاجمته ، وخف فرسان البربر لدفعهم ، ولما كانت مياه « دورو » ضحلة
(اذ كان الوقت صيفا والشهر شهر يوليو) فقد شبت المعركة فى مجرى
النهر ولم تجد السيوف أهل ليون نفعا فقد أنزل البربر بهم الهزيمة
وحالوا بينهم وبين العودة الى المدينة ودفعوهم أمامهم الى داخل الاقليم .

* * *

ان النهاية التى انتهت اليها الحملة لم تكن تبعث على التساؤل
بما سوف يحدث بعد المعركة الاولى .

أجل ، لقد استطاع المهدي المزعوم أن يكون له السلطان المطلق على
جنوده ، وكان يعتقد أن اصداره الأوامر باللسان حط من مكانته ، فكانت
أوامره اشارات ، يلبيها الجميع ويطيعونها طاعة عمياء ، غير أنه كان كلما
قوى نفوذه على البسطاء من جنده كلما تأججت الغيرة منه فى نفوس القادة
الذين أدركوا أنه لو تحقق نجاح الحملة لأدى ذلك الى تغلب نفوذ المتنبى
المزعوم الذى لا يؤمنون بدعواه ، ومن ثم فقد أخذوا يتحينون الفرصة لى
يقتلوه ولكنها كانت فرصة لم تتح لهم .

الا أنه حدث فى أثناء مطاردتهم العدو أن قام أقوى الرجال فيهم وهو
« ذلل بن يعيش » شيخ قبيلة نفوسة وأخبر أصدقاءه أنهم ارتكبوا جرما
فظيحا بمقاتلتهم أهل ليون ، وأن الرجوع الى الحق واجب ، ولم يصادف
صعوبة فى حملهم على مشاركته شعوره ، فعقد الجميع الخناصر على افساد
تدابير « المهدي » وارتدوا ، فلما بلغوا مركز الطليعة على الشاطئ الأيمن
لنهر دويره جمعوا متاعهم زاعمين أن الهزيمة حاقت بهم وأن العدو فى
آثارهم ، ووجدت مزاعمهم من صدقها لا سيما أنه لم يكن معهم غير قالة
قليلة من الجيش ، أما البقية فيظهر أنها أبت طاعتهم أو أنها لم تكن تعلم
بمقصدهم .

اشتد الفزع بنفوس البربر الذين راموا النجاة فى الهرب السريع ،
وبادر عدد جم من الجند بالانطلاق شطر نهر دورو ، فلما أبصرتهم حامية
سمورة خرجت اليهم وعملت فيهم مقتلة عظيمة فى اللحظة التى كانوا خلالها
يحاولون عبور النهر ، الا أن غالبية الجيش المسلم الذى كان لا يزال مرابطا
على الشاطئ الأيسر للنهر حاصرت أهل ليون ، ولم تكن حالهم فى اليوم
التالى بالحال التى تمكنهم من امكانية الوصول الى نصر حاسم ، غير أن
تسلل الحشود من جيش المهدي كان يزداد شيئا فشيئا مما كان عاملا على

تقوية خصومهم ، وأخذ المهدي يعد جنوده بالنصر فما صدقه أحد ، فلما كان اليوم الثالث داخله اليأس اذ أصبح في شرذمة ضئيلة من عسكره . ولما كان يأنف من الحياة في ظل العار فقد ضرب خاصرة جواده بمهازه ورمى بنفسه وسط كتائب عدوه فلقى المنية التي ودها ، ورفعوا رأسه على باب سمورة (٤٧) .

أدت هذه المعركة بطبيعة الحال الى ارتفاع معنويات أهل ليون الذين كانوا يعولون على معونة أهل تطيلة لهم لا سيما معونة شانجة الكبير ملك نافارة الذي جعل لاقليمه أهمية لم تكن له من قبل ، لذلك أخذوا يتطلعون الى اسبانيا الاسلامية تطلعهم الى غنيمة ينبغي ألا تفلت من أيديهم ، كما وجهوا أبصارهم شطر الجنوب ، لكن شدة املاقهم وحاجتهم القصوى للمال دفعتهم للمفاوضة (٤٨) وأفهمهم قساوستهم (الذين كانوا موقرين لديهم توفيراً جما والذين غمروهم بعطاياهم) أن حربهم الكفار أضمن وسيلة لبلوغهم الجنة ، فمضوا يذرعون رحاب الأندلس الغنية ، وطمعوا في خير الدنيا والآخرة ، فهل أنقذت الأندلس من سطوتهم ؟

لو أنها فشلت لحاق العذاب الاليم بالمسلمين ، ولما كان أهل ليون قد بلغوا الغاية القصوى في النعصب والقسوة فلم يكونوا يبقون على قيد الحياة أحدا ما يقع في أيديهم ، وكانوا اذا استولوا على بلد حكموا بالسيف بطبيعة الحال في رقاب سكانه جميعا ، هذا في الوقت الذي لم يكن هناك من مثيل للتسامح الذي يبديه المسلمون تجاه النصارى .

لكن ما الذي كانت تؤول اليه الحضارة العربية الزاهية التي أخذت تخطو قدما في معارك التقدم تحت حكم هؤلاء البربر الأميين الذين كان اذا أعوزهم الرجال لمسح الأرض عمدوا الى استخدام هؤلاء الشرقيين ، والذين كانوا اذا تكلموا عن المكتبة قصدوا بها الكتب الدينية ؟

وجلى أن المهمة التي كان على عبد الرحمن الناصر الاضطلاع بها في مستهل حكمه كانت مهمة عظيمة رائعة تتضمن تخليص وطنه بل والحضارة ذاتها ، فكانت مسئوليته جسيمة شاقة ، وكان عليه اخضاع رعيته وصد بربر الشمال الذين كانت سفاهتهم تزداد كلما أخذت الدولة الاسلامية في الضعف ، كذلك كان يتحتم عليه الضرب على أيدي بربر الجنوب الذين استولوا على دولة شاسعة مترامية الأطراف وراحوا يفكرون في وجوب الزحف على الأندلس وأدرك عبد الرحمن المهمة المنوطة به . ولقد رأينا أنفا كيف استطاع السيطرة على مملكته وتهدهه الأمور بها (٤٩) .

وسنرى في الفصول التالية كيف استطاع الوقوف في وجه أعدائه الذين كانوا خارج البلد .

الفصل الثاني

- اردونيو الثاني ضد الناصر • حملة ابن ابي عتبة • بطولته ومقتله • الناصر ضد الفاطميين سرا • امير ناكور يناهضهم • مقتل الأمير • الناصر يرحب بإبناء صاحب نكور وانتصار أحدهم على الفاطميين • تحالف اردونيو وملك نفارة لازعاج الناصر • حملة الحاجب بدر وانتصاره على نصارى ليون • الناصر يستولى على وخشمة • محمد بن لب يد مر حصن قلقرية • تصالف شانجة واردونيو ضد المسلمين • معركة بانبلونة وموت اردونيو • النزاع بين ملوك النصارى • تحالف بعض القوى الاسلامية ضد الناصر وانتصاره •

الفصل الثانى

المواجهة بين الناصر

ومراكز القوى المسيحية

وجد عبد الرحمن الناصر نفسه - فى مستهل حكمه - مضطرا الى مناضلة أهل ليون مناضلة لم يكن يفكر فيها ، فقد حدث فى سنة ٩١٤ م (= ٣٠٢ هـ) أن شرع ملكهم القوى « أردونيو » الثانى فى مجاهرته بالعداء باغراقه اقليم ماردة فى بحر من النار والدم ، وباستيلائه على قلعة « الحنش » (١) واجهازه بالسيف على جميع المدافعين عنها وسببه النساء والأطفال مما بث الفزع فى نفوس سكان بطليموس وخافوا أن يكون مآلهم مآل جيرانهم ، فذهبوا برياسة واليهم الى الملك المسيحى ملتجئين منه أن يقبل كل ما حملوه اليه من غالى المتاع ، فتقبل أردونيو ذلك مسرورا ، ثم عبر نهري دورو وتاجه منتصرا محملا بالغنائم ، وفى طريق عودته الى ليون أظهر شكره للعدراء باقامة كنيسة لها (٢) .

ولما كان سكان الأقاليم التى غزاها أردونيو لم يدينوا له بالطاعة بعد فقد كان فى استطاعة عبد الرحمن - لو شاء - أن يفض الطرف عما كان منهم لولا أن ذلك العمل لم يكن يتفق ووجهة نظره ، ولما كان يعلم جيدا أنه ينبغى عليه أن يستميل اليه أفئدة رعيته الثائرة بأن يظهر لهم دائما بمظهر الدائد عنهم ، انراعى لأحوالهم فقد آلى على نفسه الا القصاص من ملك ليون ، ومن ثم جيش جيشا اليه فى يوليو ٩١٦ م (= محرم ٣٠٤ هـ) وأغزى أحمد بن محمد بن أبى عبدة قائد عمه العجوز ، وما كانت هذه الحملة التى هى أول حملة بعد خمسة عشرة سنة من محاولة المهدي المزعوم سوى غزوه للسلب وقت غنم فيها المسلمون غنائم عظيمة (٣) .

فلما كانت السنة التالية تشكى سكان الحدود من عيث الليونيين فى أرضهم واحراقهم أرباض طلبيرة الواقعة على نهر التاجة وحرصوا عبد الرحمن الذى أصدر أمره الى ابن أبى عبدة بشن حملة أخرى والاغارة ومحاصرة حصنهم القوى « شنت اشتين دى جرمان » والذى يسمى أيضا

باسم « قاشتر مورش » (٤) ، وكان جيشه كثيفا فيه جماعة من المرتزقة الافريقين الذى استقدمهم عبد الرحمن من طنجة .

وقد استهل الجيش حركته بما يبشر بالفوز فضيق الخناق على حامية شنت بتيبن دى جرمان التى كانت على وشك التسليم لولا أن أقبل أردونيو لنجدتها فهاجم ابن أبى عبدة الذى شاء سوء طالعه ألا يكون، جميع جنده من طنجة وحدها لوجود طائفة كبيرة بينهم من سكان الحدود الذين لم يكن فى استطاعة أحد ما الثقة بوفائهم أو الاعتماد على حماسهم بل كانوا نصف متبربردين ونصف أسبان فلم يكادوا يبصرون ما يفعله الليونيون من التدمير والتخريب حتى استصرخوا بالسلطان ولم يصمدوا فى وجه عدوهم مما آتاح له الفرصة للظهور عليهم ، كما أنهم فى أثناء عودتهم كانوا أكبر العاملين على بث الفوضى الشاملة فى صفوف الجيش كله ، ولما رأى ابن أبى عبدة الشجاع أن الهزيمة أمر لا مناص منه أظهر الصبر وآثر أن يلقي حتفه فى المهمة التى نيّطت به وكره السلامة يوفرها له الفرار ، ووقف الى جانبه كثير من جنوده الذين رأوا رأيه فاستشهدوا عن آخرهم بسيوف النصارى .

ويذكر المؤرخون العرب أن قسما كبيرا من بقية الجيش أفلح فى الانضمام الى بعض ونجحوا فى الوصول - على أكمل نظام - الى المنطقة الاسلامية ، لكن المؤرخين المسيحيين يذكرون خلاف ذلك فيزعمون أن انكسار المسلمين كان انكسارا كليا حتى لقد غطت جثث القتلى الهضاب والغابات والحقول الممتدة ما بين دويرو - وأنتيزا وجرى على أديمها كله الدم المطلول (٥) .

لم يجد الياس سبيلا الى قلب عبد الرحمن اذ سرعان ما أخذ أهبطه لمحو آثار هذه النكبة غير أن مشاكل أفريقية استرعت انتباهه بينما كان يعد العدة لانفاذ حملة جديدة فى العام التالى .

وعلى الرغم من أنه لم يكن فى حرب ضد الفاطميين الذين لن يشيروا امامه ما يحمله على الشكوى منهم لانشغالهم بفتح بلاد المغرب الا أنه أدرك أنهم سوف يسلون سيوفهم ضد الأندلس حالما يفرغون من هذا الفتح ، ومن ثم رأى واجبه يقتضيه أن يبذل قصارى جهده لانقاذ المغرب حتى يبقى سدا حائلا بين الفاطميين وبين أسبانيا ، لكنه مع ذلك رأى أنه ليس من الصواب أن يعلن الحرب على هذه الدولة فى وقت لم تزل فيه نيران الفتنة مشتعلة فى مملكته ، ولم يسأله نصارى الشمال فى الصلح ، والا كان اعلانه الحرب على الفاطميين دافعا لهم على النزول على شاطئ الأندلس ، ورأى ان كل ما يستطيع عمله فى تلك الظروف المحيطة به هو أن يساعد - فى الخفاء - الأمراء الذين فى استطاعتهم مقاومة المغير على أراضيهم .

وأتاحت الفرصة عام ٩١٧ [= ٣٠٥ هـ] حين هاجم الفاطميون أمير نكور (٦) الذي كان من أسرة عربية الأصل حكمت نكور وما حولها منذ أن فتحها ، وكان أبرز ما تمتاز به هذه الأسرة هو تمسكها بأهداب الدين ، كما ذاعت شهرتها منذ أن افتدى السلطان محمد أميرتين من هذه الأسرة كان القراصنة النرمنديون (٧) قد اختطفوهما ، ومنذ ذلك الحين ظلت على أمتن الصلات الودية مع إسبانيا .

ولقد قام أحد القضاة من هذه العائلة - واسمه عبد الرحمن بن سعيد - وكان فقيها ورعا حج الى مكة أربع مرات وشخص الى الأندلس أيام عبيد الله قصد الجهاد ، وفي أثناء مغادرته السفينة هاجمه ابن حفصون وقتل كل من كان معه ولم ينج أحد سواه فوصل وحيدا الى معسكر السلطان [في مرسية] ، واستشهد في الحرب ضد ديسم [بن اسحق] أمير ولاية تدمير (٨) .

حين غزا الفاطميون المغرب كان على نكور الأمير سعيد بن صالح (٩) فطلبوا اليه الخضوع لهم فأبى ، غير أنه - أو بالأحرى شاعره الأندلسي - أضاف الى الرفض عدم الفطنة اذ كان الخليفة قد بعث اليه بأبيات شعرية تحمل في معناها عزمه على سحق أهالي نكور ان هم رفضوا الدخول في طاعته ، ووعدهم بالعدل بعم بلادهم ان هم أذعنوا له ، فرد عليه الشاعر الأحمر الطليطلي بالأبيات التالية (١٠) :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت الا كافر ومنافق تميل مع الجهال في السنة المثلى
وهمتنا العليسا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فاشتد غيظ الخليفة الفاطمي عبيد الله فكتب في الحال الى قائده مصالة حاكم تاهرت يأمره بالنهوض لمهاجمة نكور ، ولما لم يكن لدى سعيد بن صالح الشيخ من قلعة يتخذها حصنا له فقد مضى لمهاجمة العدو وحاربه ثلاثة أيام (١١) ، الا أن أحد قواده (١٢) خانه فلاقى أخيرا منيته في ميدان القتال مع جميع عسكره سنة ٩١٧ م ، واستولى مصالة على نكور وقتل رجالها وسبى نساءها وأسر أطفالها .

كان سعيد قد حذر أولاده وأوصاهم فتحين ثلاثة منهم الفرصة وأبحروا قاصدين ميناء مالقة ، فلما بلغوها أمر عبد الرحمن الثالث بالاحتفاء بمقدمهم أبهى احتفاء ، وفي الوقت ذاته أبدى استعداداه وترحيبه باستقبالهم اذا شخصوا الى قرطبة ، لكنه لما لم يكن راغبا في التضييق

عليهم فقد ترك لهم حرية الإقامة في مالقة طالما هذا هواهم ، وأجابه
الأمراء بأنهم يؤثرون البقاء في بقعة تكون على مقربة من مسرح الأحداث
لأنهم يؤملون العودة في القريب العاجل الى وطنهم ، ولم تطش آمالهم
بددا فقد فكر مصالة في الرجوع الى تاهرت بعد ستة شهور قضاها في
نكور التي استخلف عليها ضابطا كناميا اسمه « ذلول » في فئة قليلة
من الجند ، فانتهاز هذه الفرصة هؤلاء الأمراء [الثلاثة] الذين كان أتباعهم
يوافونهم بكل ما يجد ، وجهزوا السفن واستقلوها الى نكور بعد أن اتفقوا
فيما بينهم على أن تكون ولاية الامارة لأسبقهم في الوصول اليها ، فكان
صالح - وهو أصغر الأبناء الثلاثة - أسبق الاخوة ، فتسارع اليه بربر
الساحل ورحبوا بمقدمه وأمره (١٣) عليهم وساروا قاصدين نكور
وفتكوا بذلول وجنده ، وسرعان ما حرر صالح - وقد ملك الاقليم - كتابا
الى عبد الرحمن الناصر يشكر فيه عطفه عليه وعلى أخوته ، ويفضى اليه
بنبا انتصاره ، وأعلن في الوقت ذاته - في جميع رحاب المملكة - سيادة
هذا الحاكم ، فبعث اليه عبد الرحمن بالأخبية والآلات والبنود
والطبول (١٤) .

إذا كانت أحداث نكور قد أنست عبد الرحمن الثار لهزيمة جيشه
ولوت قائده الباسل ابن أبي عبدة الذي علق أردونيو رأسه على سور
شنت اشتيين الى جانب رأس خنزير برى (١٥) فإن المسيحيين ذكروه
بهذا كله حين عاث أردونيو الثاني وحليفه (١٦) ملك نفارة في ربيع ٩١٨م
[= ذو القعدة ٣٠٥ هـ] في منطقتي ناجرة وتطيلة ، ثم استولى شانجة
بعد ذلك على اقليم بلتيرة وأحرق الجامع وحصنها (١٧) ، فعهد عبد الرحمن
الثالث اذ ذاك بقيادة عسكريه الى بدر [بن أحمد] الحاجب وأرسل الى
سكان الحدود يطلب اليهم الانضواء تحت لوائه [والجند في نكاية أهل
الكفر] وحثهم على اغتنام هذه الفرصة لغسل عار هجوم السنة الماضية .

وفي السابع من يوليو ٩١٨ م [= ٢٥ محرم ٣٠٦ هـ] غادر
الجيش قرطبة ، فلما بلغ حدود ليون حمل حملة عنيفة على العدو المعتصم
بالجبال ، ونشبت معركتان في الثالث عشر والخامس عشر من أغسطس
[٣ وه ربيع الأول ٣٠٦ هـ] على مقربة من مكان يدعى مطونية (١٨) ،
وخرج المسلمون ظافرين في كل من الوقعتين ، أما أهل ليون فيشهد
مؤرخهم أنهم قد تأسوا بقول داود عن الشك في السلاح (١٩) .

تم لعبد الرحمن مسح عار هزيمته غير أنه كان واثقا من أن أهل
ليون لم يخضعوا بعد ، وكان يتحرق شوقا لمشاطرة قواده شرف الظهور
في الحرب على الكفار ، فقاد الجيش بنفسه وجهاز حملة استولى بها على
وخشمة (٢٠) ، اذا اتفق مع عاملها على تركه هو وشأنه ، واستأجر

عبد الرحمن جيش هذا الرجل وتظاهر بقبوله عرضه بالشخص الى نهر
أبرو عن طريق مدينة سالم ، لكنه انعطف فجأة يسارا الى نهر دويرو ،
وبعث أمامه كتيبة من الفرسان أمرا اياها سلب أرباض وخشمة وتدميرها ،
فذهلت حاميتها لهذا الهجوم المباغت وأسرعت الى الاعتصام بالغياض
والأكام والجبال ، ودخل المسلمون الحصن دون مقاومة وأضرموا فيه
النار ثم مضوا فهاجموا حصن شنت اشتيبن دي جرمان ودخلوه هو أيضا
دون أن يصادفوا أى مناهضة لهم فقد فرت عنه حاميته حين قدوم
المسلمين الذين دخلوه ودمروه كما دمروا حصن القبيلة (٢١) المجاورة له ثم
ساروا من هناك الى قلونى (٢٢) وهى بلدة قديمة هامة درست معالمها
اليوم ولم يبق ما يدل عليها سوى أطلالها ، ويظهر أن الليونيين اتفقوا
على عدم المقاومة فى أية جهة ، فقد وجد المسلمون قلونية خالية تماما
فهدموا كثيرا من بيوتها وكنائسها .

كان من أثر استغاثة مسلمى تطيلة بعبد الرحمن أن عزم على محاربة
شانجة ملك نفارة ، فسار على مهل حتى لا ينهك التعب جيشه وقطع
المسافة ما بين قلونية وتطيلة فى خمسة أيام ، ثم وضع كتيبة من الفرسان
رهن أوامر محمد بن لب عامل تطيلة وأمره بمهاجمة حصن قلقرة الذى بناه
شانجة ليصرف منه على سكان تطيلة وليجعلهم فى خوف دائم منه ،
فوجد المسلمون الحصن مهجورا اذ سرعان ما فر عنه شانجة الى أرميدو .

ومع ذلك فقد هاجم شانجة مقدمة المسلمين حين عبورهم نهر ابرو ،
ودارت بين الفريقين رحى القتال الذى أظهر المسلمون فيه أنهم اذا كانوا
قادرين على الاستيلاء والنهب وحرق القصور غير المحصنة فهم قادرون
أيضا على الحاق الهزيمة المنكرة بالعدو واكراهه على الاعتصام بالجبال
طلبا للسلامة ، وقامت مقدمة الجيش وحدها باحراز هذا النصر الغالى ،
أما عبد الرحمن الذى كان فى الوسط فقد كان لا يدري بأن جيشه قهر
العدو ولم يعلم بهذا الأمر الا حين حملوا اليه رؤوس القتلى .

استنجد شانجة بأردونيو حين دارت الدائرة عليه وأصبح لا يقوى
بمفرده على مقاومة المسلمين ، فأجمع العاهلان العزم على مهاجمة مقدمة
الجيش أوساقتة حسبما تسمح الظروف ، وفى أثناء ذلك كان المسيحيون
الذين لم يغادروا الجبال قد حملوا على جناحى المسلمين الذين كانوا يسرون
عبر الممرات والأودية صارخين صرخات عالية لبث الفرع فى نفوس أعدائهم
وانتفعوا بما مهدته لهم الأرض فقتلوا البعض .

وغنى عن البيان أن الجيش المسلم ألقى نفسه فى مركز خطر ،
واستعمل من أهل الجبال خفاف الحركة ذوى اليأس الذين يذكرون النكبة
الكبرى التى أنزلها أجدادهم بجيش شارلمان العظيم فى وادى باب

شيزروا (٢٣) ، والذين أرادوا اغتنام الفرصة في هذه اللحظة لانزال مثلها بجيش عبد الرحمن الذي لم يكن جاهلا الخطر الذي يهدد رجاله ، لذلك لم يكذب يبلغ وادى الخيزران (٢٤) (الذي سمي بهذا الاسم لكثرة الخيزران به) حتى أمر بنصب الخيام ، وحينئذ ارتكب المسيحيون هفوة جسيمة اذ نزلوا السهل بدلا من اعتصامهم بالجبال وتقدموا غير وجلين ، فالتحموا بالمسلمين فيما أرادوه من حرب ، بيد أنهم دفعوا غاليا ثمن تهورهم اذ تكبوا بهزيمة ساحقة ، وتعقبهم المسلمون حتى حجز الظلام بينهم وبين عدوهم وأخفاه عن أبصارهم ، لكنهم أسروا نفرا من قواده من بينهم مطرانان هما « هرموجيس » أسقف توى ، و « دولكيديس » أسقف لمنقة اللذان تسربلا بلباس الحرب كما كانت العادة اذ ذاك .

وعلى الرغم من ذلك فقد تسلل أكثر من ألف نصراني لو اذا الى قلعة مويش معتصمين بها ، فأحرق بها عبد الرحمن واستولى عليها وقطع رؤوس جميع المدافعين عنها ، وراح المسلمون يخربون الحصون دون أن يجدوا أدنى مقاومة ، ثم راحوا يجوسون خلال نفارة يزدهيهم النصر ويتشدقون بأنهم أحرقوا كل ما صادفوه في بقعة مساحتها عشرة أميال مربعة ، وكانت الغنيمة - لاسيما المؤونة - التي استولوا عليها عظيمة فكانوا في معسكرهم يبيعون القمح بسعر التراب (٢٥) ، ثم عمدوا الى حرق جزء كبير من المؤونة حين عجزوا عن حملها كلها .

خرج عبد الرحمن من هذه الحملة منصورا يخفق فوق رأسه علم الفخار ، فأخذ في اليوم الثامن من شهر سبتمبر في الارتداد ، ولما بلغ أنتيسة فارق عسكر الحدود الذين أبلوا بلاء حسنا في وقعة وادى الخيزران بعد أن فرق فيهم عطاياه ، ثم قفل راجعا الى قرطبة التي بلغها في الرابع والعشرين من شهر سبتمبر (٢٦) بعد غيبة طالت ثمانية أشهر (٢٧) .

كان من حق عبد الرحمن أن يعلى نفسه بأن من شأن هذه المعركة الظافرة أن تنزع من نفوس النصارى الى حد ما التفكير في معاودة الغارة على الأرض الاسلامية ، بيد أنه كان يواجه خصما ليس من اليسير عليه أن يخضد شوكته ، فلقد حدث في عام ٩٢١ م أن شن أردونيو غزوة أخرى (٢٨) .

واذا سلمنا بما يذكره أحد المؤرخين النصارى الذي ربما أسرف في تقدير مدى الانتصارات التي أصابها أبناء دينه فقد أصبح ملك ليون على مسيرة يوم واحد من قرطبة (٢٩) ثم استولى بعد عامين على ناجرة (٣٠) ، بينما استولى حليفه شانجة - ملك نفارة - على بقيرة (٣١) التي كان من أثر مباهاته بها أن قال قول النبي (٣٢) « لقد شتتت شملهم ، وأكرهتهم على الفرار الى أماكن قاصية مجهولة » .

دب الذعر في أسبانيا الإسلامية من جراء استيلاء النصارى على بقيرة (٣٣) ، فقد ترامي إلى الأسماع خبر قتل جميع المدافعين عنها وفيهم رجال من أبرز العائلات (٣٤) ، وإذا كان عبد الرحمن لا يميل للأخذ بثأر هذه النكبة فقد كان يدفعه إليه الشعور العام ، لكنه لم يكن في حاجة لمن يحثه على ذلك فقد ملك الغيظ والغضب عليه كل نفسه حتى أبى التريث في انتظار الفصل الذي تبدأ الحملات فيه عادة ، فغادر قرطبة في إبريل ٩٢٤ م (= محرم ٣١٢ هـ) على رأس جيشه كي ينتقم لله والدين من الشعب الدنس الكافر ، كما يقول مؤرخ عربي .

وفي العاشر من يوليو [٩٢٤ م ، = ربيع الثاني ٣١٢ هـ] بلغ حدود نفارة ، وكان اسمه يبعث الرهبة الشديدة في نفوس أعدائه ، فخلقوا أنى كانوا قلاعهم وغادروها حين قدومه ، فمر بطريقه على قلقرة وبيطرة ألته ، وقالجش ساليا كل ما يصادفه في طريقه مضرما النار فيه ، ثم توغل في الاقليم متجها شطر العاصمة . وحاول شانجة صده في الممرات الضيقة لكنه كما يرتد كل مرة خائبا ويؤوب خاسرا ، وبذلك وصل عبد الرحمن من غير مقاومة إلى بامبلونة التي لم يجسر أهلها على ملاقاته فهربوا منه ، وهدم كثيرا من بيوت المدينة كما هدم الكنيسة التي كان يفد إليها كل عام جمهور غفير من الحجاج ، ثم أمر بعدئذ بهدم كنيسة أخرى عظيمة التوقير في نفوس الأهالي كان شانجة قد بذل الأموال الطائلة في بنائها على جبل مجاور ، ولم يفلح شانجة فيما تكبده في سبيل انقاذها ، كما لحقه الفشل في محاولاته الأخرى فقد وصلته امدادات من قشتالة أغار بها مرتين على الجيش الإسلامي أثناء مسيره لكنه عاد في كليهما خاسرا ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك لم يقتل منهم غير نفر قليل في هذه الحملة الباهرة التي عرفت فيما بعد بوقعة بانبلونة (٣٥) .

ذل ملك نفارة بعد أن استبد به الزهو من قبل ، وظل ردحا من الزمن مسلوب القوى ، ولم يكن ثمت ما يخيف عبد الرحمن حينئذ من ناحية ليون فقد مات أردونيو الثاني الشجاع قبل بدء معركة بانبلونة (٣٦) ، ثم خلفه أخوه فرويلا الثاني لكنه لم يلبث غير سنة واحدة لم يساهم فيها قط بحرب ضد المسلمين إلا ببعض امدادات أنفدها إلى شانجة ملك نفارة ، فلما مات سنة ٩٢٥ م (= ٣١٣ هـ) تنازع التاج ابنا أردونيو الثاني وهما شانجة وألفونسو ، وآل التاج إلى الأخير الذي نعت بالرابع ، وكان ذلك بفضل مساعدة حميه شانجة ملك نفارة ، فلم يوهن ذلك من عزم شانجة (بن أردونيو الثاني) بل جمع جيشا جديدا وتوج في كنيسة القديس جاك ثم مضى محاصرا ليون واسنولي عليها واسنرد العرش من أخيه سنة ٩٢٦ م (= ٣١٤ هـ) إلا أنه في

سنة ٩٢٨ م (= ٣١٦ هـ) استعاد الفونس العاصمة بمساعدة النفارين
ولكن شانجة استبقى جليقية في يده (٣٧) .

لم يشغل عبد الرحمن نفسه بهذه الحرب الأهلية الطويلة بل ترك
النصرانية في نزاعها والتفت الى مصالحه الشخصية مستغلا هذه الفرصة
التي تهيأت له لاختماد الثورات التي كانت دائمة الاندلاع في أرجاء مملكته ،
حتى اذا أوشك على تحقيق رغائبه تطلع للحصول على لقب آخر ، ذلك أن
أمويي اسبانية كانوا قانعين حتى هذه اللحظة بلقب « السلطان » أو
« الأمير » أو ابن الخلائف ، أما الخليفة العباسي الذي كان وياهم في عدا
دائم فلم ينازعوه لقب (٣٨) « الخليفة » لاعتناقهم الفكرة القائلة بأن هذا
اللقب هو حق للشخص الذي تدين له مكة والمدينة بالولاء والتبعية (٣٩) ،
أما وقد أصبح العباسيون دمي في أيدي الأمراء (٤٠) ولم يتعد نفوذهم بغداد
وما حولها لاستقلال حكام الولايات بمقاطعاتهم فلم يعد ثم حائل يحول بين
الأمويين وبين الحصول على لقب هم في حاجة اليه ليحلبوا لأنفسهم احترام
رعيتهم عامة والمغاربة خاصة ، ومن ثم أمر عبد الرحمن في عام ٩٢٩ م
(= ٣١٧ هـ) أن يدعى (٤١) له ابتداء من يوم الجمعة ١٦ يناير
في الأدعية والصلوات العامة بلقب « الخليفة » مقرونا بلقب « أمير المؤمنين
الناصر لدين الله » .

في ذلك الوقت بالذات وجه كل همه نحو أفريقية فحالف محمد
بن خزر شيخ قبيلة مغراوة (٤٢) البربرية الذي هزم قوات الفاطميين
شر هزيمة وقتل بيده قائدهم مصالة فتم التحالف بين الاثنين وسرعان
ما طرد ابن خزر الفاطميين من المغرب الأوسط (أعنى إقليم الجزائر
وهرات) واعترفت هذه الناحية لعبد الرحمن (٤٣) الذي أفلح أيضا في
فصل عضد قوى من الفاطميين هو قائد مكناسة العظيم المسمى (موسى)
ابن أبي العافية الذي كان حتى هذه اللحظة ساعدهم الأيمن والذي استولى
على سبتة عام ٩٣١ م (= ٣١٩ هـ) لما كان يراه من ضرورة امتلاك حصن
على الساحل الأفريقي (٤٤) .

والظاهر أن نصاري الشمال أخذوا أنفسهم بعدم مناوأة الخليفة حتى
يتفرغ للمشاكل الأفريقية وانتهت حربهم الأهلية الأولى بموت شانجة
عام ٩٢٩ م [= ٣١٧ هـ] وما أهل ربيع عام ٩٣١ م حتى نشبت حرب
أخرى فقد حزن الفونس الرابع حزنا شديدا (٤٥) على زواجه في
هذه السنة فتخلى من تلقاء نفسه عن العرش لأخيه راميرو الثاني ، وأما هو
فقد لبس مسوح الكهنة وأقام في دير ساهاجون ، لكنه سرعان ما تبين
أنه لم يخلق لحياة الرهبانية الرتيبة فغادر الدير ونودي به ملكا على
شلمنقة ، فكان هذا العمل في نظر رجال الدين جرما لا يغتفر ، وأنذروه

بأهوال الجحيم ان لم يعد الى الرهبانية فأذعن لهم بعد لآى ، لكنه كان ممالئا غير صادق فى عودته اذ لم يلبث أن طرح لباسها عن نفسه مرة أخرى .

استغل الفونس فرصة غياب راميرو الثانى الذى كان قد ذهب لنجدة طليطلة (٤٦) التى حاصرها جنود الخليفة فجاء الى ليون واستولى عليها ، فأنكف راميروا عائدا اليها لساعته وحاصر بدوره ليون ودخلها ظافرا ، وأراد ألا يدع مجالا لأخيه بعدئذ للمطالبة بالعرش فسمّل عيون الثلاثة من أبناء عمه فرويلا الثانى الذين اشتركوا فى ثورة عام ٩٣٢ م (٤٧) .

* * *

أما من ناحية عبد الرحمن فقد تغير الموقف أمامه عما كان عليه من قبل ، اذا انقضى الوقت الذى كان يتجاهل فيه أمر مملكة ليون ، ولما كان راميرو رجل حرب وبأس فقد أذكى نار الكراهية والبغضاء المتأصلة فى النفوس ضد المسلمين ، وكان همه الأول انقاذ طليطلة تلك الجمهورية الشامخة بأنفها تيتها وكبرياء ، والتى انفردت بين جميع ولايات اسبانيا الاسلامية بتحديدها جيوش السلطان كما أنها كانت حتى هذه اللحظة حليفة صادقة لمملكة ليون ودرعا واقيا لها ، ومن ثم فقد شن الحرب وهاجم مدريد التى كانت فى طريقه واستولى عليها (٤٨) ، ومع ذلك فقد عجز عن انقاذ طليطلة حين نهضت لصدده كتيبة من الجيش المحاصر للمدينة وأرغمته على التقهقر والارتداد عنها (٤٩) تاركا اياها وشأنها ثم لم تلبث أن سلمت عام ٩٣٣ م (= ٣٢٣ هـ) . حين فقدت كل أمل لها .

وخان الحظ راميرو اذ أخبره فرديناند كونثالت (أو جونزالتز) كونت قشتالة أن الجيش الاسلامى يهدد وخشمة فنهض لدفعه وأوقع به الهزيمة (٥٠) .

لكن عبد الرحمن أخذ بثأره عام ٩٣٤ م ، وكان يتطلع لأن تشهد سهول وخشمة كبرى انتصاراته كما شهدت عار الهزيمة قبل ذلك بقليل ، فحاول عبثا اخراج راميرو من الحصن ، وحينذاك رأى ملك ليون أن الحكمة تقتضيه عدم المساهمة فى معركة يفرضها المسلمون ، وخلف عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخشمة لمحاصرتها ، وتابع هو سيره ناحية الشمال وارتكب رجاله - لاسيما المغاربة الذين كانوا لا يعرفون الرحمة - فظائع جمة فى الطريق وفى أرض العدو ، ففتكوا على مقربة من برغش (عاصمة قشتالة) بجميع رهبان دير بطرس قديس شرطانيس الذين بلغ عددهم حوالى المائتين (٥١) ، ودمروا العاصمة وعددا كبيرا من الحصون (٥٢) .

غير أن الـ١٠ لم تلبث أن تطورت فى الجهات الشمالية تطورا مخيفا

تتكون حلف قوى ضد الخليفة ، وكان أشد المحرضين عليه صاحب
مركسطة : محمد بن هاشم التجيبي .

أما بنو هاشم الذين نزلوا أرجونة منذ أيام الفتح فقد أدوا خدمات
جلية للمسلطان محمد وقت أن كان بنو قصي (٥٣) لا يزالون في أوج
مجدهم في هذا الاقليم ، كما ظلت أسرهم تتوارث مناصب الحكم والولاية
في المناطق الشمالية أكثر من أربعين سنة ، وكانت هي العائلة الوحيدة
التي أبقى لها عبد الرحمن الثالث مظاهر النفوذ والعظمة ، على حين قد
سلبها من جميع الزعماء العرب ، ومع ذلك لم يكن محمد بن هاشم على
وفاق مع الخليفة ، ولربما كان مرجع ذلك الرغبة الملحة في محو الاهانات
التي حاقت بجماعته ، أو لعله لم يكن يرى في عطف عبد الرحمن عليهم
ألا ضرورة فرضها عليه خوفا منهم ، أو لعل [محمدا نفسه] كان
يتمنى (٥٤) العرش لنفسه ولأولاده من بعده فتحالف مع ملك ليون وأبدى
استعداده للاعتراف بسيادته عليه ان هو شد أزره ضد الخليفة ، ووجدت
عروضه من راميرو أذنا صاغية .

وفي أثناء حملة ٩٣٤ م (= ٣٢٤ هـ) رفع محمد راية العصيان
يرفضه الانضمام الى الجيش الاسلامي (٥٥) ، ولم تمض غير ثلاث سنوات
حتى اعترف بتبعيته لراميرو ، فأبى بعض قواده متابعتة في خيانتة واختلفوا
عليه فأقبل راميرو برجاله الى الاقليم وحاصر قلعه واستولى عليها وكانت
لا تزال تابعة للمسلطان ، واستنزل القواد من معاقلمهم وأسلمهم الى محمد
ابن هاشم التجيبي ، فلما تم ذلك تحالف راميرو ومحمد مع اقليم نفارة
الذي كان يحكمه غرسية تحت وصاية أمه «طوطة» أرملة شانجة الكبير .
حينئذ أصبح الشمال كله يدا واحدة ضد الخليفة وبذلك أطل ثانية برأسه
الخطر الذي كان قد اختفى ، غير أن الخليفة واجهه بحزمه المألوف اذ قام
في سنة ٩٣٧ م على رأس جيشه وسار توا الى قلعة أيوب التي كان
يحكمها مطرف (بن منذر) أحد أقارب محمد (بن هاشم التجيبي)
وتتألف حاميتها من فريق من نصارى « ألبه » الذين بعث بهم راميرو ،
وقتل مطرف في الواقعة الأولى فخلفه في القيادة أخوه الحكم الذي طلب
الصلح والأمان الشامل لنفسه ولجندته المسلمين حين رأى نفسه مكرها
على الجلاء عن البلد والارتداد عنه الى القلعة التي أسلمها الى الخليفة .

أما الليونيون الذين لم يشملهم الأمان فقد قتلوا عن بكرة أبيهم بحد
السيف (٥٦) . وقد أدى هذا الفتح الى استيلاء عبد الرحمن على ما يقرب
من ثلاثين حصنا ثم وجه جيشه بعد ذلك ضد نفارة وسرقسطة التي وكل
حصارها الى قريب له هو الأمير أحمد بن اسحق قائد الفرسان وولاه
حكومة الأراضى الشمالية ، الا أن هذا القائد سرعان ما كان سببا في
أمور ألت النفس .

على الرغم من أن بنى اسحق هؤلاء عاشوا فى اشبيلية أمدا طويلا
عيشة خاملة كلها شظف وشدة ولم يتجنبوا مخالطة من هم دونهم مرتبة
الا أنه لم يكن لطامعهم حد تقف عنده ، اذ كان كبيرهم أحمد يتطلع الى
ولاية العهد ، بل انه لم يتورع عن اثارة حفيظة الخليفة بأن أنفذ اليه كتابا
يفصح له فيه عن قصده ، وفى الوقت ذاته لم يكن صادق العزم فى نيته
تجاه سرقسطة ، فاستشاط الخليفة غضبا من هذا السفه ، وكتب اليه
— وهو حائق عليه — يقول له :

« أما بعد فانا كنا نرى الاستعداد اليك استصلاحا لك ، فأبى الطبع
الغريزى الا ما استحکم منه فيك الا أن استحوذ عليك ٠٠٠ فالفقر
يصلحك ، والغناء يطغيك اذ لم تكن عرفت ولا تعودته ٠٠٠ أو ليس أبوك
كان فارسا من فرسان ابن حجاج أخسهم ما لا عنده وأنت يومئذ نخاس
الحمير باشبيلية ، فأقبلتم اليها فأويناكم ونصرناكم ، وشرفناك ومولناك
واستوزنا أباك ، وقلدناك أعنة الحيل أجمع وفوضنا اليك أمر ثغرنا الأعظم
فتهاولت بالتنفير لنا وقلة المبالاة بنا ثم مع هذا الترشع للخلافة ٠٠٠٠
غاي حسب أو نسب وفيكم قال القائل :

أنتم خشار الخنثار وليس خزر كخيش
ان كنتموا من قریش تزوجوا من قریش
أو كنتموا قبط مصر فذا التعالى لايش ؟

أليست أمك كان حمدون الساحرة (٥٧) ، وأبوك المجذوم ، وجدك
بواب حوثة بن عباس يفتل الحبال فى الطوانة ، ويخيطة الحلفاء على
باب داره ؟

فلعنك الله ولعن من أنشبتنا فى الاستخدام بك .
فيا مآبون ويا مجذوم ويا ابن الكلب والكلبة ٠٠٠ أقبل
صاغرا (٥٨) » .

فلما عزله مبعوضا قام أحمد بمساعدة أخيه أمية (بن اسحق)
يدبران مكيمة للخليفة الذى اكتشف تأمرهما ونفاهما ، فاستولى أمية
على شنترين ، وجاهر بالعصيان ، وكاتب ملك ليون عارضا عليه العمل
معه ، وموضعا له نواحي الضعف فى الدولة الاسلامية وهى النواحي التى
يمكن منها التغلب عليها ، وخرج (٥٩) ذات يوم عن المدينة فقام أحد
قواده وأعاد اليها سلطان الخليفة (٦٠) فهر أمية اذ ذاك الى راميرو وظل
أخوه (أحمد بن اسحق) مقيما على ما هو عليه من تدبير المكائد والمؤامرات
بعزيمة لا يقل غربها ، ورسم خطة يسلم بمقتضاها الأندلس الى الفاطميين
الذين اتصل ببلاطهم ، غير أن عبد الرحمن أحبط مسعاه وقبض عليه
وحاكمه ورماه بتهمة التشيع وقتله (٦١) .

ففي هذه الأثناء رافق التوفيق الخليفة في الشمال وحاصر سرقسطة وفيها محمد (بن هاشم) الذي استسلم له ، ولما كان محمد هذا أقوى رجل في الدولة وأبرز شخص بعد الخليفة فقد عفى عبد الرحمن عنه وأقره على ما بيده (٦٢) *

أما «طوطة» (٦٣) التي كانت تبني آمالا جساما فقد جاءت تطلب مساعدة الخليفة وتعتبره حامى نفارة (٦٤) ، ومن ثم أصبح عبد الرحمن السيد المطلق على جميع اسبانيا باستثناء مملكة ليون وجزء صغير من قطالونيا *

الفصل الثالث

الناصر يقرب الصقالبة والخصيان لضرب الأشراف -
استعدادده لغزاة القدره • خروج بعض القادة العرب عليه •
هزيمتا شلمنقة والخندق • النزاع بين ملوك النصرانية
الاسبانية • فرناند كوثالث • ثورة أبى يزيد البربرى ضد
الفاطميين • انتصاراته • تغير سلوكه وتحول الناس عنه •
نهايته • النزاع بين راميرو وفرناند • موت راميرو الثانى
والنزاع حول العرش • اشتداد قوة الفاطميين •

الفصل الثالث

ظهور فرناند كوثالث

كانت الأعوام السابعة والعشرون الأولى من عهد عبد الرحمن الناصر أعوام نجاح موصول ، غير أن الحظ تجهم له فما لبث الزمن أن تغير وحدث في المملكة انقلاب كبير ، ذلك أن القوة الملوكية قضت على ما كان للأشراف في الماضي من صولة كرهها عبد الرحمن الذي كان يرى أن الواجب يفرض على الحاكم أن يسلب ما في يد الأشراف من سلطة حتى لقد قال (١) ذات يوم لسفير بعثه إليه أوتو الأول « اننى أعتقد أن ملككم حاكم مفكر حاذق. غير انى أرى فى سياسته ما لا يرضينى اذ يترك بعض المسائل لاتباعه يعالجونها بأنفسهم بدلا من أن يأخذ هو مقاليد الأمور جميعها فى يده . ثم انه يترك لهم ولاياته ظنا منه أنه بذلك يستميلهم اليه وتلك هفوة جسيمة منه ، فليس للرعاية التى يبديها نحو الأشراف من عاقبة غير العمل على زيادة تسلطهم ودفعهم الى التمرد » .

ومع أن الناصر لم يقع قط فى الخطأ الذى عابه على ملك المانيا الا أنه ارتكب حماقة لا تقل عما أخذه عليه ، ذلك أنه على الرغم من أخذه الأمور كلها فى يده وعلى الرغم من أنه لم يصطنع غير « الحاجب » (٢)، الا أنه خلق كثيرا من المناصب الرفيعة على رجال أخساء وطلقاء وأغراب وأرقاء ، وقصارى القول انه جعلها فى أيدي رجال ليس لهم ما يزيكهم سوى قرب منزلتهم اليه ، لأنهم كانوا آلات طيعة لينة العريكة يحركها كيف شاء ، وكان الصقلية أكبر من خصهم بثقته فلم يظهر نفوذهم الا فى عهده دون سواء فلعبوا دورا بارزا فى تاريخ اسبانيا العربية ، ومن ثم ينبغى أن نلم بهم فى شئ من التفصيل .

كان لفظ « الصقلية » يطلق فى الأصل على الأسرى الذين تأسرهم الشعوب الجرمانية فى حروبها ضد الأمم الصقلية ثم يبيعونهم (٣) الى مسلمى اسبانيا ، ولكن ما لبث هذا الاسم أن انسحب على أناس من أجناس أخرى (٤) حتى شمل جميع الأجانب الذين كانوا يستخدمونهم فى الحريم أو الجيش أيا كان أصلهم .

وهناك شهادة أوردتها رحالة عربى فى القرن العاشر للميلاد مؤداها
أن بين الصقالبة الذين يستعملهم خليفة اسبانيا كثيرا من الغاليسيين
والفرنجة (أى من الألمان والفرنسيين) وبعضا من سكان السواحل الشمالية
للبحر الأسود (٥) ، وكان من بين هؤلاء رجال وقعوا فى أسر القراصنة
الأتدلسيين ومنهم من اشتروا فى موانئ ايطاليا اذ كان اليهود يستغلون
فرصة فقر الناس ويعمدون الى شراء أطفالهم - ذكورا كانوا أو اناثا -
ويجلبونهم الى الموانئ البحرية حيث تأتى سفن الاغريق أو الهنادقة فى
طلبهم وتعود بهم الى المسلمين .

كما كانت هناك طائفة أخرى تعرف بالخصيان يستعملون للخدمة
فى الحريم ويؤتى بهم من فرنسا التى كانت فيها أسواق الخصيان الضخمة
التي يصرف أمورها اليهود وأشهرها جميعا سوق « فردان » (٦) وغيره
فى الجنوب (٧) .

ولما كان أغلب هؤلاء صغار السن عند وصولهم الى اسبانيا فقد
كان من اليسير عليهم اعتناق ديانة سادتهم والامام بلغتهم والتشبه بهم
فى طباعهم ، وأصاب الكثيرون منهم حظا وافرا من التعليم المتقن حتى
لقد بلغ الأمر بهم ان كانت لهم مؤلفات وفيهم من نظم الشعر ، وهناك
كثير من الأدباء الصقالبة منهم صبيب الذى ألف كتابا برمته درس فيه
أشعار الصقالبة ورحلاتهم (٨) .

كان عدد الصقالبة ضخما فى بلاط أمراء قرطبة وجيوشهم ، غير
أنهم لم يبلغوا من الكثرة ما بلغوه فى عهد عبد الرحمن الناصر ، اذ يذكر
البعض أنهم بلغوا ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين (٩) رجلا ، ويذكر
آخرون أنهم كانوا ستة آلاف وسبعة وثمانين شخصا ، وترفعهم بعض
الروايات الى ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فردا ، وربما كانت هذه
الأرقام تشير الى عددهم فى فترات مختلفة من عهد عبد الرحمن ، لأنه من
الثابت أن هذا الأمير لم يكف أبدا عن الاستكثار من الصقالبة ، ومع أنهم
كانوا رقيقا الا أنهم كانوا يملكون الضياع الواسعة .

وقد عهد عبد الرحمن اليهم بالشئون الحربية وقلدهم المناصب الدينية
الهامة وذلك لكراهيته الشديدة للطبقة الارستقراطية حتى انه أرغم ذوى
الاحساب النبيلة - وهم من نسل أبطال صحراء العرب - على الخضوع
لهؤلاء القوم الجدد الذين كان العرب يحتقرونهم كل الاحتقار .

كان هؤلاء الأشراف العرب ناقلين على الخليفة حين أعلن عن رغبته
فى النهوض بحملة ضد ملك ليون تشؤوا سابقتها فى خطرها ، فرصد لها
مبالغ طائلة واستدعى تحت لوائه مائة ألف رجل ، ولما كان واثقا من

النصر القشيب فقد بادر الى تسمية هذه الحملة « بغزاة القديرة » (١٠) ، لكنه للأسف اختار لقيادتها صقلبيا يدعى « نجدة » فغضب إلقادة العرب من هذا الاختيار ، وأقسموا وهم في سورة حنقهم أن يكفر الخليفة عن امتهانه الارستقراطية القديمة بالهزيمة الساحقة .

فلما كانت سنة ٩٣٩ م [= شوال ٣٢٧ هـ] نهض الجيش قاصدا شلمنقة فخرج لمنازلته راميرو الثانى وحليفته الملكة طوطة الوصية على نفارة .

وفى الخامس من أغسطس اشتبك الجانبان فى القتال فترك بعض القادة العرب ساحة القتال وارتدوا على أعقابهم ، ولا شك أنهم لم يتبصروا العاقبة ، فقص أهل لون أثر المسلمين حتى اذا أصبحوا على مقربة من ناحية تعرف بالخنديق جنوب شلمنقة وعلى ضفاف نهر دويرة جمع المسلمون شملهم ثانية ونازلوا العدو غير أنهم باؤوا كلهم بالهزيمة ، ونجا الخليفة بعد أن أوشك أن يكون نهبا لسيوف النصارى ، وآلت الحال — بعد وقعة الخندق — من ارتداد الى هزيمة فادحة واضطرب النظام ، وعمت الفوضى ، واختلطت الصفوف بعضها ببعض ، وصاح القوم يريدون انقاذ ما يمكن انقاذه ، واختلط الحابل بالنابل والفرسان بالمشاة ، وامتلات الطرق بجيف القتلى من العسكر والقادة ، وحاك السمار بكتائبها بأكملها .

كان لانتصار راميرو الهائل وفوزه الزاهى دوى عظيم فى جميع الجهات حتى بلغ ألمانيا وأقصى بلاد الشرق ، وان اختلفت المشاعر ازاءه فى كل ناحية عنها فى الأخرى ، فاهتزت نفوس طربا وامتلات أخرى غما وحزنا ، ورأى البعض فيما حدث نصرا لقوم ، وعده آخرون نكبة فادحة (١١) .

أما الخليفة فقد تسرب الوهن الى نفسه بعد أن لاقى « نجدة » مصرعه (١٢) .

أما عامله على سرقسطة محمد بن هاشم الذى أسر (١٣) فى المعركة الأولى فى وقعة شلمنقة (١٤) فقد ظل يبكى حظه العاثر فى سجن ليون ، وأدت الهزيمة الى القضاء على جيش الخليفة الذى كاد هو نفسه أن يكون بين القتلى أو الأسرى لولا أنه أنقذ بمعجزة ، وكان الذين نجوا معه تسعة وأربعين رجلا فقط ، فكان لكل هذا تأثيره على نفسه فلم يرافق جيشه بعد ذلك أبدا فى أية حرب خرجها الجيش .

كان من حسن حظ الخليفة أن شبت الفتنة بين النصارى فحالت بين راميرو وبين جنى ثمار انتصاره ، اذ تطلعت قشتالة لاقتسام مملكة ليون التى كانت قد شبت فيها ثورة أيام أردونيو الثانى والد راميرو ، وتظاهر الملك برغبته فى حسم النزاع فأعلن عزمه على عقد مؤتمر فى طليارة (١٥) على شاطئ كريون الذى يفصل ليون عن قشتالة .

ودعى الملك الأمراء القشتاليين الأربعة للحضور اليه فلبوا الدعوة ، غير أنه ألقى القبض عليهم وضرب أعناقهم ، فاستنكر أهل ليون - على بكرة أبيهم - هذا المسلك الشاذ البعيد عن العدل ، لكنهم لم يملكوا الا أن يؤيدوا ملكهم (١٦) .

وأما القشتاليون فلم يوافقوهم فيما ذهبوا اليه ، ولكن لما لم يكن لديهم قادة يسلمون اليهم زمامهم فقد راحوا يتطلعون الى اللحظة التى يرون فيها على رأسهم رجلا قادرا على الثأر لهم من الليونيين الخونة .

ثم حانت أخيرا الساعة التى كانوا يترقبونها بفارغ الصبر حين وجدت قشتالة أملها فى الكونت فرناند كوثالث الذى صار فيما بعد أحد الأبطال المحبوبين عند شعراء العصور الوسطى والذى لازال اسمه يتردد حتى اليوم على السنة القشتاليين بالاكبار العظيم .

بينما كانت جيوش عبد الرحمن الثالث المروعة تدمر كل ما فى طريقها من الأديرة والقلاع غير مستثنية العاصمة نفسها ، كان من المستحيل على فرناندو العظيم Egregius Comes - كما كانوا يسمونه حينذاك (١٧) -

- أن يفكر فى تخليص وطنه [من نير (١٨) الليونيين] ، لكنه رأى فى الوقت ذاته أن ليس هناك ما يخشاه من جانب العرب ، ومن ثم أعلن الحرب على الملك (١٩) واستغل الخليفة هذه الفرصة لاعادة تنظيم جيشه الذى ما وافى شهر نوفمبر ٩٤٠ م (= صفر ٣٢٩ هـ) حتى كان على أتم أهبة للاغارة على الأراضى الليونية بحملة جعل قيادتها الى أحمد ابن يعلى (٢٠) حاكم بطليوس (٢١) .

والظاهر أن القدر أراد فى الوقت ذاته أن يعرض عليه فى افريقية ما خسره فى اسبانيا .

الواقع أنه حتى هذه اللحظة كان الخليفة يخرج من نصر الى نصر فى افريقية ، غير أن الأقدار أخذت تعاكسه فتوالت هزائم أنصاره ، وفشلت الخطط التى رسمها ليسيروا بمقتضاها ، ومرت لحظات عجز فيها عن أن يمنع القتال من النشوب فيما بينهم ، الا أنه نجح على أية حال فى إبقاء

الفاطمين بأفريقية والحيلولة دون رسوهم على الشاطئ الأندلسي ، وكان ذلك منتهى غايته وهدفه ، واذ ذاك استطاع أن يتفرغ لجنى ثمار ما أتاحه له هذا الظرف .

غير أنه حدث أن قام بالثورة ضد الفاطمين عدو يبرز في خطره . كل عدو آخر لهم ، ونعني به أبا يزيد من قبيلة بنى يفرن البربرية ، وهو ابن تاجر اعتنق منذ نعومة أظفاره عقيدة الخوارج الذين كان لا يزال لهم بأفريقية أتباع كثيرون وأشباع عديدون ، ثم أنه أملق بعد موت أبيه فراح يتكسب من وراء تعليم صبيان القرى وأصبح داعية كما هو الحال . إزاء مؤسس الامبراطورية الفاطمية ، وأخذ يثير البربر باسم الدين والحق والحرية ، ومناهم بتكوين حكومة جمهورية حالما يتخذون القيروان عاصمة لهم ، واتسم توفيقه بما يشبه المعجزة كما حدث لأعدائه من قبل . بسنوات فتلاشت جيوش الفاطمين تلاشى الثلج في الربيع أمام هذا الرجل القوي القبيح الطلعة ، المتخذ من الصوف الخشن له لباسا ، والممتطي حمارا أشمط ، وكان السنيون قد نعموا على الفاطمين كفرهم ولم تعد لهم قدرة على مطاردتهم فتقاطرت زمرهم أفواجا تحت لوائه ، كما حمل الفقهاء والزهاد السلاح لنصرة هذا القائد الخارجي ، وكانما أخذ على عاتقه تحقيق أملهم فما وافت سنة ٩٤٤ م (= ٣٣٣ هـ) حتى دخل العاصمة وترحم على الخليفتين الأولين (٢٢) اللذين أمر الفاطميون بلعنهما ، وطلب إلى أهل البلد أن يأخذوا أنفسهم بمنهج الإمام مالك الذي أبطله الفاطميون ، فقرت نفوس أهل السنة واستطاعوا أن يغدوا ويروحوا آمنين ، وسارت مواكبهم تخفق فوقها الأعلام وتدق أمامها الطبول . بعد أن حرموا من ذلك أعواما طويلة ، وأخذ أبو زيد يقودهم بنفسه في هذه الاحتفالات العامة ، ثم قدم لهم برهانا جديدا على تسامحه فتحالف مع خليفة الأندلس وأوفد إليه وفدا ، ان لم يكن قد اعترف بسلطانه الزمني فلا أقل من أنه عده صاحب السلطة الروحية على الأقطار المسيحية التي استولى عليها (٥٣) .

ويظهر أن الفاطمين أصبحوا على وشك الدمار ، ففي خلال الوقت الذي كان فيه أبو يزيد بالمهدية يضيق الخناق على سلطانهم القائم (٢٤) استطاع حاكم اسبانيا - بفضل أتباعه ومواليه الأفريقيين - أن يستحوذ على الشمال الغربي بأجمعه تقريبا ، وأثار الناس في كل مكان ضده عدوه ، ثم حالف ملك إيطاليا Hugues de Provence الذي كان يود أخذ النار لجنوة التي نهبها (٢٥) أحد قواد الاسطول الفاطمي ، كما عقد

مخالفة أخرى مع امبراطور القسطنطينية الذي كان يتلهف لاستخلاص صقلية من يد القائم (٢٦) .

لكن سرعان ما تبدلت الأمور ذلك أن أبا يزيد أتملته نشوة انتصاراته فثنى عطفه تيتها ولم يقتنع بما بلغه من قوة وما حازه من سلطان ، ونسى الطرق التي نهجها حتى بلغ ذلك فتطلع للمظهر والأبهة الكساذبتين ، واستبدل بعباءته الصوفية الخشنة ثوبا من الحرير ، وبجماره الأشمط جوادا مطهما ، فكان دماره في غفلته هذه اذ تخلى عنه أغلب أتباعه وهم دعاة المساواة والجمهورية فجرحهم هذا الرجل في إيمانهم ، وغادره بعضهم الى بلادهم وانضم آخرون الى عدوه ، فأيقظ ذلك أبا يزيد من غفلته ، فنبذ ظهريا مظاهر البلهنية والترف وعاد الى عباءته الخشنة وإلى حياته الأولى البسيطة الجافة ، لكن الصيف كانت قد ضيعت اللبن فقد تلاشى ما كان له من نفوذ ، ولعله كان لا يزال معتمدا على معونة أهل السنة لو لم يفتح أعينهم - في لحظة من تعصبه الوحشي - على حقيقة هذا التسامح المزعوم . ذلك أنه في عشية إحدى المعارك أمر رجاله بترك جند القيروان - وهم باخوانهم في السلاح - يلاقون وحدهم نقمة الفاطميين ، فاستجابوا لأمره ، وقتل الكثيرون من أهل السنة الذين اشتد خوفهم منه منذ ذلك الحين ، وأخذوا يوازنون بين طاغية وطاغية ، وبين هرطيق وهرطيق فأثروا الركون الى الخليفة الفاطمي .

وكان المنصور الذي خلف أباه ، أقدر أسلافه على تصريفه الأمور ، فرفع أبو زيد الحصار عن المهديّة رغم أنفه ورجع الى القيروان التي تأمر أهلها عليه فلم ينج من كيدهم الا بكل مشقة ، وظل يحارب جند الفاطميين ردحا طويلا سقط بعده أسيرا في أيديهم مشحنا بجراحه فوضعوه في قفص من حديد ، ولما مات سنة ٩٤٧ م (= ٣٣٦) حشوا جلده تبنا وطافوا به شوارع القيروان ، ثم علقوه على أسوار المهديّة ، وظل على هذه الحال حتى تناثرت أوصاله اربا اربا (٢٧) .

كان فشل الخوارج صدمة عنيفة لعبد الرحمن الثالث لا تقل في ألمها عما لاقاه في من هزيمة في شلمنقة والخندق ، وسرعان ما استعاد الفاطميون في الغرب أراضيهم التي فقدوها وأرغموا رجال عبد الرحمن على اللجوء الى طرطية .

أما في الشمال فكانت الحال على غير ما هي عليه هنا ، فقد جرت الأمور وفق مشيئة عبد الرحمن أو بعبارة أخرى كان هذا الاقليم فريسة للفتنة الطخياء ، فنشبت الحرب - كما رأينا - بين راميرو الثاني وبين فرناند كوثالث وخرج الاول منها ظافرا اذ باغت خصمه وألقى به في

أحد سجون ليون (٢٨) ، ثم جعل حكم قشتالة - بادىء ذي بدء - فى يد ليونى اسمه أسور فرماندز Assur Fernandez كونت موزن (٢٩) ، ألقى بها من بعده الى ابنه شيانجة (٣٠) (سانشو) ، وصنادر أملاك فرناندو ان لم يكن اعتبرها ملكا له ، ثم أراد التقرب الى الشعب فوهب بعضها لذوى النفوذ القوى فى الاقليم من الفرسان ورجال الدين (٣١) ، لكنه لم يبلغ هدفه اذ استفاد القشتاليون من تساهل الملك راميرو وظلوا باقين - قلبا وروحا - على ولائهم لمولاهم الأسير ، ولم يروا فيما منحهم راميرو الا اختلاسا ، فكانوا فى صكوك البيع والمهاداة وما شاكلها من الأمور التى يذكرون فيها بعد التاريخ اسم الملك والكونت يذكرون - فى بعض الأحيان - الكونت الذى فرضه عليهم الملك (راميرو) ، لكنهم كانوا لا يعمدون الى ذلك الا حينما لا يجدون مهربا ، والا حين يكون للسلطة تدخل فى الأمر . وكانوا فى العادة يذكرون اسم فرناند كوثالث .

كذلك أوضحوا بطريقة أخرى ما يكونه له من الحب حيث أقاموا له تمثالا وأدوا شعائر الاحترام لهذه الكتلة الصخرية (٣٢) ، ولما عيل صبرهم من طول أسر فرناند كوثالث أجمعوا العزم على الانتقام له ، ولندع ذلك للقصة الجميلة (٣٣) المعروفة باسم Turamento LLevan التى تقول :

« لقد أقسم الجميع فى صوت واحد على ألا يرجعوا الى قشتالة من غير سيدهم الكونت فنصبوا تمثاله الحجرى فى مركبته ، وآلوا على أنفسهم الا يعودوا يدونه . لقد أقسموا رافعين الأيدي على ألا يترك الصفوف أحد ما منهم دون أن يصحبهم (٣٤) الكونت . . . ولتأدية فروض الطاعة له ركزوا علمه الى جانب تمثاله وقبل الجميع - صغيرهم وكبيرهم - يد النصب وغادروا برغش وأرباضها المجاورة ، ولم يتخلف بها غير النساء والأطفال . »

خاف راميرو من تقدم القشتاليين فأذعن بعد لآى وأطلق سراح فرناند بعد أن أخذ عليه الموائيق الغلاظ والشروط المهينة ، فأقسم فرناند كارها على الولاء والخضوع له والتخلى عن أملاكه ، وتعهد أن يزوج ابنته أوراك Uraque من أردونيو أكبر أبناء الملك (٣٥) ، وبذلك استرد فرناند كوثالث حريته ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يمتنع بتاتا عن مد يد المعونة الى ملك أكرهه على امضاء معاهدة كهذه المعاهدة .

أما القشتاليون الذين فشلوا فى استرجاع السلطة الى من لازالوا يسودونه عليهم فما زالوا ناعمين على راميرو الذى فقد بذلك مساعدة أبسل رجاله ومعونة قومه الصناديد مما أضاع بأسه ، فشن المسلمون

الغارة عليه في سنة ٩٤٤ م (٣٣٣ هـ) وقاموا باثنتين غيرها (٣٦) خلال عام ٩٤٧ م (٣٢٦ هـ) ، ولم يستطع أن يمنعهم من إعادة بناء وتحصين مدينة سام التي أضحت منذ ذلك الحين حصن الامبراطورية العربية ضد قشتالة (٣٧) .

أصبح (راميرو) صاحب انتصار شلمنقة والخندق (٣٨) في موقف الدفاع بعد أن كان في موقف الهجوم ، ولم يبق بأية غارة جديدة على الأراضي الإسلامية بعد ذلك إلا سنة ٩٥٠ م (= ٣٩ هـ) فلزمه النصر فيها على مقربة من طلبيرة ، لكنه كان آخر انتصار أحرزه إذ ما وافى شهر يناير من العام التالي [= ٩٥١ م / شعبان ٣٣٩ هـ] حتى قبضه (٣٩) الموت .

مات راميرو فنشبت الحرب اثر وفاته من أجل العرش ، ذلك أنه كان قد تزوج مرتين فأنجب من زوجته الغاليسية الأولى ابنا سماه أردونيو ، ومن الثانية وهي أوراك (أخت غرسية ملك نفارة) ولدا آخر سماه شانجة ، وكان أردونيو هو الابن البكر فطالب بطبيعة الحال بالعرش ، غير أن شانجة نافسه اعتمادا على معارضة النفارين (٤٠) له ، وجهد أن يجلب اليه كلا من فرناند كونثال والقشتاليين ، وبذلك لم يكن من الصعب على فرناند أن يختار الانضمام الى أحد الجانبين .

حقيقة أن أردونيو كان زوج ابنته ، لكن كيف يساعده وهو ممقوت اليه مبغوض عنده ؟ ثم انه الى جانب ذلك لا يشعر في نفسه بأدنى ميل اليه ؟ ولذلك فانه أيد شانجة لما بينهما من وشيجة القربى (٤١) وبدافع من مصلحته الشخصية ، وكانت الى جانبه طوطة ملكة نفارة وهي حمة فرناند الذي كان لو تردد لتغلبت هدايا شانجة العظيمة على تردده ، فوعده الأمير بارجاع كل أملاكه المصادرة اليه وكذلك اماره قشتالة ، ومن ثم انضم فرناند الى جانبه ودعى رجاله الى حمل السلاح واستصحب شانجة وجيشا نفاريا وتكاتفوا جميعا على مدينة ليون لاستخلاص التاج من أردونيو الثالث (٤٢) ، ويقول أحد المؤرخين العرب (٤٣) انه جرى بين أردونيو ابن أردونيو وبين غرسية اختلاف من الله به على المسلمين ، والواقع أنه بينما كان النصاري يقتل بعضهم بعضا أمام أسوار ليون كان قواد عبد الرحمن يخرجون من نصر الى نصر في كل خطوة يخطونها عند الحدود ، ولم يكن رسول يفد من الشمال الا ويحمل الى القوم في قرطبة نبأ غزوة موفقة ، أو خبر انتصار جديد حازه المسلمون ، حتى لقد استطاع الخليفة أن يرى الشعب أكواما من النواقيس والصلبان والرؤوس المقطوعة التي عدوها ذات مرة في سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) فكانت

خمسة آلاف رأس معظمها لرجال من قشتالة سقطوا في ميدان الوغى
الذى خاضوا غماره وحملوا لواءه (٤٤) .

وإذا كان فرناند كوثالث قد انتصر على مقربة من شنت اشتيبن
حتى جرمان (٤٥) فان اردونيو الثالث رد آخاه وثار من لشبونة بتدميرها ،
وارغم أهل جليقية على الطاعة له بعد أن كانوا من الثائرين (٤٦) عليه ،
غير أن هذا لم يكن غير تعويض تافه للخسارة التى أنزلها المسلمون
بالنصارى .

أما اردونيو الذى كان يخشى قيام ثورات أخرى فقد كان يتلهف
على السلام ، وقد أوفد من أجله سفيرا الى قرطبة عام ٩٥٥ م [٣٤٤ هـ] .
ولما كان عبد الرحمن راغبا هو أيضا فى السلم كى يوجه جيوشه شطر
ناحية أخرى فقد لبى رغبات اردونيو ، وبعث فى العالم التالى (٣٤٥ هـ)
الى ليون جماعة من رجاله فيهم محمد بن حسين والعالم اليهودى حسداى
بن شبروط (٤٧) ، وكان حسداى هذا هو المشرف على الخراج .

لكن هذا التحالف لم يعمر طويلا .

ولما كان اردونيو قد أبدى استعدادا للمفاوضة عارضا التنازل أو
هدم بعض حصون معينة فقد توصل الفريقان الى خطوط معاهدة بينهما
قفل بها الرسل الى قرطبة ليصدق عليها الخليفة .

وعلى الرغم من أن المعاهدة المقترحة كانت مشرفة لعبد الرحمن وفى
صالحه إلا أنه لم ير فيها كل ما كان يرجوه ، ولما كان قد نيف على
السبعين ولم يعد له أمل فى الغد فقد رأى أن المسألة تتعلق بابنه الحكم
أكثر مما تتعلق به هو ذاته ، فاستشاره وسأله الراى . فأفضى اليه
ابنه - وكان هادى الطبع محبا للسلم - بوجوب امضائها (٤٨) ، ولم
ينقض غير قليل من الوقت حتى أقر اتفاقا آخر مع فرناند كوثالث (٤٩) .

بذلك لم يبق من خصوم اسبانيا الاسلامية سوى النصارى .

* * *

إذا كان عبد الرحمن قد أبدى فى هذه المرة كثيرا من اللين عن ذى
قبل فمرجع ذلك هو رغبته فى الانصراف الى محاربة الفاطميين الذين
أخذ بأسهم فى التزايد يوما بعد يوم ، ولما كانوا يتحرقون للثار من حكام
أوربا الذين كان لهم ضلع فى محاولة ابادتهم فقد بدأوا فى الانتقام منهم
فى شخص امبراطور القسطنطينية وذلك بتخريب قلهورية (٥٠) .

ثم جاءت سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) تحمل كل مظاهرها أن تفكير
الخليفة الفاطمى الرابع كان منصبا على مهاجمة الأندلس .

وحدث إذ ذاك أن بعث الناصر بمركب شديد الضخامة محملة بالبضائع إلى الاسكندرية فالتقت في البحر بسفينة قادمة من صقلية وعلى ظهرها رسول موفد من قبل حاكم هذه الجزيرة إلى المعز (لدين الله الفاطمي) ، والظاهر أن هذا الأمر لم يكن مجهولا عند ربان السفينة الأندلسية ، وربما ارتاب عبد الرحمن في أن تكون في الرسائل التي يحملها المبعوث خطة مهاجمة إسبانيا ، ومن ثم أنفذ أمره إلى الربان بمعارضتها . ومهما يكن الأمر فقد هاجم ربان السفينة المركب الصقلية وسلمها واستولى على ما فيها من الرسائل .

لكن سرعان ما انتقم المعز إذ أمر حاكم صقلية أن يبحر بالأسطول إلى المرية ويستولي أو يحرق كل ما يجده من السفن بهذا الثغر ، فاستولى على نفس المركب التي كانت سببا في تلك الحملة والتي كانت راجعة من الاسكندرية وعلى ظهرها جماعة من المغنيات والبضائع النفيسة إلى الخليفة ، فلما أنجز البحارة الصقليون ما عهد به اليهم من تخريب المرية عادوا إلى مراكبهم (٥١) .

ولقد عزم عبد الرحمن على الرد على هذه الحملة فأمر بلعن الفاطميين كل يوم في الصلوات العامة (٥٢) كما بعث بقائده غالب أمير البحر (٥٣) إلى سواحل افريقية كي يخربها ، إلا أن تلك الحملة لم تصادف من النجاح ما كان يؤمله الخليفة الناصر - ذلك أنه على الرغم مما أصابه الأندلسيون من الغنائم في بادئ الأمر إلا أنهم ارتدوا على أعقابهم أمام القوات التي كانت تحرس تلك الناحية والتي أكرهتهم على ركوب البحر ثانية .

كان عبد الرحمن قد وصل إلى هذا الحد في محاربة الفاطميين في الوقت الذي دارت المفاوضات فيه بينه وبين ملك ليون ، وطبيعى أنه كان يتلطف على مسألة مسيحيي الشمال حتى يوجه كل قوى دولته وثرواتها لمحاربة افريقية ، فكان ذلك مدعاة لعدم تشدده في فرض شروطه الخاصة .

وما كاد عبد الرحمن يحقق المواعدة حتى ركز كل اهتمامه ضد افريقية ، فأعد حملة كثيفة لم تدع للعمال في المصانع دقيقة وحيدة من الراحة ، وكانت الكتائب تفد من جميع البقاع شطر الموانئ وسجلت أسماء الملاحين . غير أن مشاريع الخليفة لم تلبث أن توقفت مرة واحدة . حينما مات أردونيو الثالث في ربيع (٥٤) سنة ٩٥٧ م [٣٤٦ هـ] .

* * *

لقد رأينا آنفا أن أردونيو لم يحصل على السلام المنشود إلا بعد أن قدم عروضاً معينة ليس من شك في أن أهمها هو أن يسلم إلى عبد الرحمن

حصونا معينة أو يهدم بعضها ، غير أن شائجة - منافس أخيه القديم - الذي
ولى العرش بعده دون أى عقبة رفض تنفيذ هذا الشرط ، لذلك وجه
عبد الرحمن ضد ليون كل ما كان قد جهزه لغزو افريقية ، وأغرى قائده
الصننديد أحمد بن يعلى حاكم طليطلة (٥٥) فقام بهذه الحملة ، وما وافى
شهر يوليو حتى ظهر ظهورا مؤزرا على ملك ليون (٥٦) ، فكان هذا النصر
من غير شك عزاء للخليفة الذى لم يكن راغبا قط فى هذه الحرب الجديدة
والذى لم يكن يتأخر عن تفاديها لو أنه وجد سبيلا الى ذلك ليس فيه
ما يندش شرفه ، وسرعان ما شعر بالراحة تغمره حين وجد عدوه فى
موطنه قديمه .

الفصل الرابع

شانجة بن راميرو • خلعه عن العرش • اختيار اردونيو
الرابع مكانه • استنجد شانجة بجدة طوطة التي قامت ببعث
سفارة الى الناصر لمعاونة حفيدها • سفارة حسداى بن شبروط
اليهودى • طوطة وحفيدها فى بلاط الناصر • شانجة يسترد
عرشه ويعترف بفضل الناصر عليه • موت الناصر سنة ٣٥٠هـ •
تقدير أعماله • ضبطه لأمور المملكة • تأسيسه الأزهار •

الفصل الرابع

شانجة وموت الناصر

يقول أحد المؤرخين العرب (١) أن شانجة كان محارباً أجوف فارغاً ، وليس من شك في أنه استعار هذه العبارة من مؤرخ ليونى (٢) معاصر ، ويقصد الكاتبان الإشارة الى أن شانجة جعل هدفه تحطيم نفوذ الأشراف واسترجاع ما كان لأسلافه من السلطان المطلق عليهم مما جعلهم يحسون بالامتنان له والكراهية دون أن تتوفر له القدرة التي كان عليها أسلافه .

والواقع أن شانجة أضاع كل الكفاءات التي هيأت له في بادئ الأمر تقدير رعيته العظيم ، فأصبح هذا الأمير المنكود مكنتظ البدن عاجزاً عن امتطاء جواده ، وكان إذا سار فلا بد له من مرافق يعتمد عليه ، مما لم يلبث معه أن أصبح مثار السخرية ، وأخذ الناس يتهايمسون فيما بينهم بوجوب عزل هذا الملك المضحك العاجز (٣) .

أما فرناند كوثالث الذى كان يطمح أن يكون صانع الملوك والذى حاول ذلك من قبل ذات مرة ولم يفلح فقد ألهم حفيظة الليونيين ضد الملك (شانجة) وأثارهم عليه (٤) ، مما أدى برجال الجيش لتدبير مؤامرة ضده أفلحت إذ خاعته فى يوم صافى الأديم من ربيع (٥) سنة ٩٥٨ م [ربيع الثانى ٣٤٧ هـ] وأخرجته من مملكته .

وبينما كان هذا الملك المخاوع ميمماً - والحزن يملأ نفسه - شطر بنبلونة حيث يقيم نخاله (٦) غرسية كان فرناند كوثالث مجتمعاً برهط من الأشراف لانتخاب ملك جديد غير شانجة ، فوقع اختيارهم على ابن عمه (٧) أردونيو الرابع بن أذفونش (الرابع) الذى لم يكن هناك ما يزيه عندهم سوى مولده ، فقد كان قميثاً أحلب (٨) مدهاناً ممتنناً (٩) ، قد بلغ من لؤم الطبع حداً تعارف معه القوم على تسميته بأردون الخبيث (١٠) ، وزوجه أمير قشمتالة يابننه « أوراك » أرملة (١١)

أردونيو الثالث التي أصبحت اذ ذاك - وللمرة الثانية - ملكة (١٢) على ليون .

فى اللحظة التى اجتمع فيها القوم لانتخاب خليفة لشانجة كان هذا الأخير فى بنبلونة يقص نبا الخطب الذى ألم به على جدته العجوزة الطامحة « طوطة » التى كانت تدير دفة الأمور فى نفارة باسم ولدها على الرغم من بلوغه سن الرشد منذ زمن بعيد ، وقد آلت طوطة على نفسها أن تقف الى جانب حفيدها وأقسمت لتعيده الى العرش مهما كلفها ذلك من ثمن ، ولم يكن هذا الأمر مبسرا حينذاك اذ لم يكن لشانجة فى مملكته القديمة من صديق ذى نفوذ يستطيع الركون اليه والاعتماد عليه ، ناهيك بما كانت عليه نفارة من الضعف الذى يستحيل عليها معه أن تهاجم بمفردها لبون وقشتالة معا ، فكان لزاما على طوطة حينئذ أن تنشدها حليفا قويا ، أضف الى ذلك أنه كان ينبغى على شانجة - وهو يريد استرداد عرشه المسلوب - أن يستأصل ما جعله هزاة بين الناس ومدعاة لسخريتهم به ، وهو أن يعالج كرش بطنه الذى لم يكن طبيعيا عنده ، بل نشأ من علة جثمانية كان لابد لها من أن تزول لو توفر لها الطبيب الحاذق والنطاسى الباهر ، غير أن هذا الحكيم المرتجى كان فى قرطبة التى كانت رقتئذ مجتمع العبقریات ، ولم يكن من العسير عليه أن يجد فيها بغينه ، لذلك رأت طوطة أن تبحث فى قرطبة عن الحليف المنشود فعزمت على أن تسأل الخليفة أن يرسل لها أحد الأطباء لعلاج حفيدها ، وأن يمدّها بجيش لارجاعه الى عرشه ، ولا مشاحة فى أن هذا العمل كان جرحا لكبرياتها ، كما كان من أنكى الأمور على نفسها أن تجد نفسها مكرهة على التماس المعونة من « كافر » ظلت تناصبه العداء والحروب أكثر من ثلاثين سنة ، كما انه هو نفسه لم يكن يدع عاما يمر دون أن يغير على مملكتها فيخرب سهولها ويحرق قراها ، غير أن حبها لحفيدها ورغبتها الملحة فى أن تراه على العرش ثانية وغضبها لما عومل به من مذلة ٠٠٠ كل ذلك كان أقوى من حقدّها الطبيعى على الخليفة ، فأوفدت سفارة (١٣) من لدنها الى قرطبة .

ولما أفضى السفراء الى الخليفة بما جاءوا اليه فيه أجابهم بأنه سعيد اذ يرسل الى شانجة مطببا ماهرا وانه على استعداد لمعاونته بالرجال حتى يسترد عرشه المسلوب ، ولكن على شروط خاصة سيعملها أحد وزرائه الى بنبلونة .

وعاد المبعوثون النفاريون ، وأرسل عبد الرحمن فى طلب اليهودى حسداى وزوده بتعاليمه ثم أذن له فى الشخوص الى بلاط نفارة ، وكان الخليفة موفقا كل التوفيق فى اختياره حسداى لما كان يجمعه فى شخصه

من كل الصفات التي تؤهله لمثل هذه المهمة ، فقد كان يجيد الحديث بلسان النصراني اجادة تامة ، كما كان في الوقت ذاته طبيبا عظيما وسياسيا محنكا ، وكان الجميع يثنون على آرائه ومواهبه وفطنته ومقدرته البالغة ، كما أنه حدث قبل قليل أن وفد رسول من ألمانيا فذكر أنه لم ير قط رجلا باخ من الحنكة والدهاء ما بلغه حسداى (١٤) بن شبروط ، الذى ما كاد يبلغ بنبلونة حتى اكتسب ثقة شانجة لما أخذه على نفسه من ابرائه من علقته ووعدته بالصحة العاجلة ، ثم أخبره أن الخليفة يطلب منه ثمن وقوفه الى جانبه وهو أن يتخلى له عن عشر قلاع ، فوعده شانجة باجابة طلبه حالما يتبوا العرش .

لم يكن هذا كل ما طلبه حسداى بل سأل طوطة الحضور الى قرطبة فى صحبة ابنها غرسية وحفيدها شانجة ، وأصر الخليفة على هذا الطلب ارضاء لكبريائه ، ورغبة منه فى أن يرى شعبه مشهدا لم يسبق له أن أبصر مثيله أبدا حين تركع عند قدميه ملكة نصرانية وملكان مسيحيان متوسلين اليه أن يعينهم بجيوشه .

ويحق للمرء أن يتوقع الرفض من ناحية طوطة المتكبرة ، اذ الواقع أن رحلتها الى قرطبة كانت أكثر اذلالا من أن تكون مصافاة مع عدوها القديم ، لذلك كان هذا الجانب من مهمة حسداى أكثر جوانب سفارته دقة وحساسية وكان أمر تأدية هذه المهمة - لاسيما اقناعها بالسفر الى قرطبة - يتطلب حنكة كبيرة ومهارة فائقة ، غير أن حسداى أثبت ما عرف عنه من أنه من أمهر رجالات عصره اذ استطاع التغلب على ملكة نفارة المتكبرة بسحر حديثه ونضج تفكيره وسعة دهائه ، وقوة مكره كما يقول أحد شعراء هذا العصر من اليهود ، فاقتنعت طوطة أن ليس من ثمن غير هذا لارجاع حفيدها الى ملكه ، وجاهدت نفسها جهادا عنيفا حتى رضيت بالرحلة التي أرادها عليها اليهودى حسداى .

حينذاك أبصرت اسبانيا الاسلامية مشهدا غريبا حيث سارت ملكة نفارة فى وناء ميممة شطر قرطبة ، ووراءها جمع غفير من الأشراف والقسس ، وفى صحبتها غرسية وشانجة التمس الذى لم يكن قد استرد عافيته تماما ، والذى كان يسير متكئا على حسداى .

واذا كان هذا المشهد قد أرضى كبرياء المسلمين الوطنى فقد كان أكثر ارضاء لكبرياء اليهود الذين رأوا أن تمام الأمر انما كان على يد رجل من بنى جلدتهم فتبارى شعراؤهم فى تمجيد عودته ، وقال أحدهم :

طأطنى الهام أيها الجبال فهذا سيخ يهوذا حيالك .

ولتمتلى جميع الأفواه بالضحك والفرحة .

ولتغن الأرض الجدداء ولتبتسم الصحراء ولتزدهر الورود . . . فقد

جاء شيخ الجميع . . .

لقد جاء وفى ركابه الطرب والغناء

لقد كانت المدينة العظيمة هنا - وقت غياب حسداى عنها - تعاو . .

مبانيها الرائعة الكآبة ويلفها كلها الظلام .

أما ففراؤها الذين لم تعد عبونهم تكتحل برآه الوضاء كالنجوم . . .

فقد علتهم غبرة . .

واستبد بنا المنجبرون وأخذوا فى بيعنا وشرائنا كما لو كنا عبيدا .

وتلمظوا لآزدراد ثرواتنا ، وزأروا زئير الليوث

فاكتنفنا الفزع وتملكنا الرعب لأن المدافع عنا لم يكن موجودا .

لقد وهبنا الله إياه زعيما ، وقربه من الملك مكانا عليا .

فسماه بالأمير ورفع منزلته على كثيرين غيره .

فهو ان ستار لم يجزؤ أحد على فتح فمه

وقد أمن ضراوة خنازير الغابات والمدن بفضل لسانه وحده .

لا اعتمادا على الحراب والسيوف (١٥) .

ولما بلغت الملكة والملكان وأتباعهم قرطبة تلقاهم الخليفة فى قصره بمدينة الزهراء (١٦) لقاء رائعا كان له وقعه على الغرباء ، وكان ذلك مناسبا كل المناسبة لاعطائهم فكرة بالغة عن سلطانه وثرائه ، ولا شك أنها كانت لحظة سرور بالغ لعبد الرحمن حين أبصر عند قدميه ابن عدوه اللدود راميرو الثانى (١٧) الذى انتصر فى وقعتى شلمنقة والخندق ، كما سره أن يرى الملكة الشموس المتكبرة التى قادت بنفسها الجيوش الغالبة فى هاتين الوقعتين الحالتين ، ولكن مهما كان شعوره الداخلى فقد كتمه واصطنع البشاشة فى لقاء ضيوفه فجدد له شائجة ما كان قد قطعه على نفسه لحسداى من تسليمه القلاع العشر التى أرادها الخليفة ، كما تم الاتفاق على أن يهاجم الجيش الاسلامى مدينة ليون فى الوقت الذى يهاجم فيه النفاريون قشتالة استدراجا لقوات فرناند كوندالت للخروج من هذه الناحية (١٨) .

فى هذه الأثناء لم يكن عبد الرحمن قد حول بصره عن افريقية ، بل كان مجدا كل الجد فى تجهيز قواته واعدادها ، وفى نفس السنة التى وصلت فيها ملكة نفارة الى قرطبة أبحر (١٩) أحمد بن يعلى بجيش كثيف قوامه سبعون سفينة .

ولازم النوفيق هذه الحملة فأحرقت مرسى الخزر المعروف اليوم باسم La Calle وخربت أرباض سوسة وطبرقة (٢٠) .

كذلك لم ينصرم غير وقت قليل حتى زحف الجيش الاسلامى على مملكة ليون وفى صحبته شانجة الذى تخلص من بدانته المفرطة بفضل عناية حسداى له ، وأصبح - كما كان فى سالف أيامه - سريع الحركة نشيطا (٢١) .

كانت سمورة أول بلد سقط فى يد المهاجمين (٢٢) . وما جاء شهر ابريل ٩٥٩ م (= صفر ٣٤٨ هـ) حتى كان كثير من جهات المملكة قد دانت بالطاعة لشانجة (٢٣) ، ومع ذلك فقد ظلت العاصمة فى يد أردونيو الرابع ، لكنه ما لبث أن ولى عنها مدبرا طلبا للنجاة عند الاشتوريين (٢٤) . ومن ثم خلصت فى النصف الثانى من سنة (٢٥) ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) لشانجة الذى ما كاد أن يستردها ويسترد مملكته حتى أنفذ وفدا الى الخليفة شاكرا له يده عليه ومعاونته اياه، وكتب فى الوقت ذاته الى جميع جيرانه يعلن اليهم نبأ استرداده عرشه ، وأخذ - فى كتبه هذه - يسلق بالسنة حداد كونت قشتالة (٢٦) لغدره به ، وغير بعيد أنه كان لا يزال يخشى جانبه ، بيد أنه اذا كان هذا صحيحا الا أنه سرعان ما تلاشت مخاوفه فقد شن النفازيون الغارة على قشتالة وفق ما تم الاتفاق عليه من قبل ، وفى هذه السنة ذاتها - أعنى سنة ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) - أوقعوا الهزيمة بالسكونت ، وأسعدتهم ظروفهم فأخذوه أسيرا ، ومنذ ذلك الوقت حاق الفشل بأردونيو (أرذون المراجع العربية) وأصبح ممقوتا محتقرا فى عيون الجميع اذ لم يستطع التمكن من العرش حتى ذلك الوقت الا بفضل نفوذ فرناند الذى أوجده وصنعة (٢٧) . ومن ثم طرده الاشتوريون من اقليمهم ودانوا بالطاعة لشانجة فلاذ أرذون ببرغش (٢٨) ، وسنلتقى به فيما بعد .

★ ★ ★

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى الشمال اذا بالخليفة يخاطر بنفسه من غير تبصر وسط رياح مارس الهوجاء ، فطرقتة علة خيف عليه منها ، الا أن أطباءه نجحوا هذه المرة فى انقاذه ، فلما كان شهر يوليو (ربيع الآخر) نقه من مرضه واستقبل كبار رجاله ، لكن عافيته لم تكن الا أمرا ظاهريا فما لبث المرض أن عاوده فلفظ نفسه الأخير فى السادس عشر من أكتوبر (٢٩) سنة ٩٦١ م [الثالث من رمضان ٣٥٠ هـ] ، وقد أوفى على السبعين من عمره بعد أن حكم تسعة وأربعين عاما .

ليس ثمة اعتراض فى أن عبد الرحمن الثالث كان أعظم خلفاء بنى أمية الذين حكموا الأندلس ، وكانت أعماله آية الاعجاز فى انجازها ، فقد جاء فى وقت كانت الأندلس فيه نهبا للفوضى والحروب الأهلية ، كما أنها كانت قد نفرقت أحبا وتقاسمها رهط من الأمراء من مختلف

الجنسيات ، كما كانت عرضة لغزوات مسيحيي الشمال المستمرة
بلا انقطاع ، وكان البلد على وشك أن يذهب لقمة سائغة لليونيين أو
[لفاطمي (٣٠)] إفريقية .

ولقد تخطى عبد الرحمن كثيرا من العقبات الكأداء التي اعترضت
طريقه ، فأخذ بلاد الأندلس من أوصابها الداخلية ومن السيطرة الأجنبية
على السواء ، وجعلها أقوى مما كانت عليه في الماضي ، وبوأها مكانة لم
تشغلها قط من قبل ، فانتظمت أمورها بفضل سياسته ، وعمها الرخاء ،
كما بلغت الدولة من الهيبة والاحترام في الخارج مبلغا عظيما وزادت
ماليتها بعد أن كانت مشرفة على الإفلاس وقت توليه الحكم ، حتى أوقف
على الجند ثلث جباية الامبراطورية الذي كان يبلغ في العام الواحد
(٦٢٤٥٠٠٠) ستة ملايين ومائتين وخمسة وأربعين ألف دينار (وادخر
الثلث الثاني لوقت الحاجة وخصص الباقي للعمارة (٣١) ، حتى اذا
كان عام ٩٥١ م (= ٣٤٠ هـ) باغ مجموع ما في خزائنه عشرين مليون
دينار .

ويؤكد أحد الرحالة المسلمين - وكان خبيرا بالشئون المالية - أن
عبد الرحمن الثالث والحمداني - حاكم الجزيرة اذ ذاك - كانا أغنى أمراء
هذا العصر (٣٢) .

ولقد عم الرخاء الأندلس وأصبح الناس في سعة ، وازدهرت
الصناعة والزراعة والتجارة والفنون والمعارف ، وكان نظر الغريب لا يقع
في البلاد الا على حقول مخضرة ، تروى وفق نظام دقيق قائم على أسس
علمية ثابتة أحال الأراضي الى جنات مثمرة دائية القطوف ، كما استرعى
انتباه (ابن حوقل) هذا النظام (٣٣) الكامل الذي كان سائدا في
الأقاليم البعيدة والذي كان الفضل فيه راجعا الى سياسة عبد الرحمن
اليقظة ، كما أدهشه رخص أسعار الغلال والفواكه اللذيذة ، وأعجبه
ما كان ينعم به الناس من فاخر النياب ومن الثراء الذي كان يسمح لكل
فرد بركوب البغال بدلا من الترجل (٣٤) .

وشهدت قرطبة والمرية وغيرهما من البلدان كثيرا من الصناعات ،
وتقدمت التجارة فكانت رسوم الصادر والوارد تؤلف الجزء الأعظم من دخل
الدولة كما جاء ذلك في تقرير رئيس الجمارك (٣٥) .

ولم يكن يداني قرطبة في كبر سكانها الذين بلغوا نصف مليون
نسمة، ومساحتها التي بلغت ثلاثة آلاف مسجد، وقصورها الفخمة التي أربت
على ثلاثة عشر ألف بيت ، وحماماتها الثلاثمائة وأرباضها النماينة
والعشرين (٣٦) ٠٠٠٠ أقول لم يكن يضاهي قرطبة في ذلك كله وفي
سعتها وبهاثها غير بغداد التي يميل أهلها لمقارنتها بها (٣٧) . وشرق

صيت قرطبة وغرب حتى بلغ أقصى ربوع ألمانيا فسمها القاضي السكسوني رزقينا « زينة الدنيا » (٣٨) وهو الكاهن الذي ذاع اسمه في النصف الثاني من القرن العاشر بما نظمه من القصائد وألفه من المسرحيات اللاتينية، ولم تكن المدينة المنافسة لها [وهي الزهراء] التي بناها عبد الرحمن بأقل منها بهاء ، فلقد سأله إحدى محظياته يوما أن يوصي لها بمبلغ جسيم كان قد نحاه جانبا لافتداء من وقع من المسلمين أسرى في يد العدو فأنبأه عماله أنهم لم يجدوا أسيرا واحدا في مملكة نفارة أو ليون بعد أن جاسوا خلالهما تفتيشا عن الأسرى ، فلما سمعت جاريته الزهراء ذلك قالت له : « انتهيت لو بنيت لى مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة بى » . فوقعت هذه الفكرة عند الخليفة موقع الرضا ، وكان يهوى إقامة العمائر شأنه فى ذلك شأن جميع الأمراء العظام .

فلما كان يوم ١٩ نوفمبر (٣٩) سنة ٩٣٦ م [أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ] وضع فى الشمال من قرطبة أساس مدينة سميت بالزهراء ، ولم يأل جهدا فى جعلها آية فى الفخامة وجعل فى بنائها عشرة آلاف عامل واستعمل ألفا وخمسمائة دابة . واستغرق انشاؤها ربع قرن من الزمان .

ومع ذلك فقد مات منشؤها قبل أن يتم الفراغ منها ، وكان الخليفة قد وعد كل مقيم بها أربعمئة درهم ، فتقاطر الناس لسكنائها .

وأما قصر الخليفة الذى اجتمعت فيه عجائب الشرق والغرب معا (٤٠) فقد كان بالغ الضخامة ، كما كان يوجد فى حريمه ست آلاف امرأة (٤١) .

لقد كانت قوة عبد الرحمن مكيئة فمكنه عمارته البحرية الفخمة من منافسة الفاطميين فى سيادة البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت له الاستحواذ على سببة مفتاح بلاد المغرب - كما كان عنده جيش كثيف كامل السلاح لعله أحسن جيوش عصره (٤٢) ، وهو الجيش الذى أتاح له الغلبة على نصارى الشمال ، فخطب وده الملوك الشامخون بأنوفهم تيبها ، وجاءته رسل امبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وإيطاليا وفرنسا تنشد صداقته .

وطبيعى أن تؤدى هذه الحال الى خير النتائج ، غير أن الذى يبعث الباحث على الاعجاب والدهشة حين يدرس هذه الفترة العظيمة هو الفاعل نفسه أكثر من العمل ، وكذلك ألمعية هذا الذكاء اللوذعى الذى كانت لا تفوته شاردة الا وعاءها ، ولا واردة الا حفظها ، والذى أبدى اهتماما عظيما بكل ما يعرض مهما دقت تفاصيله .

وليس من شك في أن هذا الرجل الطلعة الحكيم الذي تبلورت فيه وحدة الأمة والقوة ، والذي استطاع أن يوجد نوعا من توازن القوى بفضل مخالفاته ، والذي بلغ من تسامحه أنه كان يستشير الرجال أيا كان دينهم أقول ليس من شك في أن هذا الرجل كان يعد من حكام-العصور-الحديثة المنالين أكثر من أن يكون ملكا من ملوك العصر الوسيط .

الفصل الخامس

أوليات خلافة الحكم بن عبد الرحمن • وصول أردونيو
الخبيث الى مدينة سالم وترحيب الخليفة به • أردونيو في
الزهاء • الحكم يعد بالتأييد والنصر وهو يعد بالوفاء • شانجة
يخاف المواجهة بين الحكم وبين أردونيو فيبث في طاب تجديد
الاتفاق الذي كان بينه وبين عبد الرحمن الناصر • ثم
يتراجع لموت أردونيو • الحكم يؤدب الكونتات
فيعودون للمواجهة • شانجة يهاجم جليقية ثم موته مسموما •
ابنه راميرو الثالث يخلفه تحت وصاية عهته الراهبة • اهتمام
الحكم بالكتب والمكتبات • طلبه كتاب الأغاني • المدارس
بالمجان • جامعة قرطبة وعلماء المشرق بها •

الفصل الخامس

خلافة الحكم بن عبد الرحمن

مات عبد الرحمن الثالث فلم يحزن لموته أحد في بلاط ليون ولا بنبلونة على الرغم من الخدمات الجليلة التي أداها لهما ، بل الذي حدث فعلا هو أن كلا منهما رأى في موته الفرصة المتاحة لنقض الاتفاقيات التي كانت بينه وبين المسلمين للتخلص من السيادة الإسلامية التي رأى فيها كلاهما غلا ثقيلا له بعد أن لم يعد له صالح ما في بقائها منذ زمن بعيد ، وخيل الى رجال هذين البلاطين أن هذه خير فرصة ينبغي عليهم انتهازها للخلاص من كل ما التزموا به للمسلمين لاسيما وأن الحكم الثاني خليفة الناصر كان رجلا أميل الى السلم والموادة ، وكان الظن به عندهم أنه لن يصر على تنفيذ معاهدة عقدتها أبوه . وعلى أية حال فقد كان من الحكمة التريث حتى تشب حرب تكشف عن مقدار نجاحه بالنسبة لسلفه .

وسرعان ما تهيأت الظروف لأن يستلقت الحكم انتباه جيرانه ، ذلك أنه لما طوّل شأنجة بالوفاء بتسليم القلاع المتفق عليها أخذ يماطل ويسوف ويتحايل لتأجيل الوفاء بهذا الوعد (١) ، كما رفض غرسية سؤاله بتسليمه أسيره فرناند كوثالث (٢) ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك فرد عليه حريته بعد أن وعده أن يكون معه في مصاولة صهره أردونيو الرابع ، وبر له بوعده فأمر بأن ينتزع أردونيو في فظاظة من بين زوجته وابنتيه فكان له ما أراد وانتزعوه من بينهم ، ثم سار به حرس قوي الى الاقليم الإسلامي (٣) ، وحينئذ قام فرناند - ولم يكن مقيدا قط بمعاهدة كملكي نفارة وليون - وجاهر المسلمين بالعداء (٤) مما دفع الحكم في فبراير ٩٦٢ م (= ٣٥١ هـ) للكتابة الى قواده وعماله بالتأهب للحرب (٥) .

في هذه الأثناء وصل أردونيو الخبيث الى مدينة سالم يصنجه العشرون نبيلاً الذين ظلوا وحدهم مقيمين على الولاء له ، فشاهدوا في هذه المدينة ما أعده المسلمون للحرب ، فنضرت هذه الحال الأمل في نفس

أردونيو ، ولما كان ابن عمه قد استرد العرش على يد عبد الرحمن فقد فكر فى أن يكون رجوعه هو الآخر الى عرشه على يدى ولده الحكم ، فأبدى لغالب والى مدينة سبتة رغبته فى الشخصوص الى قرطبة ليسأل الخليفة حياتة اياه ، فشاور غالب الخليفة الحكيم ماذا يكون رده عليه . واجابته ايساه .

أما الخليفة الذى لم يسخطه أن يكون تحت يده مدع والذى لم يبت فى الموضوع نهائيا فقد أجاب بأن فى استطاعة غالب أن يسوق أردونيو وحاشيته الى قرطبة ، وخرجت للقائهم كوكبة من الفرسان بعث بها الحكم لمصاحبتهم ، كما لقيتهم كوكبة أخرى أكثر من سابقتها عدا عند أرباض العاصمة ، ولم يدخر أردونيو وسعا فى اكتساب العطف الجميل من عنكر الخليفة الذين أخذ يتملقهم ، فما كاد يدخل قرطبة حتى سأل القوم أن يأخذوه الى قبر الناصر فلما أوقفوه عند القبر تقدم نحوه فى خشوع والتفت إليه ونجثى على ركبتيه واستمطر الرحمة على روح السلطان الذى خلعه عن العرش قبل موته بقليل ، لكن كان الأمل فى استرداد الصولجان قد ملك عليه نفسه فأنساه كل شئ فلم يعد يحجم عن قبول أية اهانة تلحقه مادامت تبلغه هدفه وتحقق له بغيته .

وقضى أردونيو يومين فى قصر (٦) فخم أعد لنزوله ، ثم جاء الإذن بالتوجه الى مدينة الزهراء لمقابلة الخليفة فتدثر برداء وعباءة من الحرير الأبيض ، وكان ذلك بطبيعة الحال دليلا جديدا على ولائه للأمويين فقد كان البياض شعارهم ، ووضع على رأسه قبعة رصعت بالأحجار الثمينة وأقبل عليه أمراء الأندلس النصارى كالوليد بن خيزان قاضى نصارى قرطبة وعبيد الله بن القاسم مطران طليطلة ليمضوا به الى الزهراء ويوقفوه على آداب اللقاء ومراسيمه التى كان بلاط قرطبة يوليها غاية اهتمامه .

وسار أردونيو ورفاقه الليونيون بين صفوف الجند الذين اصطفوا على جانبي الطريق الى مدينة الزهراء ، فظهرت الدهشة على الأمير النصرانى ورجاله ، وعلتهم الرهبة من هذه المظاهر الحربية فغضوا من أبصارهم ورسموا الصليب على صدورهم ، حتى اذا بلغوا أول باب من أبواب القصر ترجلوا جميعا سوى أروذن ورجاله الليونيين ، فلما بلغوا الباب المسمى بباب « السدرة » ترجل الآخرون ، ولم يبق على الخيل سوى أردونيو والقائد ابن طملى فقد ظلا على جواديهما حتى صارا على مقربة من ايوان صفت فيه الأرائك ليتخذ منها هو ورجاله مجلسهم . ولقد شاهد هذا الإيوان من قبل شائجة ينتظر الإذن له بالمتول بين يد الخليفة حينما جاءه ملتسما مساعدته .

ومضت فترة من الوقت أذن بعدها لليونيين بدخول قاعة الاستقبال .

فأما بلغ أردونيو بابها نزع قبعته من فوق رأسه وخلع عباءته وبرنسه دليلا على الاحترام ، ثم تقدم حين أمر بالتقدم حتى صار قبالة العرش الذي كان الخليفة جالسا عليه وجولسه اخوته وأقاربيه ووزراؤه وقاضيه وفقهساؤه ، وجثى عدة مرات ، وكان كلما تقدم خطوة خر ساجدا حتى واجه الخليفة فمد هذا اليه يده فقبلها أردونيو ثم تراجع الى الوراء بظهره وجلس على أريكة من الحرير المشجر على بعد خمسة عشر قدما من العرش ، ثم أقبل السادة الليونيون وفعلوا فعل مولاهم مع الخليفة وقبلوا يده ثم عادوا الى مكانهم مصطفىين وراء سيدهم الذي كان يقف على كتب منه الوليد بن خيزران (٧) الذي قام بالترجمة بين الطرفين .

وأطرق الخليفة لحظات حتى أفرخ روع الملك السابق مما شاهده من لقاء رائع لم يكن يدور قط بخلده ثم قال الخليفة له « ليسرك اقبالك ، ويغبطك تأميلك فلدينا من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته ، فلما ترجمت هذه الكلمات العذاب لأردونيو تهلل وجهه بالبشر وهب واقفا وتقدم فقبل البساط الذي يغطي سلالم العرش وقال : « أنا عبد أمير المؤمنين مولاي المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله ، فحيثما وضعني من فضله وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » ، فقال الخليفة : « أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينا لك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ما يغبطك وتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا » .

فلما فرغ الخليفة من كلامه هذا عاد أردونيو فخر ساجدا وابتهل دأعيا له ثم أفصح عن مرماه بقوله : « ان شانجة ابن عمي تقدم الى الخليفة السابق مستجيلا به منى فكان من اعزازه اياه ما يكون من منله من أعظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر قد شناته رعيته وانكرت سيرته واختارتني مكانه من غير سعي منى - عام الله ذلك - ولا دعاء عليه ، فخاعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطول عليه - رحمه الله - بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه وأعز نصره ، ومع ذلك لم يقم بفرض النعمة التي أسديت اليه ، وقصر في أداء المفروض عليه في حقه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده . وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطاني وموضع أحكامي ، محكما له في نفسي ورجالي ومعالي ومن تمويه من ريعتي ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة » .

فقال الخليفة : « قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية شأنه ويترادف من احساننا اليك به أضعاف

ما كان من أبيينا رضى الله عنه الى نذك ، وان كان فضل التقدم بالجنوح
الينا والقصد الى سلطاننا فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا ينقصك مما
أنلناه ، وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ونسند أواخى ملكك ونعقد لك بذلك
كتابا يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، وسيترادف عليك
من أفضالنا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل .

فكرر أردونيو الخضوع وأسهب فى الشكر ثم انتصب واقفا وغادر
الغرفة مستديرا ، فلما دخل الحجرة المجاورة أفضى لمن كان يتبعه من
الخصيان عما بهره وأذهله من جلال المشهد الذى أبصرته عيناه حتى لقد
خر ساجدا أمام مقعد اعتاد الخليفة الجلوس عاياه ، ثم أخذوه بعد ذلك
الى جعفر الحاجب فأظهر أردونيو له الاحترام وهم بتقبيل يده لولا أن
جذبها الحاجب وعانقه ثم أجلسه الى جواره ، وأكد له أن الخليفة لا بد
وأن يبر له بكل ما قطعه على نفسه من عهد له ، ثم ناوله الخاق التى خلجها
إلى الخليفة عليه وعلى من معه ، كل قدر استقامته ومرتبته ، وخرج الجميع
مع ملكهم بعد توديعهم الحاجب قاصدين البهو فوجد أردونيو فرسا
قطوانا فى سرجه ولجامه أخرجوه من أجله من اسطبل الخليفة فامتطاه ،
وعاد والأمل يملأ جوانحه مع رجاله الليونيين والقائد ابن طملس ومضوا
الى القصر النازلين به (٨) .

ولم ينقض زمن طويل حتى أسلموه معاهدة ليمهرها قاطعا فيها على
نفسه العهد أن يعيش فى سلم دائم مع الخليفة ، وأن يسلمه ابنه غرسية
رهينة لتأكيد العهد ، وألا يحالف أبدا فرناند كوثالث ، فامضى أردونيو
ذلك كله واذ ذاك وضع الحاكم تحت تصرفه فريقا من الجيش بقيادة
غالب (٩) ، ولم يكتف بهذا بل جعل له بعض المستشارين كالوليد قاضى
نصارى قرطبة ، وأصبغ (١٠) بن عبد الله بن نبيل كاثوليكيها (١١)
وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة (١٢) بعد أن أمر الدين وكل اليهم
العناية بغرسية أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لارجاع الليونيين الى طاعة
أردونيو (١٣) .

كان لهذه الاستعدادات دوى عظيم فى كل مكان ، ولم يكن القوم
مخطئين حين طمعوا أن يذب الخوف فى نفس شانجة الذى أدرك حرج مركزه
وصعوبة موقفه ، اذ كانت جليقية تنكر علبه مكانته ولا تعترف به (١٤) ،
لذلك لم يكن من العسير على أردونيو الاعتماد على معونة هذا الاقليم له
ان هو دخله بالجيش الاسلامى . أما أقاليم المملكة الأخرى التى خضعت
مكرهة لشانجة فقد توقع الجميع أنها سوف تؤثر خلعها للمرة الثانية
بدلا من أن تغامر بنفسها فى حملة من أجله .

كذلك استعد شانجة من جانبه فأرسل (١٥) في شهر مايو الى الخليفة بقرطبة بعض الأشراف والمطارنة مجددين له البيعة التي قطعها على نفسه في تنفيذ كل ما تقضى به المعاهدة (١٦) ، لهذا لم يفكر الحكم - وقد نال كل ما ابتغى - في الوفاء بالعهود التي قطعها لأردونيو ، وذهب أدراج الرياح كل ما أبداه أردون الأمعة التعس من التذلل المعيب ، والظاهر أنه لم يستطع تحمل ضياع آماله بهذا فلم يعد اسمه يجرى على ألسنة الأندلسيين اذ يقال انه ما لبث أن مات (١٧) بقرطبة ، وكل ما هناك يحمل على الاعتقاد أنه مات قبل نهاية سنة ٩٦٢ م . وبموته تلاشت مخاوف شانجة الذي ما لبث أن أعلن استقلاله ونكث (١٨) بعهوده اعتمادا منه على مساعدة (خصمه فرناند) كونت قشتالة وملك نفارة والكوتيين القطلونيين بورييل وميرون له . وحينذاك اضطر الحكم الى شن الحرب على النصاري فرحفت جيوشه أولا على قشتالة مستولية على حصن شنت اشتين دي جرمان سنة ٩٦٣ م (= ٣٥٢٠ هـ) فأرغمت بذلك كونت فرناند على طلب الصلح (١٩) الذي نكثه قبل أن ينعقد ، فجاربه غالب وكانت المعركة بينهما في أنتيسية وكان النصر لغالب ، كما أن يحيى بن محمد التجيبي - حاكم سرقسطة - هزم الملك غرسية الذي فقد مدينة قلهرة الهامة التي أحاطها الحاكم باستحكامات جديدة (٢٠) ، كما أعاد في نفس الوقت ترميم ما تهدم من حصن شنت اشتين في قشتالة وشجبه بالرجال والمقاتلة .

وقصارى القول أنه على الرغم من كراهية الحكم للحرب التي قامت رغم أنه لا أبلى فيها البلاء الحسن حتى اضطر أعداءه للسعى في الصلح ، فكان أولهم شانجة ملك ليون سنة (٢١) ٩٦٦ م (= ٣٥٧ هـ) واقتفى أثره بورييل وميرون اللذين حاقت بهما المصائب الجمة فتكفلا بهدم أسوار قلاعهما القريبة من التخوم الاسلامية (٢٢) ، وبعث غرسية ملك نفارة - بعض الأمراء والقسس الى قرطبة ، كما أن شريفا جليقيا هو الكونت رزريق فولسك أنهض أمه رسولا من قبله الى الخليفة في طلب الصلح فلقبها الحاكم بالترحاب العظيم ووصلها بخلة (٢٣) ثمينة .

كان السلام الذي عقده الخليفة مع جل جيرانه طويل المدى اذ كان الحكم نفسه يميل للسلم بكل جوانحه ، كما أصبح النصاري في حال من الفوضى الشاملة فلم يعودوا للتفكير في امتشاق السيف من جديد ضد المسلمين .

بينما كانت المفاوضات جارية بين الخليفة وبين شانجة قام الأخير بمهاجمة جليقية التي كانت دائمة الثورة عليه ، في اخضاع كل النواحي

الواقعة الى الشمال من نهر دورو ، ثم حدث أن الكونت جونزالف - الذى
جميع جيشا ضدهم بالجنوب من هذا النهر - طلب مقابله وتحت المقاتلة
غير أن جونزالف الخائن دس للملك فاكهة مسمومة مائة كاد ياكلها حتى
غشي عليه وعلى الرغم من تأثير السم على قلبه الا أنه لم يمت الساعة ،
وأخذ شانجة يفضي الى جماعته - آنا بالاشارة وأنا بالكلمات المتقطعة -
برغبته فى أن يذهبوا به الى ليون ، لكنه مات فى اليوم الثالث وهو فى
الطريق (٢٤) ؟

* * *

مات شانجة فخلفه على العرش ولده راميرو الثالث الذى كان فى
الخامسة من عمره فقامت بالوصاية عليه عمته « ألفيرة » الراهبة بدير
سان سافادور دى ليون ، غير أن وجوه المملكة عز عليهم أن يخضعوا
لامرأة وطفل لم يشب بعد عن الطوق فبادروا الى اعلان استقلالهم (٢٥)
وبذلك أصبحت المملكة نهب جماعة من الأمراء الصغار ناهيك بما آلت
اليه من الضعف الشديد ، ومضت ثلاث سنوات (٢٦) على جليقية يخرب
أرباضها بجيش قوامه ثمانية آلاف دائيمركى كانوا بادى ذى بدء فى خدمة
ريتشارد الأول دوق نرمانديا الذى بعث بهم بعد ذلك الى اسبانيا حين
أصبح فى غير حاجة اليهم ، ومن ثم لم تعد ألفيرة الوصية تحام بشن
غارة على المسلمين (٢٧) .

استمرت الغارات تتوالى على قشتالة فترة من الزمن (٢٨) ، غير أن
موت فرناند كونثالث عام ٩٧٠ م (= ٣٦١ هـ) أتاح للخليفة هدوء
البال من هذه الناحية ، ومن ثم استطاع التفرغ لرعاية الآداب والعناية
بتقدم بلده ورخائه .

والحق أن اسبانيا لم تشهد من حكامها حاكما مثله ، وعلى الرغم من
أن جميع أسلافه كانوا أهل ثقافة مبالغىة مكتباتهم بالكتب الا أنه
لم يكن فيهم من عنى عنايته الكبيرة باقتناء الكتب القيمة والنادرة ، فكان
له وكلاء فى القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية يتصيدون له الكتب
القديمة والحديثة على السواء وينسخونها أو يشترونها له دون التفات
الى ارتفاع ثمنها ، فازدحم بها قصره ، وكان به جناح لا تقع العين فيه
الا على النساخ والمجلدين والمنمقين . كما أن فهرست مكتبته وحده كان
يقع فى أربع وأربعين كراسة ، ويقول البعض انه كان فى كل كراسة
عشرون ورقة ، ويقول آخرون بل خمسون اقتصر فيها على عناوين الكتب
ولم تشمل وصفها - ويذكر بعض الكتاب أن مجلداتها بلغت أربعمائة
ألف مجلد قيل انه قرأها وعلق على الكثير منها ، وكان يكتب فى أول
الكتاب أو نهايته اسم مؤلفه ولقبه وينسبه الى عائلته وقبيلته مع الاشارة
الى عام مولده وسنة وفاته وذكر أخباره ، وكانت هذه ملاحظات قيمة ولم

يكن هناك من أحد يجارى الحكم فى المامه بالتاريخ الأدبى حتى . لقد كان
جيلة علماء الأندلس يعدون تعليقاته مرجعاً ، وطالما أليم بالكتب الموضوعه
فى فارس والشام قبل أن تطالع فى الشرق . ولم يكبد يستمع بتخبر عالم من
علماء العراق (وهو أبو الفرج الأصفهاني) وأبته وضع كتاباً جمع فيه بين
دفتيه أخبار الشعراء والمغنين العرب حتى أرسل إليه ألف دينار سيلاً إياه
أن يبعث إليه بنسخة منه حين الفراغ من وضعه ، فيأدر أبو الفرج - وقد
استخفه السرور - بتلبية طلبه قبل اذاعة مجموعته الفائقة المسماة
بالأغاني التى ما زالت حتى اليوم محل اكبار الأدباء .

وكانت النسخة التى بعثها الى خليفة الأندلس متقنة وقد أرفقها
بقصيدة فى مدحه وبحث عن نسب الأمويين - فوصله الحكم بصلة
أخرى (٢٩) .

ومجمل القول انه لم يكن هناك حد لعطف الحكم على العامة من أهل
الأندلس والأجانب على السواء ، فازدحم بهم بلاطه ، وامتد عطفه فشمل
الجميع وأفاء عليهم ظل رعايته لم يستثن من ذلك أحدا حتى الفلاسفة
الذين حينما لاذوا الى كنفه انما لاذوا بكهف منيع استطاعوا فى ظله أن
يتابعوا دراساتهم دون أن يخشوا نقمة الأتقياء أو غضبهم عليهم أو
قتلهم ايأهم (٣٠) .

وطبيعى أن تزدهر جميع فنون العلم فى عهد أمير مثقف كهذا الأمير ،
فكثرت المدارس وآتت أكلها ، وكاد جميع أهل الأندلس أن يكونوا ملمين
بالقراءة والكتابة فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا النصرانية - بجميع
رجالها ذوى المكانة الرفيعة عدا القسس - فى حالة من الجهالة طخياء .
وقامت المدارس (٣١) بتدريس النحو والبيان .

ومع ذلك فان الحكم كان يرى أن التعليم غير منتشر كما ينبغى أن
يكون ، وقد دفعته الرغبة فى تثقيف الطبقات الفقيرة لأن ينشئ فى عاصمته
سبعاً وعشرين مدرسة ينال فيها أبناء العامة حظاً من العلم من غير أجر
يدفعونه ، متكفلاً هو بدفع رواتب المدرسين من جيبه الخاص (٣٢) .

وطبقت الخافقين يومذاك شهرة (٣٣) جامعة قرطبة ، فجلس للحديث
بها أبو بكر (٣٤) بن معاوية القرشى ، كما أملى بها أبو علي القالى - وهو
من أهل بغداد - مجموعة كبيرة طريفة فى الغريب من أخبار العرب القدماء
وأمثالهم وأشعارهم ، وقد طبعت هذه المجموعة فيما بعد تحت اسم
« الأمالى » (٣٥) .

وقام بتدريس النحو ابن القوطية الذى كان أبو علي يعده أكبر
علماء الأندلس فى هذا الفن (٣٦) .

W-

الفصل السادس

- أوليات المنصور بن أبي عامر • أحلامه العظيمة •
- أصله • التحاقه بالقصر وتعرفه بصبح البشكنسية • تقدمه
- عندها وعند حريم القصر • تدفق الأموال بين يديه •
- حب الناس له • خروجه لمحاربة ابن طملى القائد الأندلسي
- والحسن بن كنون الأدريسى • حملة غالب أمير البحر ضد
- ابن كنون • إخضاعه الأدراسة •
- ابن طملى القائد الأندلسي والحسن بن كنون
- الأدريسى •
- حملة غالب أمير البحر ضد ابن كنون • إخضاعه
- الأدراسة •
- المنصور قاضى قضاة المغرب • مراقبته الجيش هناك •
- محاصرة ابن كنون فى صخرة النسر واستسلامه • ظهور
- الوزير المصحفى • وموقفه من ابن كنون • انشغال الحكم
- باستخلاف ولده عبد الرحمن ثم هشام • أخذه البيعة لهشام •
- وفاة الحكم •

الفصل السادس

المنصور بن أبى عامر

فى مستهل ولاية الحكم الثانى جلس خمسة من الطلاب يناولون
غداءهم فى حديقة بضاحية من ضواحي قرطبة ، واستبدت النشوة بهم
فمضوا يتفكهون بالحديث ، غير واحد منهم لزم الصمت واستغرقه
التفكير ، وكان شابا غرائقا طويل القامة ترتسم على وجهه امارات النبل
ومخايل العظمة وسمات الكبرياء وتدل جميعها على أنه خلق للزعامة (١) ،
ثم استفاق أخيرا من تفكيره وصاح فيهم على غرة منهم : « ماذا ترون ان
صارت مقاليد أمور هذا البلد فى يدى يوما ما ؟ » ، فضحك أصحابه لهذا
الخاطر ، غير أن النسب تابع كلامه قائلا فى هدوء : « ليختر كل منكم خطة
أولىه اياها اذا أفضى إلى الأمر » .

فقال أحدهم : « تولينى حسبة السوق فانى أحب هذا
الأسفنج » (٢) .

وقال آخر : « تولينى كورة (رية وهى) مالقة وطنى وأعمالها ،
فانى يعجبينى هذا التين الذى يجىء منها » .

وقال الثالث : « انى أوثر قرطبة ، وأقضى ما أتمناه أن أصير
واليا عليها » .

لكن رابعهم لاذ بالصمت اذ أسخطه تفكير اخوانه العجيب ، فقال له :
« وأنت أما طلبت ما تتمنى ؟ » فهب واقفا وأمسك بلحيته وقال :
« اذا أفضى اليك الأمر فمر أن يطاف بى قرطبة كلها على حمار ووجهى
لذنيه وأنا مطلى بالعسل ليجتمع على الذباب والنحل » .

فتفرسه السائل مليا وحده بنظرات يتطأير منها الغضب ولكنه
كظم غيظه ثم قال : « ليكن ما أرادته كل منكم » وسينانى الزمن الذى
تتذكرون فيه هذا اليوم وستجيب طلبة كل منكم » (٣) .

ولما فرغوا من طعامهم ذهب كل لطيته ، أما الفتى المستسلم
لأحلامه وآماله الضخمة فقد عاد الى بيت أحد أقاربه لأمه حيث
كان يستضيفه ، فأخذه صاحب الدار الى حجرة بالطابق الأعلى وحاول
أن يجاذبه الحديث ، غير أن الشاب كان غارقا فى لجة أفكاره فكان رده
كلمات متقطعة ، فلما رأى الآخر فشله فى حمله على الكلام حياء
وانصرف ، فلما جاء الصباح لم يحضر الفتى للافطار فظنوه لا يزال نائما ،
فمضى المضيف الى حجرته ليوقظه وكم كانت دهشته عظيمة حينما أبصر
الفراش لم يمس ، والطالب جالسا على الأريكة وقد تدلت رأسه على
صدره ، فقال له : « ما أراك نمت الليلة ؟ » (٤) -

قال : كلا ! ..

قال : « فى ماذا كنت تفكر ؟ وما أسهرك ؟ » .

قال : « فكرة عجيبة » ، لقد فكرت اذا أفضى الى الأمر ومات محمد
بن بشير القاضى (٥) فمن استبدله ومن ذا الذى يقوم مقامه ؟ فجلت
الأندلس كلها بخاطرى فلم أجِد رجلا الا واحدا .

فقال له : « لعله محمد بن السليم » (٦) .

فأجابه : « هو والله » . لشد ما اتفق خاطرى وخاطرك » (٧) .

كانت هناك فكرة استولت على الشاب فشغلته نهاره كله ، وحرمته
رقاده بالليل .

فمن كان هذا الشاب الضائع بين جمهور العاصمة اللجب ؟ .

ومن هذا الذى تضطرب نفسه بمثل هاتيك الآمال الجسام ، والذى
كان يؤمل فى قرارة نفسه بأنه سيغدو يوما المتصرف فى شئون البلد
على الرغم من أنه لم يكن له سند فى البلاد ؟

كان هذا الفتى يدعى أبا عامر محمد من بنى أبى عامر ، وهى أسرة
تنتمى الى قبيلة معافر اليمانية ، ومع أنها لم تكن من الأسر البارزة الا أنها
كانت شريفة المحتد ، فجده السابع عبد الملك أحد أولئك العرب القلائل
الذين كانوا فى الجيش المغربى الذى خرج به طارق الى اسبانيا ، ثم ذاع
صيته حينما قاد كتيبة من الجند استولت على قرطاجنة الى كانت أول
مدينة أسبانية تقع فى أيدي المسلمين فأرادوا مكافأته على انتصاره
فأقطعوه حصن طرش الواقع على نهر الوادى الكبير باقليم الجزيرة
وما حوله من الأراضى ، ولكن قل أن سكن أبناؤه من بعده هذه الناحية

الا- نادرا ، اذ جرت العادة أن يقضوا أيام شبابهم بقرطبة ليسعفهم ذلك بأن يكونوا من رجال البلاط أو القضاء ، وهذا ما فعله مثلاً أبو عامر محمد بن الوليد الحفيد الأكبر لعبد الملك ، وكذلك ابنه عامر الذي شغل كثيراً من المناصب ، وأحبه السلطان محمد حتى أمر بنقش اسمه على السكة وتطريزه على الأعلام - كما تقلد محمد - جد صاحبنا - قضاء اشبيلية مدة ثمانية أعوام زمن السلطان عبد الله (٨) ، كما كان أبوه عبد الله فقيها مبرزاً شديد الورع والتقوى ، حج إلى مكة (٩) ، ومن ثم كانت هذه العائلة تطمح على الدوام للاتصال بذوى الشرف ، فتزوج جد محمد من ابنة العليج يحيى بن أسحق النصراني (١٠) طيب عبد الرحمن الثالث ثم أصبح وزير بطليوس وعاملاً عليها ، وكانت أم أبي عامر تدعى « مريهة » وهي ابنة القاضي ابن برطل التميمي (١١) .

وعلى الرغم من قدم أسرة بنى عامر وما تتمتع به من الاحترام إلا أنها لم ترق إلى مرتبة الطبقة العليا فلم يكن لها من النبل غير ثوبه أن جاز استعمال هذا التعبير ، ولم تصل إلى هذا بخد السيف .

وإذا استثنينا عبد الملك الذى صحب طارق بن زياد لم نجد عامرياً سواه مارس الحرب وولج ميدان الوغى الذى هو أشرف منازل الحياة (١٢) . فكان العامريون جميعهم إما قضاة أو موظفين فى القصر . وقد قدر لمحمد - هو الآخر - أن يسلك سبيل القضاء ، ففي ذات يوم فى صدر شبابه ودع هذه الحصون المنيعه وذلك القصر الموروث وشخص إلى العاصمة فى طلب العلم حيث سمع من أبى بكر بن معاوية القرشى وأبى على القالى وابن القوطية (١٣) ، وكان شاباً ذكياً الفؤاد ، سريع الفهم ، مشبوب العاطفة ، مرهف الحس سريع الغضب ، يؤثر من الكتب الحوليات القديمة عن تاريخ (١٤) أمته ، وكان أهم ما يسترعى انتباهه فى هذه الأخبار الغابرة صور المخاطر التى قام بها أولئك الرجال الذين نشأ أغلبهم بين طبقات دون طبقتهم بكثير وتدرجوا فى المناصب حتى بلغوا أسمى المراتب ، فاتخذهم مثلاً يحتذيه ، وكان لا يكتفى بمطامحه عن أقرانه لذلك طالما اتهموه بالجنون وليس به مس منه ، والواقع أنه لم يكن يسيطر عليه غير فكرة راحدة شغلت كل تفكيره لكنها لم تكن ضرباً من الجنون بل ترجع إلى العقريه ، كما كان على جانب كبير من المواهب العظيمة ، فكان خصب التفكير ، شديد البأس ، جريئاً حيث تنبغى الجرأة ، كما كان لين العريكة مدبراً ، يحتال للأمر أن دعت الحال إلى ذلك . أضف إلى هذا أنه كان قليل التشكك فيما هو بسبيله من الطرق التى تمهد له الوصول إلى هدفه العظيم ، كما كان قوى الثقة فيها

جميعاً . وكان جيم النشاط يتابع الفكرة المرموقة في ونباء وتمهل ، وكان اذا استهدف هدفا وجه اليه همه وآلى على نفسه الا أن يبلغه مهما كلفه الأمر ، ثم يمضى قدما اليه لا يتنيه عنه ثان ، ولا يردده عنه راد .

.. ولقد بدأ حياته مغمورا مجهولا فلما أتم دراسته دفعه السعى لكسب العيش الى فتح مكتب بجوار باب القصر لكتابة الرقاع التي يرفعها الناس الى الخليفة . يسألونه شيئا (١٥) .

ثم شغل بعد ذلك وظيفة صغيرة في محكمة قرطبة ، لكنه لم يحظ بعطف رئيسه القاضى ، وكان الذى يشغل منصب القضاء يومئذ ابن السليم الذى كان محمد يحله عن حق وينزله من نفسه أرفع منزلة لبروزه في العلم والشرف ، كما كان من احسن القضاة الذين شهدتهم قرطبة (١٦) ، غير أنه كان في الوقت ذاته جاف المعاملة منطويا على نفسه شديد البعد عن ليسوا على شاكلته ، فغاضه أكبر الغيظ آراء رؤوسه الشباب الغريبة وذهوله الدائم ، فكان لا يتمنى شيئا سوى الخلاص منه ، وشاءت الصدفة وحدها أن تؤدي الكراهية التي يحسها القاضى لمحمد (بن أبى عامر) لأن ينال هذا الأخير ما اشتهاه من الالتحاق بالبلاط ، فقد شكاه القاضى الى الوزير المصحفى سائلا اياه الحاق هذا الشاب بمهنة أخرى فوعده المصحفى بتحقيق طلبه ، ولم يلبث الحكم الثانى ان طلب وكيلا ماهرا لإدارة أملاك ابنه البكر عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة من عمره (١٧) اذ ذاك ، فحبب المصحفى اليه محمدا بن أبى عامر وزكاه عنده ، ولم يقع هذا التعيين موقع الرضى من الخليفة وحده فحسب بل ومن الجارية السلطانية صبيح أيضا ، وكانت « صبيح » بشكنسية المولد لها دالة كبيرة على زوجها ، وتقدم اليها كثيرون لم تقبل منهم غير ابن أبى عامر فقد راقها منه حسن طبعته ولطف معاملته ، فاختر دوين سواء ، وفى يوم السبت (١٨) ٢٢ فبراير ٩٦٧ م عين مشرفا على أملاك عبد الرحمن بمرتبة شهرى قدره خمسة عشر دينارا ، وكان له من العمر يومئذ ستا وعشرين سنة .

.. لم يكن ابن أبى عامر يدع فرصة الا ويغتنمها كى يزداد اعجاب ضيق به ، وصاحبه التوفيق فاخترته لإدارة أملاكها الخاصة هى أيضا ، ولم تنقض سبعة أشهر على التحاقه بالقصر حتى اختير مديرا للشئون المالية (١٩) ، فهيا له هذا المنصب الأخير الفرصة لتوفير المال الجهم بين يديه ، فتوسل به لإيجاد أصدقاء له من بين الكبار ، فكان اذا أشرف أحدهم على الافلاس (وتلك حال كان يؤذيهم اليها فى الواقع اسرافهم) هب محمد بن أبى عامر لنجدته ، ويقال ان محمد بن أبى أفلح - أحد موالى الخليفة وموظفى البلاط (٢٠) - كان قد استدان مبالغ طائلة لتجهيز

ابنته فمضى الى بيت المال وقدم الى ابن أبي عامر حلقة مرصعة بالجواهر الكريمة رهنها عنده لقاء مبلغ يريد قائلًا له انها الشيء القيم الوحيد الذى يبقى له ، فلم يكده يفرغ من كلامه حتى أمر ابن أبي عامر أحد رؤسائه بأن يزن له زنتها فضة ، فأخذها ابن أفلح وأذهله هذا الكرم لتقل الحديد والجلد اللذين صنعت منهما الحلقة ، ولم يصدق ابن أفلح أذنيه فيما أمر به صاحب بيت المال ، غير أنه آمن أن أذنيه لم تخوناه حين جاؤه بعد لحظات طالبين اليه بسط عباءته مكسسين فيها قدرا كبيرا من الفضة لا تكفى لسد ديونه فحسب بل ولتجعله فى بسطة من العيش ، فانطلق لسانه قائلا (٢١) : « أحببت ابن أبي عامر حتى لو دعانى الى معصية الحكم - وهو مالك رقى واماني - لما قعدت عنه » .

بهذه الوسيلة استمال ابن أبي عامر الى جانبه كثيرا من الناس فكانوا مؤبدين له ، غير انه كان يرى أن واجبه الاول انما هو تلبية كل رغبات السلطنة (صبح) واغراقها بهدايا لم يسبق أن رأت لها قط مثيلا من قبل ، ونجحت خطته بطبيعة الحال ، من ذلك مثلا ما حدث ذات مرة من أنه بذل كثيرا فى صنع قصر صغير من الفضة فلما تم كما أراد أمر بحمله على رؤوس الخدم الى القصر الخلفى ، فاستبد العجب بأهل العاصمة الذين لم يروا أبدا منزل هذا العمل الفخم ، وكان هذا (القصر) هدية لصبح النى لم تكتف اعجابها الشديد به ، ومثذ ذلك الوقت لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تمتدح مواهب وكيلها وتطلب زيادة راتبه (٢٢) .

وتمكنت أواصر المودة بينهما تمكنا عظيما أتاح لبعض الوشاة أن يلغوا بالقول السىء .

كذلك أغدق ابن أبي عامر هداياه على غيرها من الحريم فأسهرهن كرمه ، وأعجبتهن رقة حديثه وجميل خصاله ، ولم يفهم الخليفة العجوز شيئا حتى لقد قال ذات يوم لخاصة أصدقائه (٢٣) : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حريمتنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن الا هداياه ولا يرضيهن الا ما أتاه ؟ .. انه لساحر عليم ، وخادم لبيب ، وانى لخائف على ما بيده » .

والواقع أن المدير الشاب لاقى الأخطار الجسام من تلك الناحية ، فلقد كان يبسط يده بالمال من بيت المال الى أصدقائه ، ولما كان تدرجه السريع فى مدارج العلياء داعيا بطبيعة الحال الى ايجاد حساد له فقد اتهمه أعداؤه ذات يوم عند الخليفة بالسرقة ، فطلب ان يحضروه اليه لساعته ليسؤل عما بيده من المال الذى استؤمن عليه فوعده بالمنول ، لكنه

أسرع في البحث عن وزيره ابن حدير وصارحه بخرج موقفه وما يحيق به من الخطر ، وتوسل اليه أن يقوم بسداد ما يحتاجه من المال ليدفع الخطر الموشك أن يلحق به . فأعطاه ابن حدير للحظته ما سأل ، ومضى ابن أبي عامر الى الخليفة وأطلعته على التقارير المالية وعلى المال الذي ينبغي أن يكون في بيت المال بين يديه ، فأفحم مناوئيه وألجم ألسنتهم ، وبدلا من الشر الذي أرادوه له فأنهزم مهتدوا له سبيل التجاح العظيم . فعاملهم الخليفة معاملة النمامين ، وراح يمتدح مهارة وكيل بيت المال وأمانته (٢٤) ، وعهد اليه بمهام أخرى ، ذلك أنه في مستهل ديسمبر ٩٦٨ م اختاره ناظرا لبيت المال ، ثم جعله بعد أحد عشر شهرا قاضي اشبيلية ولبلة ، ولما مات عبد الرحمن الصغير وكان طفلا اختير ابن أبي عامر مشرفا ومديرا لأموال هشام الذي صار ولي العهد في يوليو ٩٧٠ ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ أنه في فبراير ٩٧٢ م اختير مديرا للقسم الثاني من الشرطة الذي كانت مهمته المحافظة على المدينة (٢٥) ، ولما بلغ الحادية والثلاثين من عمره كان في يده خمس أو ست وظائف هامة مربحة (٢٦) ومن ثم تقاب في بلهنية من العيش قل أن كان يتقلب فيها غير الأمراء .

ولم يكن هناك قصر يضارع في الأبهة قصره الذي شيده في الرصافة لما احتشد فيه من الكتبة والموظفين الذين اختيروا من أرفع طبقات المجتمع ، ولم يجعل حجابا بينه وبين أي طارق لبابه الذي كان مفتوحا على الدوام لطلاب الحاجات غير مسدود في وجوههم ، أضف الى ذلك أنه لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يتقرب فيها الى الشعب ونجح في ذلك كل التجاح ، فأجمع الكل على امتداح كرمه ، وتغنوا بعطفه ، ولهجت ألسنتهم بالثناء على رحمته وكريم طباعه ، ولم يختلف في ذلك اثنان (٢٧) . وعلى الرغم من أن تلميذ طرش كان قد بلغ مرتبة رفيعة الا أنه كان يطمح فيما فوقها ، وجعل ذلك الهدف نصب عينيه ورأى الضرورة تحتّم عليه مصادقة القواد ، وقد أتاحت له أحوال المغرب تلك الفرصة .

لم تضع الحرب أوزارها لحظة في هذا القطر بين أتباع الفاطميين وبين الموالي الأمويين الا أنها اتخذت أسلوبا آخر ، ذلك أنه اذا كان عبد الرحمن الناصر قد حارب الفاطميين لحفظ بلده من غارة أجنبية فان هذا الخطر لم يعد له وجود ابان الفترة التي نتكلم عنها الآن ، فقد وجه الفاطميون جيوشهم نحو مصر ففتحوها عام ٩٦٩ م (= ٣٥٩ هـ) ، وبعد ذلك بثلاث سنوات غادر خليفتهم المعز المنصورية عاصمة دولته وأقام على ضفاف النيل ، واستعمل على بلاد المغرب وأفريقية الأمير الصنهاجي أبا الفتوح يوسف بن زيري ، فأمنت الأندلس منذ ذلك الحين عادية من

يسمّون أنفسهم بالعلويين ، وربما كان الحكم مصصيا في عزمه على ترك هذه الاقطار الافريقية التي كانت ترهقه مالبأ أكثر مما تفيده ، إلا أنه رأى في هذا الترك ما يشلم شرفه فأخذ في توسيع حدوده بدلا من ترك هذه الممتلكات ، فخرج غازيا أمراء الدولة الادريسية الذين كانوا يدينون بالولاء للفاطمين .

كان أحد هؤلاء الأمراء هو الحسن بن كنون (أو جنون الادريسي) حاكم طنجة وأرزيلة وبعض الأماكن الساحلية الأخرى ، وكان ابن كنون يميل تارة الى الأمويين وتارة الى الفاطميين وان كان الى الأخيرين أكثر ، اذ كان يخيل اليه أنهم أقل خطرا من الأمويين الذين تتأخمه ممتلكاتهم ، وكان (الحسن) أول من انضم الى جانب أبي الفتوح حينما دخل ذلك الوالي بلاد المغرب فاتحا ، فنقم عليه الحكم بسبب تمرده ، وبعد أن غادره أبو الفتوح أغزى الحكم قائده ابن طملس (٢٨) للقصاص من ابن كنون وردده الى طاعته .

وفي مستهل أغسطس ٩٧٢ م (= شوال ٣٦٣ هـ) أبحر ابن طملس على رأس جيش عرمرم بعد أن انضم اليه عدد كبير من عسكر سبتة التي كان ابن كنون مقيما بها فخرج لطرده غير أنه منى بهزيمة نكراء حتى أنه لم يستطع الرجوع الى طنجة التي تركت بمفردها وسرعان ما استسلمت وخضعت للقائد الأموي الذي حاصرها ميناءها . أما الجيش البربري فقد احتل ناحية أرزيلة (٢٩) . وكانت العساكر الأموية حتى ذلك الوقت ظافرة منتصرة ، غير أن الحظ أخذ في مناوأتها اذ جمع ابن كنون تحت رايته جنودا آخرين وزحف بهم على طنجة (٣٠) وهزم ابن طملس الذي خرج لصدده فلقى حتفه في هذه المعركة ، واذ ذاك شق جميع الأمراء الأدارسة عصا الطاعة وجأهروا بالثورة ، كما كتب قادة الحكم الذين عادوا الى طنجة ينبئونه بضياح الممتلكات الأموية في بلاد المغرب ويسألونه أن يسرع الى نجدها بالامدادات .

شعر الحكم بفداحة الخطر فعزم على ارسال أحسن جنده الى افريقية في التو واللحظة وجعل القيادة فيها الى أعظم قائد عنده وهو غالب العجوز فاستدعاه الى قرطبة وقال له : « امض يا غالب ولا تعودن الا غالبا ، فان لم تستطع فخير لك أن تلقى منيتك على ظبا السيوف ، ولا تدخرن مالا بل فرقه في الثوار ، واخلع جميع بني ادريس واستنزلهم الى الأندلس » .

وعبر غالى المضيق وفي صحبته نخبة من عساكر الأندلس ، وأرسى عند قصر مصمودة بين سبتة وطنجة ، وراح يتقدم فحاول ابن كنون

تعويضه ، ومع ذلك فلا يمكن أن يقال انه جرت موقعة ما بل كان القتال مناوشات استمرت بضعة أيام حاول غالب أثناءها زشوة زعماء جيش عدوه ، ونجح في مقصده ، فلانضم معظم قواد ابن كنون الى الراية الأموية بفضل ما قدم اليهم من مال وما خلع عليهم من الثياب الفخمة وما أصابوه من السبوف المحلاة بالجواهر التي خطف بريقها أبصارهم ، وحينذاك لم يجد الأدارسة بدا من الاعتصام بقلعة قائمة على قمة جبل قريب من « سبنة » تسمى باسم يطابق الواقع ألا وهو « صخرة النسر » (٣١) أو « حجر النسر » (٣٢) .

تلقي الخليفة نبأ هذا النصر الأول بالغبطة والارتياح لكنه لما علم بما بذله غالب من المال في سبيل استمالة زعماء البربر وجد أن قائده لم يتصرف بالحكمة ، وسواء أكان مال الدولة قد بعثر في المغرب أم امتدت اليه يد النهب والسرقة فالواقع أن النفقات التي تحملها الخليفة جاوزت كل تصور ، وأراد الحكم وضع حد لهذا الاسراف أو تلك اللصوصية فألى على نفسه أن يبعث الى بلاد المغرب رجلا محنكا ليكون مراقبا للشئون المالية فندب لذلك ابن أبي عامر وجعله قاضي قضاة المغرب وعهد اليه بمراقبة جميع أعمال القادة لا سيما المالية ، كما أنهى أمره الى ضبطه الحربيين ورجاله المدنيين في الوقت ذاته ألا يباشروا أحدهم عملا الا باستشارة ابن أبي عامر وموافقته .

وهكذا وجد ابن أبي عامر نفسه - ولأول مرة في حياته - على صلة بالجيش وزعمائه وكان ذلك أقصى ما يتمناه ، غير أنه كان بلا شك يرجو أن يكون هذا الحدث في ظروف غير هذه الظروف ، فكانت المهمة التي وكل اليه القيام بها شاقة شائكة ، فدفعه صالحه الخاص لتوثيق علاقاته بالقادة ، وإن لم تغفل عينه في الوقت ذاته عن مراقبتهم ، وفي هذا نجاحه أو فشله ، ومع ذلك فيرجع الفضل كل الفضل الى مهارته البارعة في أداء واجبه ومعرفته لأهدافه ، وكان قيامه بكل ما عهد به الخليفة اليه خبر قيام حاملا الخليفة على الرضاء عنه كل الرضا ، كما أنه أحسن معاملة الموظفين الذين كان يخشى كراهيتهم له فانطلقت ألسنتهم بمدحه والثناء عليه ، كما أكد في الوقت ذاته أواصر الصداقة بينه وبين الأمراء الافريقيين وشيوخ القبائل البربرية ، تلك الصداقة التي عادت عليه في النهاية بخير ما يحب ، وألف حياة المعسكرات واكتسب محبة الجند الذين ألهمتهم غريزتهم أن في مسنوح هذا القاضي جنديا .

بعد أن تم لغالب اخضاع جميع الأدارسة الآخرين ظل محاصرا ابن كنون في صخرة النسر ، وإذا كان من العسير اقتحام هذه القلعة

لحصانتها فقد بعث الخليفة الى المغرب عسكريا جديدا أخذهم من الكتائب التي كانت تحرس حدود الامبراطورية الشمالية ، وجعل على رأسهم الوزير يحيى بن محمد التجيبى نائبه فى النغر الأعلى ، وفى أكتوبر ٩٧٣ م ، وصل هذا المدد واشتد الحصار واتسم بالوحشية والضراوة. البنى أرغمت ابن كنون على التسليم فى الأيام الأخيرة من شهر فبراير ٩٧٤ ، وحينذاك سألهم الإبقاء على حياتهم وحياة غائلته وجنده ، وترك أموالهم لهم ، فأجيب الى ما طلب ، ويقال انه سلم حصنه ومضى الى قرطبة .

واستقرت الحال فى المغرب ، وعبر غالب المضيق ثانية عائدا الى الأندلس وفى صحبته جميع الأمراء الإدارسة ، وخف الخليفة وجميع أشرف قرطبة لاستقبال الغازى فكان دخوله ظافرا يوم ٢١ سبتمبر ٩٧٤ (= ٢ محرم ٣٦٤ هـ) من أفخم المناظر التى شهدتها عاصمة الأمويين ، وأظهر الخليفة عظما كبيرا على المغلوبين لاسيما ابن كنون ، ووصلهم بالعطايا النخمة ، وضم جندهم - وهم زهاء سبعمئة فارس - لخدمته ، وأثبتهم فى ديوان جنده لما شهد به لهم من الشجاعة (٣٣) .

كان دخول غالب العاصمة آخر أيام السعادة فى حياة الخليفة ، فما وافى شهر ديسمبر حتى داهمته مرض خطير هو الصرع (٣٤) ، فلما أحس بدنو أجله انصرف لأعمال البر فأعتق رقاب مائة من عبيده ، وتنازل عن سدس الجباية الخليفة فى الأقاليم الاسبانية التابعة للدولة ، وأمر أن يوقف ما جبى له من حوائت سروجية قرطبة على تعليم الأطفال الفقراء (٣٥) . أما أعمال الدولة التى لم يكن يستطيع الالتفات اليها الا قليلا فقد وكل القيام بها الى وزيره المصحفى (٣٦) ، وكان من الواضح أن يدا أخرى كانت هى التى تسير الأمور .

ولما كان المصحفى أكثر اقتصادا من موله فقد وجد أن ادارة الولايات الافريقية والاحتفاظ بالأمراء الادارسة يكلفان الدولة كثيرا لذلك بعث بهم الى تونس ومنها الى الاسكندرية (٣٧) بعد أن أخذ عليهم الموائيق الغلاظ الا يدخلوا المغرب ، ثم بعث فى استدعاء الوزير يحيى بن محمد التجيبى الى الأندلس وكان التجيبى نائبه على الممتلكات الافريقية منذ رحل غالب ، وعهد المصحفى بادارة هذه الأقاليم الى أميرين من أهلها هما جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون (٣٨) ، ولم يكن الاقتصاد وحده هو الذى أمله على المصحفى هذه الخطة بل دفعه اليها الرغب الذى قذفه فى قلبه نصارى الشمال الذين شجعهم ما ترمى الى سمعهم من نبأ مرض الخليفة وغياب أجسده عن بلادهم فعادوا فى ربيع ٩٧٥ م (= ٣٦٦ هـ) يجاهرونه بالعداء ، وحاصروا كثيرا من قلاع (٣٩) الميهلين بفضل مساعده

أبى الأحمس (٤٠) معن لهم ، وهو من عائلة التجيبى المقيمة فى سرقسطة ، فآمن المصحفى أنه ينبغى عليه فى مثل هذه الظروف أن يعنى قبل كل شىء بالدفاع عن البلد ، فما كاد البطل يحيى بن محمد يعود حتى أسرع فولاه ولاية الثغر الأعلى (٤١) .

أما الخليفة فلم يكن يشغل باله طوال هذه الأشهر الأخيرة من حياته سوى شغل واحد ذلك هو ضمان اعتلاء ابنه العرش من بعده وإن كان لا يزال طفلا ، وكان قبل توليه الحكم لا يرى أن أمنيته الغالية قد تحققت وهى أن يكون أباً لاسيما وقد تقدم به العمر تقدما كاد أن يئأس معه حتى إذا وافق سنة ٩٦٢ (٣٥١هـ) ولدت له صبيح ولدا سماه عبد الرحمن ، ثم أنجبت له بعد ثلاثة أعوام ولدا ثانيا هو هشام ، فكان سرور الخليفة بقدميهما عظيما ، ومنذ ذلك الحين تزايد نفوذ صبيح على زوجها (٤٢) [الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر] تزايد ما له من حد ، غير أن سروره لم يتم إذ مات ابنه البكر (عبد الرحمن) معقد رجائه ولم يبق سوى هشام ، ولم يمد يشغل بال الحكم الا الخوف من أن تقوم الرعية فتسوق العرش الى واحد من أعمامه ايثارا له على طفل حدث ، ولم يكن من المستغرب أن يسيطر عليه ذلك الخاطر ، فلم يحدث قط أن اعتلى عرش قرطبة سلطان صغير كهذا السلطان هشام ، أضعف الى ذلك كراهية العرب لفكرة الوصاية ، وكان قصارى أمل الحكم أن يخلفه ابنه فقد كان القوم يؤمنون بتبوء قديمة تقول ان أسرة بنى أمية ستزول من الحكم اذا ما خرج العرش عن البيت (٤٣) .

لم ير الخليفة أمامه من وسيلة لضمان العرش لولده الا أن يسارع بأخذ البيعة له ما وسعه الاسراع ، ومن ثم استدعى كبار رجال مملكته الى مجلسه ، واجتمعوا يوم الخامس من فبراير ٩٧٦ م ، حيث أفضى اليهم بقصده داعيا اياهم جميعا للتوقيع باعتباره ولى عهده من بعده ، فما استطاع أحد أن يرفض طلب الخليفة .

حينذاك كلف الحكم ابن أبى عامر وكاتبه ميسورا - وكان ممن حررته (٤٤) صبيح - أن يستنسخا عدة صور من هذا القرار ، وبعث بها الى جميع ولايات الأندلس وأفريقية ودعى الاشراف والعمامة للتوقيع على هذا القرار (٤٥) .

وانجز الأمر فى ساعته وبادر الجميع الى تحقيق ما طلبه الخليفة دفعا لسيخطه أن ينزل بهم .

أضف الى هذا أن اسم هشام أصبح منذ ذلك الحين يذكر في
الصلوات العامة ، فلما وافى الموت الحكم (٤٦) يوم أول أكتوبر ٩٧٦ م
(= ٢ صفر ٣٦٦ هـ) حمل الى قبره وهو مطمئن الى أن ولده هشاما
سيخلفه لاسيما وان ابن أبي عامر والمصحفي - الذي أصبح حاجبا (٤٧) -
لا بد وأن يحملا أهل الأندلس على احترام العهد الذي قطعوه على أنفسهم •

الفصل السابع

الخصيان الصقليين فائق وجوزد يغنيان خبر موت
الحكم لتدير من يحكم بعده • تقريرهما صرف الخلافة عن
هشام الى عمه المغيرة • ظهور المصحف على مسرح الأحداث •
ايشاره هشام بن الحكم • ابن ابي عامر يتعهد للمصحف
بالتخلص من المغيرة • الحلفاء الأعداء في القصر • اخذ البيعة
لهشام وتفسخ نفوذ المصحف وابن ابي عامر • حوادث
الاغتيال •

الحملة لمحاربة نصارى الشمال بقيادة ابن ابي عامر •
نجاحها وأثر ذلك على ابن ابي عامر •

الفصل السابع

أحداث استخلاف هشام بن الحكم

لفظ الحكم المستنصر نفسه الأخير بين بين أذرع كبيرى خصيانه :
فائق (١) وجوذر ، فلم يعلم أحد سواهما بنبأ موته الذى آليا أن يبقى
سرا مكتوما حتى يتم الاتفاق بينهما على الخطة التى يسلكانها .

وعلى الرغم من أنها كانا عبيدين اذ كان أحدهما يلقب بصاحب
البرد والطراز والآخر بصاحب البياذرة الا انهما كانا أصحاب شأن ضخيم
يتمتعان بسلطان كبير ونفوذ غير منكور ، وكان فى خدمتهما ويعيش على
حسابهما الخاص جمع من الخدم المسلمين الذين لم يكونوا خصيانا
ولا عبيدا ، زد على ذلك أنه كان تحت امرتهما قرابة ألف صقلبي من موالى
الخلافة لكنهم كانوا بالغى الثراء لما يملكون من الأراضى الفسيحة والقصور
الجميلة ، وكان رجال هذا الجيش من الخدم ينعمون بكثير من الامتيازات ،
كما كان ينظر اليهم بأنهم زينة البلاط وأبهى حلل المملكة ، لكنهم جاروا
على القرطبيين وأساءوا السيرة معهم كل السوء ، وعلى الرغم مما أثر عن
الخلافة من ايماره العدل وحرصه على تطبيقه الا أنه كان دائم الاغضاء عن
قبائحهم وجرائمهم فاذا حاول أحد تنبيهه الى ذلك أجاب : « هم أمنائونا
وثقاتنا على الحرم ، فينبغى للرعة أن تلين لهم وترفق فى معاملتهم فتسلم
من معرفتهم ، اذ ليس يمكننا فى كل وقت الانكار عليهم » (٢) .

ولم تكن المعاملة الحسنة لتريد أولئك الصقالبة الا صلفا وعتوا ،
فكانوا أكثر هيئات الحكومة قوة ، حتى خيل الى زعيميهما فائق وجوذر
أن اختيار خليفة جديد أمر موكول اليهما وحدهما فحسب لا يشاركهما فيه
أحد ما . ولقد ترتب على هذا الظن أن انصرف كل منهما عن هشام لما أدركاه
فى اعتلاء هذا الطفل العرش من ظهور نفوذ المصحفى (٣) الوزير الذى
يكرهانه وبودان لو تقلص نفوذه الشخصى (٤) . والواقع أن العامة كانت

قد أقسمت يمين الولاء لهشام بن الحكم لكن الخصيين لم يكونا يقيمان وزنا ليمين سياسية ، ادراكا منهما أن معظم من أقسموه انما أقسموه قسرا ، كما كانا يعرفان أن الشعب لا يميل لفكرة الوصاية وأن هناك ثلة من الناس لا ترغب أن ترى العرش يساق الى حاكم طفل لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ويكون له الحكم الزمني والروحي . كما أنهما كانا من ناحية أخرى يطمعان في استبقاء البقية الباقية من حب الشعب لهما بأبسط طريق وذلك بعقد الامامة لأمير بالغ عاقل ، ثم انهما يعلمان أن مثل هذا الأمير لا بد وأن يشكر لهما يدهما عليه اذ أخذا به الى العرش ومن ثم يستطيعان التصرف في أمور الدولة باسمه من غير معارضة لهما من جانبيه ، لذلك صمما على المبادرة الى اقضاء هشام وصرف الخلافة الى عمه المغيرة وكان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك واشترطا عليه أن يعلن ابن أخيه خليفة له ، كراهية منهما في أن يظهر بمظهر المعارض لرغبات مولاهما الراحل .

فلما اتفقا على هذا القرار قال جوذر لصاحبه : « ينبغي أن نحضر جعفر بن عثمان [المصحفي] ونضرب عنقه فيتم بذلك أمرنا » .

لكن فكرة القتل هذه أفرغت فائقا الذي كان أقل دهاء من صاحبه كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على كتساب المصحفي باللين فبعثا مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب ولعله لا يخالفنا شيئا نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم ؟ » .

لم يكن جوذر يؤيد هذه الفكرة لكنه تخلى عما قال مرغما لأن فائقا كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على اكتساب المصحفي باللين فإرسلا في طلبه الى القصر فلما جاء أفضيا اليه بموت الخليفة وأطلعاه على المشروع الذي أجمعا العزم عليه ، ثم طلبا اليه معونته .

كانت خطة الخصيين تخالف تمام المخالفة رأى الحاجب ولكنه تظاهر بقبولها خوفا من بطشهما به ، وقال لهما : « هذا والله أسد رأى وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما واستعينا بمشورة المشيخة فهي أنفى للخلاف ، وأنا أسير الى الباب فأضبطه بنفسى وأنفذ أمركما الى بما شئتما » (٦) .

ولما أدرك المصحفي نجاح خطته في خدع الخصيين واطمئنناهما اليه استدعى أصحابه ، وأعلم بالأمر ابن أخيه (٧) هشاما وابن أبى عامر (٨) وزياد بن أفلح (٩) أحمد موالى الحكم وقاسم بن محمد (بن القائد

ابن طملى الذى لاقى حنقه فى افريقية فى محاربة ابن كنون) وبعض الشخصيات الأخرى ذات المكانة البارزة ، كما أحضر كذلك قوات الكتائب الاسبانية ورؤساء الكتائب الافريقية التى كان جل اعتماده عليها ألا وهم بنو برزال ، وعندما تكامل عقد الجميع أفضى اليهم نبأ موت الخليفة وبما دبره الخصيان ثم ختم كلامه اليهم بقوله :

« ان نحن حبسنا الدولة على هشام أمنا على أنفسنا وصارت الدنيا فى أيدينا » .

« وان انتقلت الى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقادنا » .
واتفقت ميسول الحاضرين وميول المصحفى ، فأجمع هو وإياهم فيما بينهم على احباط مشروع الخصيين وذلك بقتل المغيرة قبل أن يعلم بموت أخيه ، واستصوب المصحفى هذه الفكرة لكنه لم يجد من يقوم بهذا القتل حين طلب من القوم رجلا ينفذه ، اذ لم يشأ أحد أن يخضب يديه بدم المغيرة أو أن يتحمل تبعه هذا العمل » .

حينذاك تقدم ابن أبى عامر وقال : « يا قوم انى أخاف فساد أمركم ونحن تبع لهذا الرئيس فينبغي ألا تختلفوا عليه ، وأنا أتحمّل ذلك عنكم ان هو أنفذنى .. فخفضوا عليكم » .

أثارت هذه الكلمات دهشة الجميع اذ لم يكن أحد يتوقع أن يرى موظفا مدنيا يتقدم لانجاز القتل فى الوقت الذى أحجم فيه رجال مارسوا الحرب وألفوا رؤية الدماء واعتادوا سفكها ، فبادروا الى قبول عرضه وقالوا له : « أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشام ومهلك فى الدولة » .

سرعان ما امتطى ابن أبى عامر جواده مستصحبا القائد بدرا أحد موالى عبد الرحمن الثالث ومائة محارب وكوكبة اسبانية ويمموا جميعا ناحية قصر المغيرة فلما بلغوه أوقف ابن أبى عامر الحراس بالباب واقتحم هو بالآخرين الدار فلما صاروا فى ردهته دخل وحده البهو فوجد به الأمير فأفضى اليه بموت أخيه الخليفة الحكم المستنصر وخبر اعتلاء ابنه هشام العرش وقال له : « انهم خشوا خلافتك فأنفذونى لامتحان القصة » .

فامتقع الأمير حين سمع هذه العبارة وأدرك ما وراءها ، ورأى السيف مصلتا على رأسه فقال فى صوت مرتجف : « لقد استوجعت بالموت أخى ولكنى استبشرت بملك ابنه ، فأعلمهم أنى سامع مطيع ، وواف ببيعته ، فتوثقوا منى كيف شئتم » .

ثم أقبل يستلطف ابن أبي عامر ويناشده الله في دمه ويسأله
المراجعة في أمره (١٠) .

وعطف ابن أبي عامر على شبيبته وخلاه لطيفة قلبه واعتقد وفاءه
فيما تعهد به ، وما كان له أن يتراجع عن قتله ان قضت بهذا القتل سلامة
الدولة وأيدته مصالحه الخاصة ، ولكنه لم يشأ أن يخضب يديه بدم رجل
لا يراه مدعاة خوف ومن ثم كتب للمصحفي منبثا اياه أنه وجد الأمير وفق
ما يهوى ولم يقف على ما يخشاه منه ، وعلى ذلك فانه يطلب منه الاذن في
الابقاء على حياة المغيرة، وبعث بهذه الرسالة الى الوزير مع أحد الجند الذي عاد
اليه بعد قليل حاملا رد المصحفي وقد جاء فيه « غررتنا من نفسك فانفذ
لشأنك أو فانصرف نرسل سواك » .

أظهر ابن أبي عامر للمغيرة هذه المقالة التي تتضمن الأمر بقتله ،
ولما كان ابن أبي عامر راغبا عن مشاهدية هذا الحدث الفظيع الذي لا بد من
تنفيذه فقد غادر البهو وأمر رجاله بالدخول مكانه ، فعرفوا ما هو المطلوب
منهم ، فخنقوا الأمير وعلقوا جثته في حجرة مجاورة لمكان خنقه وأسروا
الى الخدم بأنه قتل نفسه حينما عرف أنهم مرغموه على الذهاب الى ابن
أخيه لقطع يمين الولاء له ومبايعته ، وسرعان ما أمرهم ابن أبي عامر بادخال
الجثة الى البهو وتسوير الأبواب .

ولما أنجز ابن أبي عامر هذا العمل عاد الى الوزير المصحفي وأخبره
بتنفيذ أمره ، فشكره المصحفي شكرا حارا وأجلسه الى جانبه اظهرا منه
لعرفانه يده عليه ، ولم يلبث فائق وجوذ أن أدركا أن المصحفي مسقطهم
وأنه أحبط مشروعاتهم فخافاه لاسيما جوذر الذي قال لصاحبه : « نصحت
لك بقتل المصحفي فلم تسمع مني » ، ومن ثم كانا مضطرين للتكفير عن
زلتهم فدخلوا على المصحفي معتذرين ذاكرين له انهما تنكبا محجة الصواب
وأن ما فعله هو الأمر الصحيح وانه خير مما فكرا فيه (١١) .

كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين غير أن الوزير لم يكن قادرا في
هذه اللحظة على الانتقام منهما فتظاهر بتصديقهما وعاد السلام بينه
وبينهما (١٢) .

وفي صباح اليوم التالي ، أعنى الاثنين ٢ أكتوبر [= ٣ صفر] نودي
في أهل قرطبة بالشخص الى القصر فما بلغوه حتى وجدوا الخليفة الغلام
في قاعة العرش وعلى كسب منه المصحفي ، ورأوا فائقا على يمينه وجوذ
على يساره ، أما بقية رجال الدولة ففي أماكنهم .

وتقدم القاضي ابن السليم فاستحلف أعمام الخليفة وأبناء عمومته
ثم الوزراء فرجال القصر فالزعماء القرشيين فوجوه أهل العاصمة ، وتم ذلك
بمساعدة ابن أبي عامر وبقية الجماعة ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لوجود
المعارضين ، غير أن ابن أبي عامر تمكن بطلاقة لسانه وقوة اقناعه من
الوصول الى ما يشتهى ، فلم يبق على الرفض سوى اثنين أو ثلاثة ، وأثنى
الجميع على هذه الخطة وامتدحوا قدرة صاحب دار الضرب في تلك
الفرصة (١٣) .

* * *

كان كل شيء قد تم حتى هذه اللحظة وفق هوى المصحفي ورهطه ،
ولم يبد في سماء المستقبل ما يعكرها فان في ظهور الشعب بمظهر
الهاديء الراضى بما تم دليلا على قبوله فكرة الوصاية التي كانت تفرعه
ويكرهها ولا يهضمها ، لكن مظهره هذا لم يكن سوى خديعة اذ كان يخفى
الحقيقة في سره خفاء النار تحت الرماد اذ راح يلعن في الخفاء أولئك
الجنسعين أصحاب القوة الذين استهلوا عهدهم بقتل المغيرة البائس ،
كما راح الخصيان يعملان من جانبيهما على اثارة روح التذمر بين أهل
العاصمة ، فلم تنقض غير فترة وجيزة حتى سرت هذه الروح بين الجميع
وحتى أوشكت أن تضرع الثورة ، ولم يفت ذلك ابن أبي عامر لذلك بادر
بالاشارة على المصحفي أن يرهب الأهلين بمظاهرة توقظ فيهم ما كانت
تنطوى عليه صدورهم من الحب لحكامهم وذلك بأن يظهر لهم الخليفة
الصغير وأن يسقط عنهم بعض الخراج ، فاستصوب الوزير رأيه ،
وعزم على أن يركب الخليفة في الناس فركب يوم السبت ٧ أكتوبر
(= ٨ صفر) .

وجاء المصحفي في ذلك اليوم ، ولم يكن ينعت حتى هذه اللحظة
الا بالوزير ، فلقب نفسه بالحاجب ، ورفع ابن أبي عامر - كما شاءت
صبح (١٤) - الى مرتبة الوزير ، فشارك المصحفي بذلك في ادارة دفة
شئون الدولة ، وخرج هشام الثاني (بن الحكم) ممتطيا صهوة جواده ،
واخترق شوارع العاصمة محاطا بثلة كبيرة من الجند وفي صحبته
ابن أبي عامر ، ثم أذيع في نفس الوقت منشور سقطت بمقتضاه ضريبة
الزيتون وكانت من الضرائب الموقوتة كما كانت عبثا فادحا لا سيما على
كاهل الطبقات الدنيا ، وقد أدت هذه الأعمال - لاسيما الأخيرة منها -
الى النتيجة المأمولة فنسب أنصار ابن أبي عامر اليه ابطال هذه الضريبة
لما شاهدوه من حرصه على ذلك فتظاهرت العامة بالمظاهرات وأعلنته
الصديق الحقيقي للفقراء (١٥) .

لكن على الرغم من ذلك فقد استمر الخصيان في بث الدسائس ، كما حمل جواسيس المصحفي اليه أن بعضا من الأشخاص المشكوك فيهم يقومون بدور الوسيط بين الخصيين وأصدقائهما في الخارج وانهم يدخلون ويخرجون عبر « باب الحديد » فأمر الحاجب بسده وألا يكون دخول القصر الا عن الطريق المعروف « بباب السدرة » ، وزاد المصحفي على ذلك بأن طلب الى ابن أبي عامر أن يبذل قصارى جهده ويعمل غاية ما في وسعه حتى يقضى من حول فائق وجوزر من الخدم المسلحين من غير الخصيان والعبيد .

وأخذ ابن أبي عامر على عاتقه القيام بذلك العمل الذي نجح فيه غاية النجاح اذ لم يقصر في وصل البعض بالمال يقدقه عليهم ، وبذل المواعيد لغيرهم حتى نجح في حمل خمسمائة منهم على التخلي عن خدمة الخصيين والانضمام اليه فعظم بأسه وضخم نفوذه حتى فاق ما كان لمنافسيه وذلك أيضا بفضل استطاعته الاعتماد على معونة قوات بنى برزال الافريقية ، ولم يخف ذلك على جوزر فخاف مغبة الأمر فقدم استغفاه من بيزرته سائلا السماح له بمغادرة القصر الخلفي ، ولم يكن ذلك كله منه الا مناورة فقد ظن أنهم لن يستطيعوا الاستغناء عن خدماته ، واعتقد أنهم سوف يرفضون طلبه هذا ومن ثم تتاح له الفرصة لأن يملأ على خصومه الشروط التي يريد لها لقاء استمراره في الخدمة ، لكن تبدد أمله هباء فقد قبل استغفاؤه ، فاشتد حنق أنصاره غضبا له واندفعوا يسببون المصحفي وابن أبي عامر ويتوعدونهما ، وكان أحد زعمائهم واسمه : « الفتى الصغير الدرى » قد عرف على الأخص بذلاقة لسانه ، لذلك أوعز المصحفي الى ابن أبي عامر بالبحث عن أية طريقة للتخلص منه ، ولم يكن ذلك صعبا أو مستحيلا ، ذلك أن الدرى كان صاحب الأمر فى « بياسة » التى ضج أهلها بالشكوى منه لبطشه واستبداده بهم ، كما تدمروا من جنس عماله ، فاغتنم ابن أبي عامر هذه الفرصة ودس الى أهل « بياسة » من أفهاءهم انهم سوف يجدون فى الحكومة انصافا لهم واستماعا لشكواهم ان هم رفعوها اليها ، فلم يترددوا عن الاقدام على ذلك ، وفعلوا الذى أوحى به اليهم واذا ذاك صدر أمر خليفى للدرى بالتوجه الى دار الوزارة لمواجهة مواليه فلمبى الأمر لكنسه ما كاد يصل الى هناك حتى هاله ما أبصر من العسكر الكثير ، وتبين الشر فى وجوه القوم فأراد الرجوع سالما فمنعه ابن أبي عامر وأمسكه من رقبتة ، وجرت مشادة بينهما جذب فيها الدرى ابن أبي عامر من لحيته فدعى ابن أبي عامر الحند لنجدته ولكنهم لم يتحركوا احتراما منهم للدرى .

أما بنو برزال الذين لم يكن عندهم مثل هذا التوقير له فقد هطعوا
مسرعين للنداء وأمسكوا بالدري وضربوه ضربا موجعا ، وأطارت ضربة
سيف رأسه فبادروا بحمله الى مخدعه حتى يطلع الصباح .

على أن الوزيرين توجسا شرا جسيما من جانب الصقالبة (١٦)
وأدركا أنهما غير قادرين على دفعه ، ومن ثم شرعا في الحال في تدبير
خطة حاسمة اذ بعثا الى فائق وأصدقائه أمرا خليفيا بمغادرة القصر ،
على أن يستدعيا بعد ذلك للتحقيق في شأن خيانتهم ، وحكم عليهم
يديات ضخمة جدا .

كان فائق معدودا أخطر الجميع وكان لا يزال شديد البأس ، لكنه
لم يلبث أن مات بعد قليل من نفيه الى إحدى جزر البليار .

أما الخصيان الذين كانوا دونه خطرا فقد ظلوا في وظائفهم ، وتقلد
أمر القصر والخدم واحد منهم اسمه « سكر » .

وعلى الرغم من أن الدافع على هذه الاجراءات كان الصالح الشخصي
الا أنه رفع ابن أبي عامر والمصحفي في أعين العامة وقربهما منها وذلك
لشدة كراهية أهل قرطبة للصقالبة (١٧) الذين كانوا قد أسرفوا في إيذاء
الناس بصورة تمنى لهم الناس فيها الهلاك (١٨) .

زد على ذلك أن الحكومة - من ناحية أخرى - أثارت هممة قوية
بتقاعدها تجاه نصارى الشمال الذين رأيناهم يعاودون العداء وقت أن كان
الحكم الثانى (المستنصر) نهب المرض ، وبلغت الجرأة بهم أن طرقت
حملاتهم أبواب قرطبة ، ولم يكن المصحفي يعوزه المال ولا الرجال ، لكن
كانت تنقصه الدراية بشئونه فسكت عن الدفاع عن البلد سكوتا أزعج
السلطانة صبيحا لما جره ذلك من تقدم المسيحيين وغضب الأندلسيين ،
ففرغت الى ابن أبي عامر وأسرت اليه بمخاوفها ، وكان هو قد أسخطه منذ
وقت بعيد تهاون رفيقه وعجزه عن تصريف الأمور ، لكن ابن أبي عامر
طمأن خاطر السلطانة مؤكدا لها أنه واثق من ضرب العدو لو كان في يده
المال وقيادة الجيش (١٩) .

ولما فرغ من حديثه هذا صارع رفيقه بأن الأمر سيفلت من يده عما
قريب من جراء تهاونه وتقاعده ، وأن الواجب ومصلحته الذاتية يحتمان عليه
القيام بعمل حاسم في الحال ، فلما تبين المصحفي مكانة الصدق في كلامه
جمع كبار الرجال وأشار بانفاذ جيش لمحاربة النصارى فاستصوب معظمهم

الأمر وعارضه نفر قليل ، لكن الذي شغلهم جميعا على وجه الخصوص هو موضوع قيادة الجيش ، فقال ابن أبي عامر :

« أبادر اليه على أن أختار من يخرج معي من الرجال ، وأتجهز لغزوة بمائة ألف دينار » .

فاستكثر أحدهم ذلك القدر من المال فرد عليه ابن أبي عامر قائلا :
« خذ ضعفها وامض وليحسن غناؤك » .

فأفحمه كلامه فوجم ولاذ بالصمت ، ثم اتفقت الكلمة على تسليم الى ابن أبي عامر وتجهيزه بما يحتاج اليه من المال .
واذ ذاك أخذ في اختيار من يصحبه من خيرة قوات الدولة ، ونهض بحملته في شهر فبراير ٩٧٧ م [= ٣ من رجب سنة ٣٦٦ هـ] وعبر الحدود وحاصر قلعة « لوس بانينوس » (٢٠) المعروفة بحصن الحامة وهي إحدى القلاع التي أعاد ترميمها راميرو الثاني بعد انتصاره العظيم في شلمنقة . ونجحت الحملة ودانت الناحية لابن أبي عامر فأصاب منها غنيمة ضخمة ثم انكفأ عائدا الى قرطبة في منتصف إبريل [رمضان] ومعه أسرى كثيرون .

على الرغم من تفاهة هذه الغزوة الا أنها أدت بطبيعة الحال الى موجة من الفرح الشامل اجتاحت العاصمة التي كانت ترقب الأمور دون أن تميل الى هذا وذاك ، وحق لها أن تفرح فقد أصبح الجيش الاسلامي لأول مرة مهاجما ولقن العدو درسا قاسيا حتى لايعاود التفكير في ازعاج بال القرطبيين وهو أمر لم يكن بالتافه الضئيل في أعينهم ، ولم يكونوا يطلبون اذ ذاك فوق الذي أدركوه .

لكنهم اذا كانوا قد بالغوا في تقدير النجاح الذي أتيح لهم فانه من المستحيل تجاهل الأهمية الكبرى التي تمخضت عنها هذه الحملة بالنسبة الى ابن أبي عامر نفسه الذي أسرف في بذل ما عنده من المال بقصد المدد .

لقد بسط ابن أبي عامر يده طوال فترة الحملة فوسعت مائدته كل وافد عليه رغبة منه في استجلاب محبة الجيش (٢١) الذي ربما لم يكن واثقا تمام الثقة من ذلك القاضي يتولى قيادته الحربية ، ولكن نجحت خطته كل النجاح واطمأن الضباط والعسكر الى بشاشة ذلك الوزير وكرمه والى مهارة طبائخه ، ومن ثم استطاع فيما بعد الاعتماد على اخلاصهم لقاء ابقائه على مكافأتهم لخدماتهم ، فكانوا له الجسد وكانوا له الروح (٢٢) .

الفصل الثامن

أصل المصحفي • سوء سياسته خوفاً من غالب صاحب
الثغر الأعلى • ابن أبي عامر ينس بين الرجلين ويحظى
بالتقدير عند كل منهما • انتصار ابن أبي عامر حريياً والره •
الخليفة يخلق المصحفي ويحل ابن أبي عامر مكانه • المصحفي
يسعى لمصالحة غالب فيفسد ابن أبي عامر عليه سعيه ، ويتزوج
من أسماء بنت غالب التي يلقب بذي الوزارتين • تدهور
نفوذ المصحفي والقبض عليه وعلى أهله • محاكمته ومصادرة
أمواله والتطاول عليه •

الفصل الثامن

تضارب تلوث المصحفي وابن أبي عامر

كان نجم المصحفي يتضاءل كلما ازداد نجم ابن أبي عامر في التأليف والسطوع ، ذلك أن المصحفي كان قليل الكفاءة ، وضيق المنبت ، وكان أبوه بربريا من إقليم بلنسية اختير لتأديب الحكم فرعى له الحكم فلك فآدنى إليه ابنه منذ الصغر وحياء بعطفه وتقديره وزاد في تقديره في عينيه ما لديه من المواهب ، فقد كان أديبا وشاعرا حسن الخط (١) .

استكتبه الحكم أولا ثم جعله مديرا للشرطة فحاكما لجزيرة مبروقة ثم استوزره (٢) لكنه لم يوفق أيديا في تكوين أصدقاء له إذ كان مطبوعا على تجيير المحدث النعمة ، كما أن غطرسته غير المحتملة جرحت كبرياء الأشراف الذين كانوا يحتقرونه .

والظاهر أنه لما تقلد الوزارة أراد تدارك هذه الهفوة لكنه سرعان ما عاد إليها وإلى ما كان عليه من تجبير (٣) ، كما أن عدله بين الناس كان موضع ريبة وهو عيب شائع لم يسلم منه غير قلة من الموظفين ، وربما كان القوم يتجاوزون عن اختلاساته الضخمة لو تقاسمها مع سواء بيد أنه احتجن كل شيء لنفسه : الأمر الذي لم يغفره له أحد قط (٤) ، وأخذ عليه الناس استعماله أقاربه في إدارة دفة الأمور ووضع المناصب الهامة في يد أبنائه وأخوته (٥) . وقصارى القول أنه كانت تعوزة صفات الرجل السياسي ، كما كانت تبهم عليه المسالك إذا خرجت الأمور التي يعالجها عن الأسلوب المألوف فلا يعرف إذ ذاك ما يبرم منها وما ينقض ، فكان هناك رجال يفكرون له وينفذون الخطط ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتوجه بالسؤال إلى ابن أبي عامر .

لكن هل كان ابن أبي عامر يرضى أن يظل قائما طول المدى بدور الاخلاص والمشورة الذي يبتغيه المصحفي ؟

لقد شك أهل البصيرة في ذلك ، وأحسوا احساسا صادقا أن قد دنت
اللحظة التي يوشك فيها ابن أبي عامر أن يتقلد الوزارة حين عزم على إسقاط
المصحفي ، نشط لذلك مستعينا بالكتمان وإن لم يتبدل ظاهر مسلكه
إزاء صاحبه وزميله بل استمر على اظهار نفس الاحترام الذي كان
يظهره له فيما مضى ، ولكن أبطن مخالفته في كل شيء ، ولم يكن يدع
فرصة تمر دون أن يوجه نظر صبح عدم صلاحية المصحفي وبيان
أخطائه (٦) . كل ذلك والمصحفي لا يشك فيه ولا يرى فيه ما يثير
مخاوفه بل يحسبه أوقى الأصدقاء له .

أما قاذف الرعب في قلبه فهو غالب صاحب الثغر الأدنى الذي كان
نفوذه عظيما جدا على الجند (٧) ، والواقع أنه كان يحقد على المصحفي
ويزدريه ولم يحاول أن يخفي ازدرائه إياه ، زد على ذلك أن أكالييل
الفخر كانت تجلل هامته لما خاضه من المارك الحمة ، فلا عجب أن غاظه
أن يتولى الوزارة تكرة لم يسبق له أبدا أن جرد الحسام ، ومن ثم ذهب
للقول بأن هذه المرتبة إنما هي له (وليست للمصحفي) وأنه أحق
بها منه .

أما من الناحية النظرية فقد كان غالب خاضعا للمصحفي واستطاع
بخطته الماكرة أن يفهم الحكومة عدم تمكنها من الاعتماد عليه ، ذلك أنه
لم يستعمل الشدة في محاربة النصاري منذ موت الحكم مما يخالف تمام
المخالفة ما عرف عنه من العنف والحمية ، ومع أنه لم يجاهر بالثورة
ولم يطلب من النصاري مساعدتهم إياه إلا أن سلوكه فتح مجالا للظن
بأن هذه الأمور واقعة عما قريب ، وفي هذه الحال يكون سقوط الوزير
أمرا لا مفر منه ، إذ كيف يكون في قدرة المصحفي مقاومة أحسن قائد في
الدولة وأمهر قوادها الذين قد ينضم اليهم أهل قشستالة
وليون ، ومن ثم فإن أعداء المصحفي الكثيرين كانوا لا يحجمون عن اغتنام
أول مصيبة تصيبه لخلعه من وظيفته وتجريده من ثروته بل والفتك به
أيضا .

لم يكن المصحفي من الغباء بالدرجة التي تعميه عن رؤية الخطر
الذي يهدد ، وفي وسط هذا الغم سأل وزراء المشورة لاسيما ابن أبي عامر
فكان الجواب أن لابد له من أن يخطب ود غالب بأى ثمن فأقر هذا الجواب ،
وكان ابن أبي عامر الوسيط في ذلك فقال له إن الحملة الخارجة للفتح
تقدم الفرصة لمفاوضة حاكم الثغر الأدنى على شروط المودعة التي ينشدها
المصحفي .

كانت هذه هي أقوال ابن أبي عامر .

لكنه كان يسعى لأمر جله هدفه الأكبر غير مبال بالخطأ التي ينتهجها لتحقيق أطماعه ، فهو لم يعمل على تهدئة ما بين الخصمين بل كان يفكر فيما يزيد الجفوة بينهما شدة والهوة اتساعا ، وراح يتصرف بما تمليه عليه ظروف لحظته ثقة منه بوقوف المصحفي الى جانبه وتأييده لمصالحه ، فكان يشنى - أمام صبيح - الثناء الجميل على غالب ومواهبه العالية ، ومضى يكرر في كل لحظة أن المرء لا يستطيع أن ينسى أعمال هذا القائد وأنه يجب السعي لضمه الى جانبها بتلقيبه بلقب يفوق كل الألقاب التي نالها .

وأنت حيل ابن أبي عامر أكلها فرقى غالب - بفضل نفوذ صبيح - ولقب بذى الوزارتين (٨) ، وألقيت اليه قيادة جيش الحدود ، ولم يعارض المصحفي هذه الفكرة وسرعان ما بادر الى تحقيقها تصديقا منه لقول ابن أبي عامر انها أول خطوة في سبيل الوفاق بينهما .

وفي الثالث والعشرين من مايو (أول شعبان ٣٦٦ هـ) - أعنى بعد شهر واحد فقط من العودة الى قرطبة قام ابن أبي عامر - وقد وكل اليه تدبير جيش الحضرة - بحملته الثانية ، والتقى غالب في مجريط وأقام على خدمته مظهرا له الأكرام والامتنال لأوامره ، واستماله اليه بما حدثه به من اعتباره المصحفي غير أهل أبدا لما في يده ، وسرعان ما قام تحالف قوى بين القائدين اتفقا فيه على إسقاط المصحفي ، ثم عبرا الحدود وتم الاستيلاء على حصن « موله » (٩) فاصابا كثيرا من السبي والغنيمة ، وانتهت الحملة ، وأخذ كل واحد يستعد لمفارقة صاحبه ، وحينذاك قال غالب لصديقه الجديد :

« سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل حتى ليشغل الناس السرور عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فاياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها أنت منه » (١٠) .

فوعده ابن أبي عامر باتباع هذه الوصية ثم انطلق في طريقه ميمما وجهه شطر قرطبة ، أما غالب فقد عاد الى مقر ولايته .

والواقع أن فخر هذه الحملة يعود الى غالب فهو الذي دبرها ورسم جميع خططها ، وما كان ابن أبي عامر غير تابع له في تنفيذها حرييا ، كما كان حريصا على ألا يعارض أبدا قائدا مدربا كهذا القائد الذي تمرس بشئون الحرب ورضع أفوايقها .

ولما كان غالب في الوقت ذاته يرمى الى تضخيم شأن حليفه الصغير لأنه كان ينظر الى الامور من ناحية أخرى فقد يادر بالكتابة الى الخليفة منبثا اياه بما جاء به ابن أبي عامر من الأعاجيب ونسب اليه وحده الفضل فيما حازه العسكر من انتصارات باهرة ، وان الواجب يقضى أن يكافأ مكافأة قيمة •

جاء هذا الخطاب الذي تسلمه البلاط قبل عودة ابن أبي عامر بخير النتائج ، مما ترتب عليه أن وكلت اليه شئون العاصمة بدلا من المصحفي ، اذ كيف يتأتى لأحد ما أن يرفض مثل هذا الطلب لقائد رده المغير مرة ثانية •

ولم يقتصر الأمر على أن يكون غالب وحده مصدر الثناء على ابن أبي عامر بل امتدح أبطال هذه الحرب جميعهم كفاءة العامري ومواهبه •

أضف الى هذا أنه لم يكن في استطلاعة المصحفي أن يرقى الى ما رقى اليه لولا نفوذ أبيه ، واذا خيلنا جانبا سلوكه الشخصي فان المصحفي برهن على عدم أهليته لما نيط به (١١) ، والواقع أنه كان شديد الجشع الى درجة أن الرشوة التافهة كانت كافية لدفعه الى اغماض عينيه عن كل شيء وعن أفظع الجرائم ، ولقد صدق الناس فيما قالوه من انه لم يعد للشرطة وجود في قرطبة فاندفع اللصوص - سواء أكانوا من علية الناس أم سفلتهم - الى السلب ، وأصبح الناس يسهرون لياليهم مخافة أن يصابوا وهم في دورهم بمن يقتحمها عليهم قاتلا أو سارقا ، وقصارى القول أن سكان أي مدينة من مدن الحدود كانوا أكثر أمنا واطمئنانا على نفوسهم من سكان البلد الذي يقيم فيه الخليفة •

عاد ابن أبي عامر يحمل أمر التولية ويرفل في رداء الشرف الذي خلع عليه ، وقصد توا الى مقر الرياسة فوجد محمد بن المصحفي جالسا تحوطه مظاهر الأبهة الجديرة بمن هو في مكانته ، فأطلعه على أمر الخليفة وأخبره أن في استطاعته الانصراف ، فأنصرف حزينا وأطاعه مهموما •

لم يكد ابن أبي عامر يستقر في عمله الجديد حتى اتخذ جميع الاجراءات العظيمة لاقرار الأمن في العاصمة ونشر الطمأنينة ، فأفهم الشرطة أنه سوف يضرب بيد من حديد لا تعرف الرحمة كل من تحدثه نفسه بالشر ، لا ينظر في توقيع العقوبة الى مكانته ، وهدم بأقصى ضروب الشدة والعنف ان مدوا أيديهم للرشوة ، فلما أذكوا مكانة الصدق في قوله وأيقنوا صلابة عوده وتأكد لديهم أنه متعقبهم بعينه النفاذة اهنموا

بأداء واجباتهم ، وسرعان ما تبينت العاصمة أثر ذلك بعد فترة وجيزة ، فقلت السرفات قلة واضحة ، وندر الاغتيال ندرة بالغة واستقر النظام واستتب الأمن بعد غياب ، وأمن الناس على نفوسهم فناموا هادئين وعين الشرطة لانتام عن رعايتهم . وضرب ابن أبى عامر لهم مثلاً حياً فى أنه كان جاداً كل الجد حين قال انه لن يرفق بأحد ما ، فقد ارتكب ابنه جرماً ووقع فى أيدي الشرطة فأمر أبوه بجلده ، وما لبث هذا الشاب أن مات بعد قليل من توقيع الجدل عليه .

وانحسرت الغشاوة عن عيني المصحفى ، ذلك أن خلع ابنه الذى تم فى غيبته وبغير مشورته لم يترك له مجالاً للشك فى رياء ابن أبى عامر . لكن ما الذى يستطيع أن يفعله لمحاربته ؟ .

لقد أصبح خصمه أشد قوة منه وأعظم شكيمة إذ كان يستطيع الاعتماد على السلطنة التى يقال انه كان عشيقها ، كما كان يستطيع الاعتماد على العائلات الكبيرة التى ترتبط بالأمويين برباط الولاء ، وهى الأسر التى ورث فيها الأبناء عن الآباء وظائف البلاط ، والتى تؤثر أن ترى على رأس الدولة رجلاً من بيت عريق النسب (١٢) ، يستطيع الاعتماد على الجيش الذى أخذ ميله إليه يزداد شيئاً فشيئاً ، كما يستطيع الثقة بسكان العاصمة الذين شكروا يده عليهم فى إعادة الأمن الى نصابه . فهل يستطيع المصحفى مقاومة ذلك كله ؟ كلا !!

والسبب فى ذلك أنه لم يكن يعتمد الا على أفراد قليلين ربطوا أنفسهم بمصيره وربط هو نفسه بهم ، ومع هذا فهو لا يستطيع الاعتماد كثيراً على تأييدهم له ، وهكذا كان الصراع بين طرفين غير متكافئين ، أعنى بهما العبقريّة والذكاء الضحل ، ولقد عرف المصحفى ذلك ، وعرف أن لم يعد له غير سبيل واحد للأمان هو التودد الى غالب مهما كلفه ذلك الأمر من ثمن .

كاتب [المصحفى غالباً] وأسرف فى بذل العهود الزاهية له وهى عهود تشبّاقها النفس ، وأراد تدعيم تحالفهما فخطب ابنته أسماء لابنه عثمان ، وجازت الحيلة على القائد وتناسى حقه على الوزير وقبل عروضه ووافق على الزواج المقترح ، وبادر المصحفى الى اتمام عقد الزواج ، فلما علم ابن أبى عامر بكل هذه المكائد التى تفسد عليه جميع مشاريعه بادر الى العمل بكل ما وسعه الجهد لاحباط خطط زميله وافساد مشاريعه ، فحث ذوى النفوذ من رجال البلاط على تأييده فأجابوه وكتبوا الى غالب لافساد ما أراده المصحفى ، كما كتب ابن أبى عامر الى غالب يقول له

إن المصحفي ينصب الشراك لضربه ، ويحيى في نفسه جميع الأحقاد المترسبة في صدره ضد هذا الوزير ، ورجاه أن يبقى على الوفاء على عهوده التي قطعها على نفسه في الحملة الأخيرة .

أما عن الزواج المقترح فقد قال انه ان يرد لابنته رجلا شريفا فها يجوز أن يزفها الى رجل محدث نعمة ، لكن اليه هو ذاته ، يقصد بذلك ابن أبي عامر نفسه .

آمن غالب بأنه كان مخدوعا في المصحفي فأفهمه أن يعتبر الزواج الذي يتباحثون فيه غير ذي موضوع ، وما وافى شهر أغسطس أو سبتمبر ٩٧٧ م (= محرم ٣٦٧ هـ) حتى عقد عقد جديد زفت به أسماء الى ابن أبي عامر .

* * *

ما وافى يوم ٨ سبتمبر حتى نهض ابن أبي عامر بحملة جديدة زحف بها الى طليطلة وضم قواته الى قوات حميه الجديد ، وافتتحا حصنين من حصون النصراري وبعض ضواحي شلمنقة ، ثم عاد فلقب بذي الوزارتين ، ورفع راتبه الى ثمانين دينارا في الشهر ، ولم يكن الحاجب يتناول أكثر من هذا المرتب .

وفي الموعد المضروب لعقد الزواج قام الخليفة - أو بمعنى أدق أمه التي لم يظهر عليها شيء من الغيرة رغم ما كان يتقوله القوم من أنها عشيقة المنصور ، وأرسل الخليفة الى غالب يستدعيه للحضور الى قرطبة مع ابنته أسماء ، فلما قدم أكرمت وفادته وأضاف الى ألقابه لقب « ذي الوزارتين » وهو نفس لقب الحاجب (١٣) . الذي كان حتى هذه اللحظة للمصحفي وحده ، فكان جمع غالب لهذين اللقبين جاعلا إياه أكبر رجال الدولة ، وغدت له الصدارة في الاحتفالات ، فكان يجلس والى يمينه المصحفي ، وابن أبي عامر الى يساره (١٤) .

وافق زواج ابن أبي عامر من أسماء بنت غالب عيد رأس السنة الميلادية الذي كان المسلمون يشاركون فيه أيضا ، وتحمل الخليفة نفقات العرس لها ، وكانت الموائد بالغة الأبهة ، ولم يسبق للقرطبيين أن رأوا مثل هذا الموكب الفخم الذي أحاط بالعروس أسماء حين غادرت القصر الخلفي ميممة قصر زوجها .

وأيا كان الدافع له على هذا الزواج فقد كان زواجا موفقا ، اذ كانت أسماء فتاة مهذبة بارعة الجمال استولت على فؤاد زوجها الذي كان يؤثرها على نسائه الأخريات .

أدرك المصحفي - منذ أن رد غالب طلبه - أنه مشرف على الضياع ووجد نفسه منبوذاً قد انفض عنه جميع صنائعه والتفوا حول خصمه يحرقون البخور بين يديه وهم الذين كانوا يرون الشرف كل الشرف في مصاحبته إذا مشى إلى القصر ، أما اليوم فإنه يغدو إليه حين يغدو إليه وحيداً لا رفيق له ، وتلاشت سطوته ، وأصبحت الأمور - جليلها وصغيرها - تدبر من غير علمه ، وهكذا رأى هذا الشيخ التعس اقتراب العاصفة فانتظرها في صبر وإن كان كارهاً لها ، ثم وقعت النكبة المروعة أسرع مما كان ينتظر ففي يوم الاثنين ٢٦ مارس ٩٧٨ م [رجب ٣٦٧ هـ] (١٥) صرف هو وأبناؤه وأبناء أخوته عن كل ما بيدهم من الوظائف والأعمال ، وصدر الأمر بالقاء القبض عليهم والتحوط على أملاكهم حتى تثبت براءتهم من الاختلاس الذي رموا به (١٦) .

وعلى الرغم من أن هذا الحادث لم يكن مفاجئاً للمصحفي إلا أنه كان ذا أثر كبير ووقع شديد على نفسه فقد تأثر كل التأثر فأرقه ضميره الذي أثقلته وضايقته المظالم التي ارتكبها خلال حياته الطويلة ، فلما أخذ في توديع أسرته قال لها : « هذا وقت إجابة الدعوة ، وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة » ، فلما سألوه عما يعنيه من قوله العجيب هذا قال لهم :

« رفع على أحدهم أيام عبد الرحمن وسعى به إلى فأشرفت على أعماله ، قال أمره إلى ضربه وتغير نعمته وإطالة حبسه ، فبينما أنا قائم ذات ليلة إذ أتاني آت فقال لي : أطلق فلانا فقد أجيبته دعوته فيك ، ولهذا أمر أنت لا بد ملاقيه ، فانتبهت مذعوراً واحضرت الرجل وسألته إحلائي فامتنع علي ، فاستحلفتني على إعلامي بما خصني به من الدعاء فقال : نعم ، دعوت الله أن يميتك في أضيق السجون كما أعمرتني حقه ، فعلمت أنه قد وجبت دعوته ، وندمت حيث لا ينفع الندم ، وأطلقت الرجل ولم أزل أرتقب ذلك » (١٧) .

سبق المتهمون إلى سجن الزهراء وبها سجن الحكومة ، وكان القائد هشام المصحفي ابن أخى الوزير قد أذى ابن أبى عامر لما ناله من الفخر بانتصاراته في الحملة الأخيرة ، لذلك كان هشام أول ضحية لغضب هذا الرجل القوى ، فما كاد يبلغ المطبق حتى قتل (١٨) .

ووقف المصحفي أمام مجلس الدولة فحاكموه محاكمة طال أمدها ولم تعوزهم الأدلة على إدانته ورميه بالاختلاس أيام وزارته ، وقضوا بمصادرة أملاكه ، وبيع قصره الفخم بضاحية الرصافة (١٩) بالمزاد ، وانهالت الاتهامات بعضها على بعض عليه واستمع إليها الوزراء الذين أُرشدوا !-ترب إلى ابن أبى عامر ، ورمى المصحفي بكل جريرة ، فاستصفوا

كل ما ملكته يمينه ، ومع ذلك لم يسلم من التشديد عليه والمضايقة
يلقاها من جانب كبار رجال المحاكمة الذين كانوا يظنون أن لازال
عنده شيء (٢٠) .

ولما وقف آخر مرة أمام قضاته كان تقدم السن وطول الحبس
وشدة الغم قد تعاونت كلها في الحط من قواه حتى كاد أن يعجز عن قطع
المسافة من الزهراء الى حيث كان قضاته ، كل ذلك وحارسه لا ينف عن
الشدة عليه وحثه على الاسراع حتى لا يطول انتظار المجلس له ، واذ ذاك
قال له الشيخ العجوز : « رفقا بى يا بنى فستدرك ما تحبه وتشتهيه ،
ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من قد أطال عليه خومه » ،
ثم أنشد (٢١) :

لا تأمنن من الزمان تقلباً ان الزمان بأهله يتقلب
ولقد رآنى والليوث تخافنى وأخافنى من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مذلة ومهانة ألا يزال الى تميم يطلب (٢٢)

فلما دخل على قضاته انتحى زاوية من المجلس دون أن يحيى أحداً
منهم ، فصاح به الوزير محمد بن حفص بن جابر الذى كان يتودد الى
ابن أبى عامر ويتزلف اليه : « بشس الأدب لأدبك ، أما خييت !! » فلم يقل
المصحفى شيئاً ولازم الصمت .

فعاد ابن حفص يلومه ويعنفه فقال له المصحفى : « يا هذا جهلت
المبرة فاستجهلت صانعها ، وكفرت اليد فقصدت الأذى ولم ترهيب
مقدمها ، ولو أتيت نكرا لكان غيرك أدرى .. لقد نسيت الأيادى الجميلة
والمبرات الجليلة » .

فبهت ابن حفص لهذه العبارة لكنه سرعان ما تمالك نفسه وقال :
« هذا هو البهت بعينه ، وأى أياديك الغر مننت بها ؟ » .

ثم أخذ يعدد له أموراً أنكرها عليه فلما فرغ من كلامه رد عليه
المصحفى قائلاً : « هذا ما لا يعرف ، وألحق الذى لا يرد ولا يصرف رفعى
القطع عن يمينك ، وتبليغى لك الى منك » .

فأقسم محمد بن حفص على بطلان هذه التهمة ، فانفجر الشيخ
غاضباً وقال : « أنشد الله من له علم بما أذكر الا اعترف به فلا ينكره » .
فقال الوزير ابن عياش : « قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسنين ،
وغيرك أولى بك وأنت قيما أنت فيه من محنتك وطلبك » .

فقال المصحفي : « أخرجني الرجل فتكلمت ، وأجوجني الى ما به أعلمت » .

وكان هناك وزير آخر هو ابن جهور حاضرا المجلس يستمع النقاش في تقزز لم يخفه ، وعلى الرغم من كراهيته للمصحفي وسعيه في اهلاكه إلا انه عرف أنه ينبغي على المرء أن يرضى حرمة خصمه لاسيما اذا استدل ، وكان ابن جهور من أسرة قديمة بارزة كأسرة الحاكم نفسه فتكلم وقال لابن جابر في صوت صاحب السلطة الذي ينطقه طول ممارسته اياها : « أو ما علمت يا ابن جابر أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه ان فعل ألزمهم الرد ، فان فعلوا أحاق بهم من سخط السلطان ما يخشى ويخاف ، وان تركوا الرد أسخطوا الله وتركوا ما أمر به الله تعالى (٢٣) فصار الامساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن » ، فخجل محمد بن حفص بن جابر من هذا الدرس القاسي واعتصم بالصمت ، بينما ارتسمت فرحة باهتة في عيني الشيخ التعس .

وتابع القوم محاكمتهم اياه وراحوا يكيلون له كل جديد من التهم ليسلبوه كل ما لديه فصاح بهم : « والله قد استنفدت ما عندي من الطارف والتلبد ، ولا مطمع لي في درهم ، ولو قطعت أربا أربا » .
فتركوه وأمروا بصرفه الى محبسه (٢٤) .

أخذ المصحفي منذ هذا الوقت يتنقل بين الحرية والأسر ، لكنه كان تعيسا في كلا الحالين ، وبدى ابن أبي عامر وكأنه يستأنس بازعاجه ويرتاح الى مضايقته ، وانه لمن الصعب على انسان أن يفسر الكراهية الشديدة التي أبدتها تجاه هذا الرجل العادي الذي لم يعد له شيء من الحول ولا القوة ، وانما كل ما يمكن به تبرير هذا المسلك أنه لم يسامحه على الجريمة التي اضطره الى ارتكابها وهي قتله المغيرة .

ومهما يكن الأمر فقد كان يستصعبه معه أنى ذهب دون أن يعطيه ضرورياته القصوى .

وقد قص أحد كتابه أنه رأى المصحفي أثناء إحدى الحملات واقدا بالليل قرب فسطاط سيده وابنه عثمان الى جانبه يسقيه خليطا من الدقيق والماء العكر (٢٥) ، وهو كل ما تمكن عثمان من الحصول عليه .
لقد أمضى الأسى المصحفي وأضعفه اليأس فنفس عن آله وشحوته بقصائد رقيقة رائعة النسيج ، بديعة الديباج ، ومع أنه قال ذات يوم لحارسه انه يتشهى الموت الا أنه كان شديد التعلق بالحياة .

وكما كانت تنقصه رجاحة العقل والشجاعة أيام حكمه فقد كانت تعوزه كذلك الكرامة أيام محنته ، فقد كان يسعى لاستعطاف (٢٦) « الثعلب » سعياً نزل به الى أحقر الأساليب ، وحدث ذات مرة أن توسل الى ابن أبي عامر أن يكل اليه تأديب أولاده ، ولم يكن المنصور ليتصور أن المرء قد تهون عليه كرامته فيتدنى الى هذا الدرك ، وظن أن المصحفي يريد الاحتيال عليه وقال : « ان هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأوني بدهليزه خادماً ومسلماً ، فكيف يروونه الآن بدهليزى معلماً » (٢٧) .

ظل المصحفي خمس سنوات يحيا حياة محزنة قاسية ، فلما ظهر تشبثه بالعيش رغم تقدم العمر وراوا ما ألم به من النكبات الكثيرة ، وعرفوا فيه كراهيته للموت أوردوه هم حياض الردى فقتلوه خنقا أو سما اذ لم يتفق الكتاب العرب على الصورة التي مات بها (٢٨) ، فلمسا علم ابن أبي عامر بهلاك خصمه العجوز عهد الى اثنين من عماله بدفنه ، كان أحدهما كاتبه (٢٩) محمد بن اسماعيل الذي قص لنا الحادث كما شاهده . فقال :

« نظرت اليه ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به ، فدعى له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله - والله - على فرد باب اقتلع من ناحية الدار ، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه الى قبره وما معنا الا امام المسجد المستدعي للصلاة ، وما تجاسر أحد على النظر اليه ، وان لي في خبره لشأنا ما سمع بمثله طالب وعظ ، ولا وقع في مسمع ولا تصور لحظ ، وقفت للمصحفي في طريقه أيام تهيئه وأمره ، أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه ، وكثرة من حف به ، وأخذ الناس السكك وأقواء الطرق عليه ينظرون اليه ويسلمون عليه ، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نصبهم على جناحي موكبة لأخذ القصص . » وانصرفت ونفسي من الشرق بحاله والغصص » (٣٠) .

الفصل التاسع

ظهور ابن أبي عامر واستبداده بالأمر • الصقالبة يدبرون
ما يشينه ويقدر في السلطنة صبح • جوذر الحصى يتآمر على
قتل هشام بن الحكم لكنه يفشل • تحديد إقامة الشاعر
الرمادي المتآمر • الغيرة من ابن أبي عامر • حركة مناهضة
الفلسفة وكتبها • محاولة واد ملكات هشام • انشاء مدينة
الزاهرة شرقى قرطبة • منع هشام من تصريف أمور الدولة •
ابن أبي عامر ينظم الجيش • تفكيره في التخلص من غالب •
بلجين الفاطمي • الاكثار من البربر في الجيش الأندلسي •
استخدام النصارى فيه • مصرع غالب • الزحف على ليون •
تلقيب ابن أبي عامر بالنصور • فتكه بجعفر أمير زاب •

الفصل التاسع

ابن أبي عامر صاحب الأمر في الحكومة

رفع ابن أبي عامر الى مرتبة الحجابة (١) يوم عزل المصحفي والقبض عليه ، ومنذ ذلك اليوم أخذ هو وحموه (٢) يتقاسمان السلطة العليا فيما بينهما ، وبلغ هو من القوة درجة خيل للناس معها أن ليس هناك أحد يقادر على مقاومته ولكنه قووم اذ كانت لا تزال في الوجود تلك الجماعة التي كانت تود أن تستوق الخلافة الى رجل آخر غير هشام بن الحكم الثاني ، وكان جوذر هو روح تلك الجماعة ومحركها ، وذاعت أشعار الهجاء التي كان الناس يتناشدونها في شوارع قرطبة تحت سمع الشرطة ، ولم يكن ابن أبي عامر ليتسامح أبدا في اتفه كلمة تشير الى أي اتصال قد يكون بينه وبين السلطانة حتى لقد أعدم مغنية دفعها سيدها - ترغيبا للوزير في شرائها - الى انشاد أغنية تتغنى فيها بصبح (٣) .

على ان الناس كانوا ينشدون في ذلك الوقت نفسه في شوارع البلد أمثال هذا الشعر :

اقترب الوعد وكان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب وأمه (٤)

ولو اقتصر الأمر على النيل من البلاط لما كان الخطر جسيما ، لكن جوذر جرؤ على الذهاب الى أبعد من ذلك حين اتفق مع القاضي عبد الملك بن المنذر على تدبير مؤامرة ترمي الى قتل الخليفة الشاب واحلال طفل صغير مكانه من أحفاد عبد الرحمن الناصر يعرف بعبد الرحمن بن عبيد الله ، وساهم في هذه المؤامرة نفر من القضاة والفقهاء والأدباء من بينهم الشاعر الأندلسي الأملح الرمادي (٥) الذي كان يحقد على ابن أبي عامر حقدا مريرا لصداقة خالصة بينه وبين المصحفي ، كما كان أحد الرجال القلائل الذين ظلوا على الولاء له حتى بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، فكان صدره يضطرم بالرغبة الملحة في الثأر له ، ومن ثم أرسل هنجوه في ابن أبي عامر شعرا لاذعا قاذعا (٦) .

اعتمد المتآمرون فى نجاح مشروعهم على مشاركة الوزير زياد بن أفلح لهم وهو الذى كان يشغل اذ ذاك ولاية الشرطة بالعاصمة ، فاتفقوا معه على الساعة واليوم اللذين ينفذون فيهما خطتهم ، ووكلوا أمر قتل الخليفة (الصغير هشام بن الحكم) الى جوذر الذى وان لم يعد من رجال البلاط الا أن مكانته السابقة كانت تبيح له الدخول على الخليفة ، واتفق شركاء الجريمة على استخلاف عبد الرحمن (بن عبيد الله بن الناصر لدين الله) حالما يفرغون من الفتك بالخليفة هشام .

فلما وافى اليوم المضروب لهذا الجرم غادر زياد بن أفلح القصر الخلفى عائدا الى مسكنه الواقع فى أقصى المدينة مستصحبا معه جميع رجاله ، وطلب جوذر الأذن بالثول بين يدي الخليفة فناله ، فلما كان فى حضرته استل خنجره وهم بطعنه لولا أن تداركه أحد الحرس واسمه (أحمد بن محمد) بن عروس وكان بالبهو اذ رمى بنفسه على القاتل وحال بينه وبين اتمام فعلته ، ونشب بينهما عراك تمزقت خلاله ثياب جوذر ، فاستعان ابن عروس بالحرس فهبوا مهطعين وأمسكوا بالخصى ، فلما سمع ابن أفلح بفشل المؤامرة بادر بالقدوم الى القصر فلامه ابن عروس على ثقاقله وصارحه بوثوقه من أن له يدا فى الجريمة التى كان يراد ارتكابها ، لكنه أخذ يبرىء ساحته محتجا باخلاصه للسلطان ، وأراد دفع الشكوك التى حامت حوله فألقى القبض فى ساعته على المشتبه فيهم (٧) ، وفيهم جوذر نفسه وزج بهم فى سجن الزهراء .

واقتيده المتآمرون الى المحاكمة ولم يلبث أن صدر الحكم بادانة كبيرهم ، لكن القضاة لم يبينوا على وجه التحديد نوع القصاص الذى ينبغى توقيعه ، بل اکتفوا بالاشارة الى الآية القرآنية الكريمة (٨) (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ، وتفسير القصاص فى هذه الآية واضح جدا .

وتركت المحكمة للخليفة اختيار العقوبة التى يريد انزالها بهم. واذ ذاك قام زياد ابن أفلح – وكان أحد القضاة – فبذل قصارى جهده لاستعادة ثقة ابن أبى عامر به ، فكان أول من طلب توقيع أشد القصاص. قسوة على الجناة وظفر رأيه بالتأييد ، فصلب عبد الملك بن منذر ، وقتل عبد الرحمن الذى أرادوا سوق العرش اليه (٩) .

أما جوذر فاننا نجعل ما قرروه بشأنه وان كانت كل الظواهر تحمل على الظن بأنه قتل مصلوبا ، أما الرمادى فكان مصيره أهون قليلا وان لم

يحسد عليه ، اذ كان ابن أبى عامر يرغب فى نفيه لكنه استجاب لالتماسات
أصدقاء الشعاع فأذن له بالاقامة فى قرطبة اقامة مقيدة قاسية ، ونودى فى
البلد بالعقاب الشديد ينزل بكل من يحاول التحدث معه ، وبذلك حكم على
هذا الشاعر بالصمت الدائم المطبق ، وأصبح منذ ذلك الحين - على حد
تعبير أحد الكتاب العرب - كالميت وسط الناس الذين تزدهم بهم شوارع
قرطبة العاصمة (١٠) .

برهنت هذه المؤامرة للوزير ابن أبى عامر على أن أشد الناس موحدة
ووحدة عليه انما يوجدون على وجه الخصوص بين صفوف أولئك الذين
درسوا الى جانبه الآداب وعلم الكلام والفقه ... فهل كان ذلك نتيجة
غيرتهم منه ؟ .

الرد على هذا بالايجاب من ناحية ، اذ ليس ثم من ينكر أن ابن أبى
عامر كان وياهم منذ قليل على قدم المساواة ورفيقهم فى الدرس ، ثم سمى
به جده سموا عظيما لم يطقه الفقهاء ورجال الدين لما اضطرم فى صدورهم
من الحسد له والحقده عليه ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل لقد كرهوا منه
أيضا ما رمى به لديهم على وجه الخصوص من نزعات دينية معينة ، ذلك
أن الرجال المتخرجين فى مدرسة معلمى قرطبة كانوا شديدي التعلق بالاسلام
، اللهم الا اذا استثنينا بعض المفكرين الجريئين والشعراء المقلقين ، فكانت
النتيجة أن عد ابن أبى عامر - أن ظلما أو حقيقة - مسلما مغموزا الايمان ،
وان لم يوجد الجريء على مواجهته بالتعنيف على اعتناقه الأفكار الحرة
، واعتداده التام بممارستها ، وتهامس الناس فيما بين بعضهم والبعض الآخر
بكلفه بالفلسفة وأخذ نفسه - سرا - بدراسة هذا الفن والانكباب عليه ،
مما كان فى ذلك الحين تهمة شنيعة .

ولم يخف الأمر على ابن أبى عامر .

وسواء أكان فيلسوفا أم لم يكن فالواقع الذى لا مراء فيه أنه كان
قبل كل شئ رجلا سياسة لذلك أراد أن يجرد أعداءه من ذلك السلاح
الرهيب الذى يشهرونه فى وجهه للنيل منه ، فصمم أن يفهمهم أنه المسلم
الكامل ، وذلك بإصدار قرار اصلاحى خطير اذ بعث فى طلب العلماء والوجهاء
أمثال العسيلي (١١) وابن ذكوان (١٢) والزبيدي (١٣) وأدخلهم مكتبة
الحكم الثانى الضخمة وأفضى اليهم بعزمه على طرح الكتب التى تعالج
الفلسفة والتنجيم وغيرهما من العلوم التى نهى عنها الشرع ، وعهد اليهم
بالقيام بتطهيرها بأنفسهم ، وسرعان ما أقبلوا فى حماسة وجد على عملهم

حتى اذا فرغوا منه قام الوزير فرمى بالكتب الدنسة فى النار ، كما أحرق بعض كتبه الخاصة ليفهمهم شدة تعصبه للملة (١٤) .

لم يكن هناك من هو أعلم من المنصور ابن أبى عامر بما انطوى عليه هذا العمل من همجية ، لكن مهما يكن الأمر فقد نجح فى استمالة العلماء والعامّة الى جانبه فعده منذ ذلك الحين عدو الفلاسفة (١٥) وعضد الدين ، كما أنه راح يسيطر رعايته على الفقهاء ويكلؤهم بعطفه ويغمرهم بصلاته (١٦) ، ويصبغي الأصغاء التام الى عظاتهم وان طابّت ، ويوليهم صبرا جميلا أصبح به مضرب المثل وقدوة للغير (١٧) . زد على هذا أنه نسخ القرآن بيده واستصحب معه هذه النسخة كلما خرج من سفر (١٨) .

ولما ذاع خبر استقامته دينيا : الأمر الذى لم يجرؤ أحد ما على نقضه لقيامه على أساس متين وجه همه الى الخليفة الذى أدرك أنه سوف يكون مبعث خوف له كلما تقدمت به الأيام وبلغ مبلغ الرجال .

كان الخليفة هشام (بن الحكم) - كما شهد مؤدبه الزبيدي قد أظهر فى طفولته من آيات الذكاء ما جعل الآمال منوطة به ، فكان يعنى فى سر عجيب كل ما يلقيه عليه أستاذه ، كما وهبه الله دقة فى الحكم على الأمور قل أن تتوفر (١٩) لغلام فى مثل عمره ، ولكنه اذ تبوأ العرش وهو حدث فقد عكفت أمه والمنصور على التناوب على اخماد ملكاته ، ولا نستطيع الجزم بأنهما أذاقاه لذة الحرّيم منذ وقت مبكر ، لأنه على الرغم من أنه مات بلا ولد مما يرجح هذه المسألة الى حد ما الا أنه ليس بين أيدينا دليل ينهض على حقيقة ذلك الوضع . غير أن الثابت المؤكد عندنا هو أنهما بذلا كل جهدهما لآخماد ذكائه بارهاقه بالتكاليف الدينية وأدخلا فى روعه أن انصرافه للعناية بمهام الحكم يصرفه عن القيام بفرائض العبادة ويحول بينه وبين ما فيه نجاته ، ونجحنا الى حد ما فى خطتهما هذه فانصرف الخليفة الغلام هشام الى أعمال البر يوليها اهتمامه ، وأخذ نفسه بمداومة النظر فى التلاوة والعكوف على الصلاة والصيام (٢٠) ، غير أن التفاتاته الذهنية كانت مبعث خوف لابن أبى عامر الذى خشى ظهور أحد ما - أن آجلا أو عاجلا - يسيطر على روح السلطان الشاب ويبصره حقيقة موقفه ، ورأى أن الخطر سيظل قائما طالما بقيت أمور الدولة تعالج فى القصر الخلفى نظرا لتردد كثير من القادة والموظفين عليه . ومن ثم فلا يبعد أن تنهيا فرصة اتصال الخليفة بواحد من هؤلاء يكون طموحا وماهرا فيعمل على اسقاط الوزير فيتم ذلك فى طرفة عين ، فكان لابد من درء هذا الخطر ، لذلك صمم المنصور أن تعالج شئون الدولة خارج القصر ، ففكر (٢١) أن ينشئ فى شرقى قرطبة وعلى ضفاف الوادى الكبير مدينة جديدة وبنى بها قصرا رائعا

لنفسه ودورا لغيره من كبار الموظفين ، ولم ينقض عامان حتى كمل البناء وتم انشاء المدينة التي سميت بالزاهرة (٢٢) ، وما لبث الوزير أن نقل اليها [سنة ٣٧٠ هـ] (٢٣) دواوين الحكومة ، وسرعان ما ضمت الزاهرة بين أكتافها جمهورا لجبا من السكان ، كما أن الطبقات العليا في المجتمع غادرت قرطبة والزهاء لتكون على مقربة من المكان الذي تصدر عنه جميع ما يجديهم وينفعهم ، كما ازدحمت المدينة الجديدة بالتجار ، وما مضى غير قليل من الزمن حتى اتصلت أرباض الزاهرة بأرباض قرطبة (٢٤) .

منذ ذلك الحين أصبح من اليسير مراقبة الخليفة والحيلولة بينه وبين المشاركة في أعمال الدولة ، ومع ذلك فلم يدع المنصور فرصة تمر دون أن يبذل جهده لعزل هشام عزلة تامة ، فلم يفتح بالحرس يحوطه أو العيون تراقبه بل سور القصر وخندقه واشتد في إيذاء من تحدثه نفسه بالاقتراب منه فأصبح هشام بن صبح في الواقع أسيرا اذ لم يكن يؤذن له بمغادرة قصر ، ولم يكن يفوه بكلمة أو يأتي بحركة الا ويعلم بها الوزير في لحظته ، ولم يكن الخليفة يدري عن أمور الدولة سوى ما يرغب الوزير في ايقافه عليه ، ولما كانت الحال تتطلب شيئا من الحيلة فقد اشاع ابن أبي عامر أن السلطان الشاب اسلم اليه مقاليد الأمور ليخلي بين نفسه وبين التفرغ لواجباته الدينية حتى اذا أدرك الوزير نجاحه فيما عمل لم يعد يشغل نفسه به بل لقد منع التفوه باسمه (٢٥) .

أراد ابن أبي عامر ان يضيف الى كل هذه الأمور امرا جديدا لا يقل أهمية عما سبق ألا وهو عزمه على إعادة تنظيم الجيش .

كان الدافع له في هذا التنظيم عاملان : أحدهما قومي والآخر شخصي . بحث . اذ أراد أن يجعل اسبانيا في مقدمة الدول الأوربية الهامة ، كما رمى الى التخلص من غالب وهو قسيمه في الحكم ، ولما كان الجيش في وضعه الراهن يتألف جله من عرب اسبانيا فانه لم يكن يصلح لواحد من الهدفين اللذين يرمى الى تحقيقهما .

كان التنظيم الحربي (٢٦) من غير شك عملا شاقا لأن زعماء الجند كانوا بجمعون معظم القوة في أيديهم ، ولم يكن رهن أمر الحاكم سوى شريحة قليلة من العسكر ، غير أنه كان في استطاعة السلطان دعوة جماعات من الجند تضاف الى قوات الحدود التي كانت أحسن العسكر ، الا أن العادة جرت على ألا تستدعى هذه القوات الأخيرة الا عند الضرورة القصوى لأنهم

لم يكونوا يؤلفون جزءا من الجيش الدائم (٢٧) الذى لم يكن قط كبير العدد فكان لا يتجاوز خمسة آلاف جندي رغم أن الفرسان كانوا اذ ذاك الجانب الهام من الجيش وعليهم يتوقف مصير المارك .

ويستصغر ابن حوقل الرحالة شأن فرسان الأندلس ويشير الى أن عجزهم عن استعمال السروج جعلهم يتركون أرجلهم تتدلى فى استرخاء ، ثم يعود ابن حوقل فينسب الفضل فى معظم انتصارات الجيش الأندلسى الى حيله أكثر منها الى أقدامه ، غير أنه ينبغي أن نتذكر أن الشبهة تحوم حول شهادة هذا الرحالة اذ ربما كان الدافع له على التهوين من شأن هذا الجيش هو رغبته فى اغراء مولاة الخليفة الفاطمى بالاقدام على فتح شبه جزيرة اسبانيا ، الا أنه لا جدال فى أن مزاعمه كانت تنطوى على شىء من الصحة ، ولا ريب أن عرب الأندلس أخذوا يفقدون بالتدريج روحهم الحربية بسبب ما كانوا يتقلبون فيه من البلهنية وما توفر لهم من طيب المناخ . لذلك لم يكن لابن أبى عامر أن يطمع فى الحصول على فتوحات باهرة بمثل هذا الجيش .

زد على لك عدم ثقته فى امكانية الاعتماد عليه فى محاربة غالب الذى لم يكن ثم مفر من وقوع القتال بينهما ، واذا كان غالب قد أسدى اليه كل النفع باسقاطه المصحفى الا أنه أصبح عديم الجدوى له بل غدى يراه عقبة فى طريقه ، ذلك لأن غالبا لم يكن يستصوب أعمال الوزير فكان شديد المعارضة له لا سيما فى موضوع عزل الخليفة ، فقد أحفظه وأحزنه - وهو مولى لعبد الرحمن الناصر والملكى المتحمس - أن يرى حفيد مولاة الصغير محاطا كالأسير والمجرم ، لذلك اعتزم ابن أبى عامر التخلص من حميه كراهية منه لمعارضته اياه ... لكن كيف يتسنى له أن يبلغ غايته هذه ؟

لم يكن غالب كالمصحفى رجلا يسهل التغلب عليه وازاحته بمكيدة تدبر له فى البلاط ، بل كان قائدا بارزا فلو جاهر غالب برغبته فى تخلص الخليفة من طغيان وزيره لانضم اليه أغلب الجيش الذى كان رجاله يعبدونه ، وهذا أمر لم يكن مجهولا عند ابن أبى عامر الذى رأى أن وصوله الى هدفه يحتم عليه ايجاد قوات أخرى مرتبطة به وحده دون سواء ، وبعبارة أخرى كان فى حاجة الى جند أجنبى ، وأدرك ان هذا الجند تمده به المغرب واسبانيا النصرانية .

لم يكن ابن أبى عامر مهتما حتى هذه اللحظة بالمغرب لما تحقق لديه - منذ اقامته به كقاضى قضاته - ان ضم بلاد بعيدة وفقيرة كهذه البلاد انما

يثقل كاهل اسبانيا أكثر مما ينفعها ، فنهج نهج المصحف من قبل حين اكتفى بإقامة حامية في سبتة وتموينها . أما بقية الاقليم فقد وكل أمر إدارته الى أمراء من أهله بإذلا جهده على الدوام لايجاد روابط مختلفة (٢٨) ، ولا شك أن هذه السياسة التي سلكها ابن أبي عامر كانت من وجهة النظر الأندلسية سياسة طيبة حازمة ، لكنها كانت خطرا على المغرب ، فقد قام بلجين (٢٩) - عامل الخليفة الفاطمي على إفريقية - بغزو هذه البلاد في ٢٦ مارس ٧٩ م (= ٢٤ شعبان ٣٦٨ هـ) حينما رآها مهجورة من قواتها الأصلية ، وتوالت انتصارات بلجين بعضها في أتر بعض وساق أمامه أولئك الأمراء الذين اعترفوا بسلطان الخليفة الأموي عليهم ففروا الى ما وراء سبتة للبحث عن ملجأ لهم ، غير أن انتصارات بلجين هذه لم تعرقل مرامي ابن أبي عامر بل أجدت عليه اذ ضاقت الحال بأولئك البربر المتكدسين في سبتة ولم يعرفوا ما يعملون للجيش بعد أن سلبهم المغير بلجين جل ما يملكون ، فكان هذا فرصة طيبة للوزير الأسباني للحصول مرة واحدة على عدد وفير من الفرسان البارعين فلم يتوان عن اغتنامها ، وكتب الى البربر يؤكد لهم توفيره الحياة الرغيدة لهم ويمنهم بالرواتب الكبيرة اذا أحبوا المجيء الى اسبانيا فاستجابوا زرافات لسعوته ، وقام أحد أمراء زاب - واسمه جعفر (٣٠) - [بن علي ويعرف بابن الأندلسي] - الذي طارت شهرته منذ زمن بعيد لجراته واجتذبتة وعود الوزير الخلافة فقدم الى الأندلس في ستمائة فارس ، ونهج غيره من البربر نهجه ، وعدل ابن أبي عامر في كرمه نحوهم رغم ما هم عليه من ضعف اللسان العربي ، حتى لقد كان يهيم عليهم الاقصاد عما يريدون قوله بغير لسانهم (٣١) .

وعرف ابن أبي عامر في هؤلاء البربر الشراة والطمع فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال ، وذلك لتقديره العظيم لمعروفهم الذي أولوه اياه . كما دفع عنهم الاستخفاف والازدراء بهم ، ونهى عن السخرية بمحاولتهم الكلام بالعربية لانهم كانوا يتكلمون في العادة لغتهم الأصلية التي لا يفهم العرب منها كلمة واحدة (٣٢) ، وحدث في ذات يوم وهو يستعرضهم أن اقترب منه ضابط بربري يسمى « وانز مار » وراح يحدثه في عربية ركيكة قائلا : « مالك ، ولك . . . اسكن فاني في الفحص » - فقال : « ما ذاك يا وانزمار ؟ » فقال ما معناه : « اخرجتنى عنها والله نعمتك . أعطيتنى من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها ، وأنا بربري مجوع حديث عهد بالبؤس ، أترانى أبعد القمع عنى ؟ ، ليس ذلك من رأيي » .

فتلطف به ابن أبي عامر وقال له : « لله درك من فذ عيى ، لعلك فى شكر النعمة أبلغ عندنا وآخذ لقلوبنا من كلام كل أسدق متزيد ، وبلغ متقنن » .

ثم التفت الى الأندلسيين المحيطين به وقد شرقوا من الضحك من لهجة البربرى وقال لهم : « كذا فلتشكر الأهادى وتستندام النعم ، لا ما أنتم عليه من الجحود الملازم والتشكى المبرح » وسرعان ما أمر لوانزمار بسكن فخيم (٣٣) .

★ ★ ★

كذلك أمدته اسبانيا النصرانية بالجند الرائع ، ولما كان الليونيون والقشتاليون والنفاريون قد جبلوا على الطمع وضعف الوطنية فسرعان ما تهافتوا على ما عرضه العربى عليهم من الرواتب الضخمة حتى اذا ما أصبحوا مرؤوسيه وانخرطوا تحت رايته تفانوا فى خدمته وزاد تعلقهم به ما أحاطهم به من الرفق واللين ، وما حباهم به من الكرم والانصاف الذى تجلى فى حسن معاملته لهم ، وهو ما حرموا منه فى وطنهم .

لم تكن عناية ابن أبي عامر بالجند لتقف عند حد ، فقد جعل الأحد يوم راحة لكل جيشه على اختلاف دياناتهم ، كما كان يقف على الدوام الى جانب المسيحي فى خصامه مع المسلم (٣٤) ، فلا عجب اذا كان تعلق النصرانى به لا يقل عن تعلق البربر به ، واذا كان هؤلاء وهؤلاء - كما يقال - من خاصة ملكه فقد أنكروا جميعا من أجله وطنهم ونسوه وان لم تعد الاندلس لهم وطنا جديدا ، اذ كانوا يجدون مشقة بالغة فى فهم لغتها ، بل كان موطنهم تلك المعسكرات ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يأخذون رواتبهم من خزينة الدولة الا أنهم لم يكونوا يعملون فى خدمتها بل لحساب ابن أبي عامر الذى يتعلق به مستقبلهم وعليه اعتمادهم ، لذلك كانوا رهن اشارته ضد من يريد .

✱ ✱ ✱

وفى الوقت الذى رجحت فيه كفة الأجانب فى الجيش بدل الوزير الماهر نظام العسكر الأسباني الذى كانت قواته موجهة من قبل ضد الحكومة ، ذلك أن القبائل كانت تؤلف - منذ زمن بعيد - كتائب وجماعات وفرقا ، فأبطل ابن أبي عامر تلك العادة ووزع العرب على الكتائب المختلفة دون نظر الى القبيلة التى ينتسب اليها الفرد منهم (٣٥) ، ولو حدث مثل هذا العمل قبل ذلك بقرن من الزمان حين كان العرب يعتدون بالروح القبلية لأدى الامر الى انقلاب جذرى فى قانون التجنيد ، لأنه كان يجرى الاشراف من بقايا قوتهم الأخيرة مما كان يؤدى بلا شك الى استياء شامل ، ولربما

أشعل فتنة عامة • أما الآن فقد أصبح الزمن غير الزمن ولم يعد تنفيذ ذلك الأمر بالعسير إذ لم تبق سوى ذكرى غابرة لفكرة التقسيم القديم الى قبائل ، وجهل كثير من العرب الى أى القبائل ينتسبون ، وعمت بلبلة أيأسست النسابة من الراى الصحيح •

حقيقة أن الخليفة الحكم الثانى (المستنصر) الذى كان يعشق الماضى الذى يعرفه تمام المعرفة قد أمر باحياء فكرة الانساب التى ترجع الى عصر آخر وسأل النسابة اختبارها ، كما اشتهى أن ينسب كل عربى الى قبيلته (٣٦) غير أن جهوده كانت عكس السياسة الصحيحة فاصطدمت اذ ذاك بروح العصر وفشلت لأن الميل كان متجها - الا فى النادر - الى التوحيد العام ومزج الأجناس بعضها ببعض ، وكان ابن أبى عامر فى قضائه على نظام التقسيم القبلى القديم متمما لما عمله عبد الرحمن الثالث ، ذلك العمل الذى يتفق والشعور الوطنى •

كان ابن أبى عامر يستعد للحرب فى الوقت الذى يظهر فيه المودة الحميه [غالب] الذى لم يكن بالرجل الساذج ولا الذى ينقصه فهم مرامى صهره بما أدخله من التغييرات الجسيمة على الجيش فصمم على مناضلته ، وفى ذات يوم وجدا معا على برج أحد الحصون بالحدود فانهال غالب على المنصور تقريرا ولم يقصر الآخر فى الرد عليه ، واشتد الجدل بينهما حتى تحول الى عنف فصاح غالب وهو فى سورة غضبه به « يا كلب أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع وتحكمت فى الدولة » ثم استل سيفه من غمده ورماه به وهو مزبد غضبا ، فسعى بعض الضباط فى أبعاده فلم تتم الضربة وأصيب ابن أبى عامر بجرح من حميه فاشتد خوفه فقفز من أعلى البرج غير انه تعلق أثناء سقوطه بنتوء بارز كان فيه الإبقاء على حياته •

لم يعد ثم مندوحة عن الحرب بعد هذا الحادث ولم يتأخر اعلانها حين جعل غالب من نفسه المدافع عن حقوق الخليفة فانخرط تحت لوائه جماعة من الجند ، كما مد له الليونيون يد المساعدة وجرت معارك كثيرة مات فيها جماعة من أبرز رجال البلاط •

فلما كانت آخر وقعة بينهما - وقد أوشكت على الانتهاء وأوشك جيش ابن أبى عامر على الفرار اذ بغالب الواقف أمام فرسانه يصطدم رأسه بقربوس سرجه ويجرح جرحا مميتا ويسقط لساعته من على جواده ، واذ ذاك لاذ جنده وحلفاؤه النصارى بالهرب اذ لم يجدوه بينهم ولم يعرفوا

مكانه ، مما أتاح لابن أبي عامر نصرا مؤزرا ، ثم وجدت جثة غالب بين القتلى وذلك (٣٧) سنة ٩٨١ م (المحرم ٣٧١ هـ) .

لم يقنع ابن أبي عامر بهذا الفوز العظيم الذى ناله بل أراد معاودة الكرة لمعاوية الليونيين بسبب مساعدتهم خصمه ووقوفهم الى جانبه ، كما أراد أيضا أن يبين لمواطنيه أنه اذا كان قد أحدث جيشا عظيما فخما فانه لم يوجد له لمصالحه الخاصة وحدها بل ولخير البلد أيضا ، فخرج غازيا مملكة ليون وأذاقها مر النكال وجعل مقدمة جيشه بقيادة أمير يجرى فى عروقه الدم الملكى ويسمى يعبد الله ويلقب بالبطرشك (٣٨) فاستولى على سمورة فى يوليو ٩٨١ م (٣٧١ هـ) ونهبها .

ولما عجز المسلمون عن ارغام الحصن على التسليم أسرفوا فى الانتقام فجعلوا كل ما حول البلد طعمة للنار والدماء وقتلوا بحد السيف أربعة آلاف مسيحي وأسروا مثلهم ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن خربوا فى منطقة واحدة ألفا من القرى والديساكر الآهلة بالسكان وهدموا الأديرة والكنائس ، وحينذاك قام راميرو الثالث - ولم يكن جاوز العشرين من عمره - فحالف غرسية فرناند قومس قشتالة ، كما حالف ملك نفاة (٣٩) ، وسار ثلاثتهم ضد ابن أبي عامر واحتدم القتال عند روضة (٤٠) فى الجنوب الغربى من شنت منكس غير أنهم هزموا أمامه واستولى المسلمون على حصن شنت منكس العظيم وأسروا قلة اذ أعمالوا القتل فى غالبية السكان والجنس (٤١) .

وعلى الرغم من ان الشتاء كان قد دنى الا أن ابن أبي عامر أمر بمواصلة الزحف على ليون فهب راميرو لصدده ودفعه وكان الحظ أكبر بسالته فنجح فى دفع المسلمين وأجبرهم على التراجع الى معسكرهم حيث كان المنصور على عريش مرتفع يشاهد المعركة ويصدر أوامره ، فلما رأى فرار رجاله احتدم غيظا وتفجر مرجل غضبه ونزل عن كرسيه ثم خلع خوذته الذهبية وافترش الأرض ، فأدرك جنده مرماه اذ كانت تلك عادة قائدهم كلما أراد اظهار سخطة حين لا يحسنون النزال ، كما أن رؤيتهم رأسه وهى عارية كان له أبلغ الأثر فى نفوسهم فخرجوا لتراجعهم ، ورأوا تلاقى لك مهما كلفهم فشدوا على العدو شدة عنيفة حتى ولى الادبار هربا منهم فتبعوه بسيوفهم حتى بلغوا أبواب ليون وكادوا أن يحتلوها لولا أن باغتتهم عاصفة هوجاء صحبها الغمام والبرد فأرغمتهم على التخلى عن المعركة (٤٢) .

عاد ابن أبى عامر الى قرطبة لحلول فصل الشتاء فلقب بالمنصور وهو لقب لم يكن الا للخلفاء وهو ما سنطلقه عليه من الآن فصاعدا ، ثم أراد أن يحظى بكل مراسم الشرف الخاصة بالسلطان فطلب أن يلثم يده كل شخص يأتي الى حضرته : وزيرا كان أو أميرا ، فأجيب الى ذلك ، بل لقد ذهب الناس الى أبعد من ذلك فكانوا يقبلون أيدي أطفاله الذين مازالوا بعد في المهمل (٤٣) .

وخيل للناس أنه بلغ من القوة مالا مزيد عليه ، فقد أصبح بلا منافس ، لكنه لم يقنع بذلك كله بل كان يرى ان هناك رجلا آخر يمكن أن يكون خطرا عليه في قادم الأيام ان لم يكنه حتى الآن ، ونعنى به القائد (٤٤) جعفر أمير زاب الذي أدى له الخدمات الجلى أيام محاربته لغالب ، غير أن شرف مولده وشهرته الحربية أثارا غيرة المنصور وأشرف البلاط فصمم ابن أبى عامر أن يقوم بعمل يلقي على شمس مجد جعفر كلفة لا تمحي ، اذ أصدر تعاليمه السرية الى التجيبى أبى الأحوص معن وعبد الرحمن بن مطرف بالخلاص منه ، ثم دعى جعفر الى مأدبة أدبها له فلباها ، وكانت وليمة فخمة زاد في بهجتها النبيذ الرائع الذي راح يديره الساقى بلا حساب لجعفر، وكان الوزير المنصور يقول للساقى : «أسقها أعز الناس على» ، فاختار الساقى من المقصود من هؤلاء السادة بكلام مولاه المنصور فصاح به : « ناولها الوزير جعفر أبا أحمد ، عليك لعنة الله » ، فاستخف هذا الاطراء جعفرا ووقف رافعا الكأس وشربها حتى الثمالة ، ونسى آداب اللياقة فرقص وسرت النشوة في الندامى الآخرين فتمثلوا به .

وطالت الوليمة حتى أذن الليل بالرحيل ، حتى اذا هموا بالانصراف كان السكر قد بلغ بجعفر مداه حتى لم يعد يعي شيئا ، فلما مضى قاصدا داره في صحبة قليل من الخدم اذا بنفر من العسكر التجيبين يهاجمونه في الطريق ويقتلونه وهو لا يملك الدفاع عن نفسه ، وكان ذلك يوم ٢٢ يناير سنة ٩٨٣ م [= ٣ شعبان سنة ٣٧٢ هـ] ، وأرسلوا رأسه ويمناه الى المنصور الذي ادعى جهله بقاتليه ، وان تظاهر بالحزن العميق لمصرعه (٤٥) .

الفصل العاشر

النزاع بين راميرو وابن عمه برميدو • الاستعانة
بالمسلمين • ليون ولاية اسلامية • المنصور يستعد لمهاجمة
فرنسا • استضافة ابن الخطاب له ولعسكره • سقوط
برشلونة في يد المسلمين • تغلب المنصور على الكونت
بوريل • التفاته شطر المغرب • ابن كنون وتقربه الى
الفاطميين ، ثم ارساله عسقلاجة لمحاربة المنصور في المغرب •
مقتل ابن كنون وغضب الناس من اجله • اتهام عسقلاجة
بالتآمر وقتله • المنصور يحاول تهدئة الثوار ضده بزيادة
التوسعة في المسجد • تجدد الحرب ضد ليون • انتصار
الجيش الاسلامي واستسلام سمورة • المنصور يشك في رجاله
وولده عبد الله • عبد الرحمن التجيبي يثير الابن على ابيه
ويتحالفان ضده • كيف تغلب المنصور على خصومه • عبد الله
بن المنصور ينضم الى غرسية • استسلام غرسية وتسليم
المنصور لولده عبد الله • خروج المنصور لمهاجمة برميدو •
نهاية ابن البطرشك •

الفصل العاشر

الأمور تتأزم في وجه المنصور

سواء عرف الناس حقيقة مضرع جعفر أو جهلوا فان انتصارات المنصور الجديدة سرعان ما أنستهم هذه الجريمة . فقد استغل المنصور لصالحه مشاكل ليون الداخلية اذ هلك راميرو الثالث لفشله في حملة ٩٨١ م ، ولم يعد كبار رجال مملكته يرغبون في أمير لازمه سوء الطالع (١) ، كما جرحهم في كبريائهم بتمسكه بالسلطة المطلقة ، فشبت ثورة في جليقية وصمم أشرافها على أن يسوقوا العرش الى ابن عم راميرو وهو برميدو وتوجوه في الخامس عشر من أكتوبر ٩٨٢ م (ربيع الثاني ٣٧٢ هـ) في كنيسة شنت ياقب ، وسرعان ما نهض راميرو لمحاربته وجرت بينهما معركة في Portella de arenas الواقعة على حدود ليون وجليقية ، لكنها لم تكن معركة حاسمة على الرغم من غنفا (٢) ، وأخيرا بدأ الحظ يواتي شيئا فشيئا جيوش برميدو الثاني الذي اغتصب من يد خصمه في مارس ٩٨٤ م مدينة ليون (٣) ، فخاف الأخير أن تدور الدائرة عليه فحاول أن يجد ملجأ في أرباض أشتورقة ، ثم اضطر أن يسأل المنصور مساعدته لقاء اعترافه بسيادته عليه (٤) ، غير أنه مات بعد قليل في ٢٦ يونيو ٩٨٣ (٥) ، فحاولت أمه أن تحل مكانه معتمدة على عون المسلمين (٦) ، لكنها سرعان ما أبصرت انهيار آمالها ، ذلك أن برميدو أدرك أنه سوف يلاقى صعوبة كبرى في التفاهم مع الأشراف الذين يرفضون الاعتراف به ولم يجد مندوحة له من أن يفعل ما فعله راميرو فاستنجد بالمنصور الذي وضع تحت امرته جيشا اسلاميا ضخما استطاع بمعونته اخضاع جميع مملكة ليون لسلطانه ، لكنه لم يعد منذ ذلك الحين الا قائدا للمنصور ، كما رابط في بلده رهط كبير من القوات الاسلامية لمراقبة الأمور ومساعدته (٧) .

حين رأى المنصور أن ليون غدت ولاية تدفع الجزية له عزم على توجيه جنده لمحاربة قطالونيا التي كان الخلفاء يراعونها حتى ذلك الوقت خوف قيام الفرنسيين بمحاربتهم ان هم هاجموها نظرا لانها كانت تابعة لفرنسا ، غير أن المنصور لم يبال أبدا بهذا الأمر لمعرفته بأن فرنسا كانت اذ ذاك نهب الفوضى الاقطاعية ، وأن الأمراء القطالونيين لا يتوقعون أي

مساعدة تأتيهم من جانبها (٨) ، وحشد المنصور حشدا كثيفا من الجند غادر بهم قرطبة في الخامس (٩) من مايو ١٩٨٥ ومعه قرابة أربعين من خاصته من الشعراء الذين يرفدهم ويصلهم للتغنى بانتصاراته (١٠) ، ومر في طريقه بالبيرة وبياسة ولورقة حتى بلغ مرسية فانتضافه ابن الخطاب الذي لم يكن من عمال الحكومة بل صاحب أملاك شاسعة تدر عليه دخلا كبيرا ، ولما كان من الموالي الأمويين فالأرجح أنه قوطى الأصل ، وربما كان أصله يرجع الى « تدمير » الذي عقد مع المسلمين وقت الفتح معاهدة في صالحه مؤداها أن يحكم هو وابنه أثانا جيلد Athana Gild شبه مستقلين على ولاية مرسية (١١) .

ومهما يكن الأمر فقد كان ابن الخطاب رجلا مبسوط الكف وافر الثراء ، فلم يكتف باستضافة المنصور وحاشيته على نفقته الخاصة ثلاثة عشر يوما (١٢) بل استضاف كذلك جميع الجند من الوزير الى الشرطى ، واهتم بنفسه بمائدة المنصور ولم يحدث قط أن قدم فى مرة طعاما قدمه من قبل ، أو آنية سبق أن وقعت عليها العين ، حتى لقد أدى به الاسراف ذات يوم لأن يهين لمضيفه حماما من ماء الورد ، ومع أن المنصور ألف حياة الرفاهية الا أنه ذهل لما أظهره ابن الخطاب فلم يقصر فى الثناء عليه ، وأظهر شكره اياه فأمر باسقاط جزء من الخراج عليه ، وألزم الولاة القوامين على ادارة الاقليم برعايته وألا يقصروا قط فى تلبية رغباته (١٣) .

غادر المنصور مرسية الى قطلونيا حيث نازل الكونت بوريل (١٤) خلما كان الأربعاء أول يوليو (= ١٠ صفر) وصل الى برشلونة وهاجمها ، وفى يوم الاثنين التالى (= ١٥ صفر سنة ٣٧٥ هـ) وقعت المدينة فى يده (١٥) فحكم السيف فى رقاب الكثيرين من جندها وأهلها وأسر من بقى حيا ، وخرب البلد وأضرمت فيه النيران (١٦) .

ما كاد المنصور يؤوب من هذه الحملة التى هى الثالثة والعشرون فى عداد حملاته (١٧) حتى وجه همه شطر المغرب ، وما كان يعينى من الحرب أبدا بل كان دائم التطلع الى فتوح جديدة .

لقد بقى المغرب سنوات عدة فى يد بلجيين عامل الخليفة الفاطمى على أفريقية ، أما فى المدة الأخيرة من حكم هذا الأمير وبعد موته (١٨) فى مايو ٩٨٤ م فان الشيعة الأموية أخذت فى التحرك ، كما قامت عدة بلدان مثل فاس وسجلماسة وطرحت عن نفسها نير الفاطميين ، وحينذاك قام أمير مغربى كاد المرء أن ينساه وأعاد التمثيل على المسرح ذلك هو ابن كنون الإدريسي (١٩) الذى انضم - كما قلنا - فى أيام الحكم الثانى الى صف مغالب ثم استنزل الى قرطبة وبقى بها حتى بعث به المصطفى الى تونس بعد

أن عامده الا يرجع الى المغرب أبدا ، غير أن ابن كنون لم يكن يهتم قط بالوفاء بعهدده فقد قصد بلاط الخليفة الفاطمي (٢٠) وأخذ يلاحقه عشر سنوات كي يساعده على رده الى ما كان عليه ، فلما نجح في الحصول على المال والرجال عاد الى موطنه الأصلي واشترى بالمال سواعد الكثيرين من زعماء البربر له وأوشك أن تكون له السيادة : الأمر الذي كان المنصور يعمل للحيلولة بينه وبينه ، فاتخذ لهذا الحادث تجهيزاته الضرورية فأرسل الى بلاد المغرب عددا كثيفا من الجند بقيادة ابن عمه (٢١) عمرو بن عبد الله بن عسقلجة) ، ولم تطل الحرب اذ كان ابن كنون ضعيفا الى درجة لا تمكنه من مقاومة خصمه فما لبث أن استسلم له بعد أن أمنه عسقلجة على حياته وأذن له في الإقامة بقرطبة كسابق عهده .

لم يكن أدنى شك في أن قطع العهد لرجل شديد الجشع موغل في الخيانة كهذا الرجل انما هو أمر ينطوي على عدم التبصر ، وقد يتساءل المرء عما اذا كانت لعسقلجة الصلاحية في قطعه له ، ويتركنا المؤرخون العرب في طلام في هذه الناحية ، الا أن سيرة المنصور تحملنا على الظن بأن عسقلجة قد تجاوز حدود سلطته ، لأن الوزير أعلن أن ليس لعهدده قيمة ، ولما حمل ابن كنون الى الأندلس ضرب عنقه ليلا في الطريق بين الجزيرة الخضراء وقرطبة وذلك في شهر سبتمبر أو أكتوبر ٩٨٥ (= جمادى الأولى ٣٧٥ هـ) .

ومع أن ابن كنون كان طاغية مستبدا يشعر باللذة العارمة حين يطرح من لديه في الحبس من ذروة صخرة النسر الا أن طريقة قتله أثارت عطف الجميع عليه ، فقد كان شريفا من نسل النبي [عليه الصلاة والسلام] ، ومن ثم كان التجاسر على حياة مثله خطيئة شنعاء في أعين هذه الجماعات حتى ان الجند الغلاظ الذين قتلوه امتثالا للأمر الصادر اليهم ساورتهم الريبة واشتد بهم الخوف حين هبت فجأة عاصفة طرحتهم أرضا فاعتبروها نذيرا وعقابا أنزلته السماء بهم ، وانقسم الناس طائفتين : واحدة عدت عمل المنصور هذا كفرا وأخرى اعتبرته خيانة ، اذ كان عليه الوفاء بالعهد الذي قطعه قائده كما لو كان هو نفسه الذي قطعه ، وتجاهر الناس بهذه التهم رغم شدة المنصور عليهم ، وظهر الاستياء بصورة جليلة حتى لم يعد في قدرة المنصور التغاضي عن هذه الروح السائدة وبدأ يخشى العاقبة كل الخشية ، ويستطيع المرء أن يتصور مبلغ الغضب الذي وصل اليه حين علم بأن عسقلجة هو أكثر القوم سخطا عليه ، وأنه تجاسر أمام جنده فصرخ بما انطوى عليه عمل ابن عمه من الغدر ، لذلك كان لابد له من أن يدفع ثمن هذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبة بالعودة الى اسبانيا لساعته

واتهمه بالغدر والخيانة العظمى وأدانه وقتله (٢٢) في أكتوبر
أو نوفمبر ٩٨٥ م (= جمادى الثانية سنة ٣٧٥ هـ) •

وتعالت الصيحات اذ ذاك من جديد ٠٠٠ وأشفق الناس من نكد
طالع ذلك الشريف وعلى مصير عسقلانة أيضا ، ورأى القوم أن المنصور
لا يحجم عن البرهنة من جديد على استعماله العنف مستهينا بكل
العلاقات وشائج الدم والقربى وذلك بقتله ابن عمه •

أما عشيرة ابن كنون المفجوعة في آمالها التي عقدتها على هذا الأمير
وقد أوشك أن يصبح حاكم المغرب كله فقد عملت أقصى وسعها لاثارة
الفتنة ، فلما اتصل بالمنصور خبر المكيدة التي يدبرونها له أمر بنفيهم
جميعا فأخرجوا من اسبانيا والمغرب معا ، غير أن أحدهم - وهو ابراهيم
بن ادريس - أصمى قلب الوزير قبل رحيله بسهم أراشه من قصيدة طويلة
له لهج بها الناس وراحوا ينشدونها وفيها يقول :

فيما أرى عجب لمن يتعجب	جلت مصيبتنا وضاق المذهب
انى أكذب مقلتي فيما أرى	حتى أقول : غلظت فيما أحسب
أكون حيا من أمية واحد	ويسوم ضخم الملك هذا الأحب (٢٣) ؟
تمشى عساكرهم حوالى هودج	أعواده : فيهن قرد أشهب
أبنى أمية أين أقمار الدجى	منكم ، وما لوجوهها متغيب
أبنى أمية أين أقمار الدجى	منكم ، وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكمو عن غابها	فلذاك حاز الملك هذا الثعلب (٢٤) .

وسواء أكان ثعلبا أم لم يكن ، اذ لا يزال هذا النعت الذى نعت به
المصحفى عالقا به - فقد ايقن المنصور ضرورة القيام بعمل شئ يسترجع
به ما كان له من المكانة عند الناس ، فعزم على زيادة سعة المسجد الذى
أصبح يضيق بسكان العاصمة وبالجند الكثيفين القادمين من افريقية ،
فبدأ بنزع ملكية أصحاب البيوت القائمة على الأرض التى يراد البناء
عليها ، وكان هذا العمل من جانبه يتطلب كثيرا من اللباقة والحكمة واللين
حتى لا يؤدي الأمر الى مقتته وكراهيته ، ولم يكن المنصور بالذى يشق له
غبار فى هذه النواحي فراح يتقدم الى أصحاب الدور واحدا بعد الآخر، وكان
مثولهم بين يديه شرفا عظيما لهم ثم يقول للواحد منهم : « ان هذه الدار
التى لك يا هذا أريدنا لجماعة المسلمين من مالهم وفيثهم لازيدها فى جامعهم
وموضع صلاتهم ، فشطط واطلب ما شئت » فاذا ذكر محدثه الثمن الذى

يراه قال له : « هذا كثير » ثم لا يكتفى بأن ينقد البائع ثمن داره بل يعمد أيضا الى شراء مسكن آخر له .

وحدث أن ظلت امرأة أمدا طويلا ترفض التخلي عن بيتها لوجود نخلة في حديقته كانت شديدة التعلق بها ، فلما رضخت أخيرا اشترطت عليه أن يشتري لها سكنا سواء ذا نخلة في ساحته ، وكان هذا الطلب من الصعوبة بمكان ، غير أنه لما سمع بما طلبت قال : « تباع لها دارا بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال » . ثم عثروا لها بعد طول بحث على بيت يطابق ما اشتتهه فاشتروه بعد أن أغلى أصحابه في الثمن .

أتى السخاء أكله ، ومهما كانت نقمة القوم على الوزير إلا أنه لا يمكن انكار مقدرته على الأعمال الخيرة العظيمة ، كما أنه من ناحية أخرى أرغم المتدينين على الاعتراف بأن الزيادة في المسجد عمل يستحق من أجله المثوبة .

أضف الى هذا أنه حين بدأت أعمال البناء شاهد الناس جماعات من الاسرى النصارى المقيدى الاقدام وهم يعملون في تسوية الأرض ومن ثم قيل ان مجد الاسلام لم يتلأأ هذا التلألؤ من قبل ، ولم يصل الكفرة الى هذا الحد من المهانة والذل .

كذلك شوهد المنصور نفسه - ذلك السيد القوى وأعظم قادة هذا العصر - يحمل المكتل والمنشار كأى عامل بسيط ، كل ذلك تقريبا منه للخالق ، ... فما أخرى أن تتلاشى جميع الآثام أمام هذا المنظر (٢٥) .

* * *

فى الوقت الذى كان العمل جاريا ابانه فى توسيع المسجد تجددت الحرب ضد ليون ، ذلك أن القوات الاسلامية المرابطة فى هذه المملكة أساءت السير أساءتها فى بلد مغلوب على أمره ، وكلما تشكى برميدو الثانى الى المنصور لم يتلق منه الا جوابا صيغ فى صلف وازدراء ، فلما عيل صبره نهج نهجا صارما لطرده المسلمين (٢٦) مما دفع المنصور الى ضرورة اشعاره مرة أخرى بتفوق جيوشه عليه وان كان هو فى سريره راضيا كل الرضى عن هذه الحرب الجديدة ، راميا من ورائها الى صرف أهل العاصمة لمعاودة الحديث عن وقائعه وانتصاراته وفتوحاته بدلا من البحث عن أمور لا تعنيهم أبدا ، وقام هو بتقديم مادة الحديث اليهم .

ولما استولى على مدينة قلمرية فى يونيو ٩٨٧ م (= صفر ٣٧٧ هـ) سواها بالأرض حتى لقد ظلت مهجورة (٢٧) سبع سنوات ، فلما كان

العالم التالى عبر نهر دويرة وانساب الجيش الاسلامى فى مملكة ليون. انسياب السيل الجارف ، مخربا كل ما يضادفه فى طريقه غير مستبق على المدن أو القلاع أو الأديرة والكنائس أو القرى والمزارع (٢٨) ، فرد عليه برميدو بأن هاجم مدينة سمورة (٢٩) ، ولا شك أنه كان مدفوعا فى ذلك بالنقمة من مهاجمته هذه المدينة أولا ، غير أن المنصور أسقطها من حسابها ، وسار رأسا الى ليون التى كادت أن تسقط فى يده مرة قبل الآن لولا مناعة حصنها وضخامة أبراجها ولولا أيضا أبوابها الأربعة الرخامية وأسوارها الرومانية التى ينيف عرضها على عشرين قدما ، فكانت لكل هذه الأسباب بالغة الحصانة والقوة ، فعزت محاولات العدو الذى نجح أخيرا فى فتح ثغرة على مقربة من الباب الغربى فى الوقت الذى كان فيه قائد الحامية - واسمه القومس الجليقي - طريق الفرائش لعدة شديدة ألت به ، ثم مالبث الحظر أن بلغ أقصى مداه ، واذ ذاك لم يعبأ القومس بمرضه بل تسربل فى لحظته بلباسه الحربى وأمر أن يحمل فى محفة الى الشجرة فألهب مرآه. وكلامه حماسة جنده الخامدة فوقفوا صامدين أمام العدو ثلاثة أيام . لكن تمكن المسلمون فى اليوم الرابع من اقتحام المدينة من بابها القبلى وجرت مذبحة مروعة حتى لقد قتل هذا القومس فى محفته وكان الواجب احترام بطولته ، وانساب المنتصرون بعد القتل مخربين كل ما فى طريقهم فلم يدعوا حجرا على حجر ، ودكوا ما صادفهم من الأبواب والبروج والأسوار والقلعة والبيوت دكا شديدا ، ولم يبقوا الا على برج واحد قائم بجانب الباب الشمالى يكاد ارتفاعه يساوى ارتفاع الأبراج الأخرى ، اذ أمر المنصور بتركه كما هو راميا من وراء ذلك أن يكون شاهدا للأجيال القادمة على بأس البلد الذى محاه من على سطح الأرض (٣٠) .

وارتد المسلمون بعد ذلك الى سمورة فحاصروها بعد أن أحرقوا ما صادفهم فى طريقهم من دبرى بيرا سلونسا وسهاجون الفخمين (٣١) .

أما برميدو فكان دون قائده شجاعة اذ تسلل خفية ولاذ بأذيال الهرب، فلما عرف ذلك أهل البلد أسلموا القصر الى المنصور الذى أباح سمورة للسلب والنهب ، وحينذاك اعترف أغلب الكونتات بسلطته عليهم ، أما برميدو فلم يعد له غير تلك النواحي المجاورة للبحر (٣٢) .

ومضى المنصور بن أبى عامر بعد ذلك عائدا الى الزاهرة بعد تلك الحملة العظيمة ، لكنه كان قلق الخاطر مشغول البال بأمور بالغة الخطورة ، فقد اكتشف أن كبار رجاله يتآمرون عليه ، وفيهم ابنه الشاب عبد الله البالغ من العمر الثانية والعشرين .

لم يكن عبد الله محبوبا من أبيه رغم شجاعته وفروسيته الرائعة ،
وذلك لشك يخامر أباه في صحة نسبته اليه وان جهل الابن ذلك الأمر ،
ولكنه كان يرى أباه يؤثر على الدوام أخاه عبد الملك الذي يصغره بست
سنوات ويقدمه عليه مع اعتقاده بأنه يفوقه ذكاء وشجاعة ، لذلك كان يحس
بكراهية عنيفة حادة حتى قبل وصوله الى سرقسطة مقر عبد الرحمن
بن مطرف التجيبى عامل السلطان على الثغر الأعلى ، وجر عليه هذا
المجلس النكبة اذ كان مضيفه شيخ أسرة بارزة توارث رجالها ولاية الملك
في هذه الناحية مدى قرن كامل من الزمان .

ولما كان المعروف عن المنصور أنه يميل دائما الى اضعاف شكيمة
أشد رجال الدولة بأسا (٣٣) فقد كان من الطبيعي أن يخشى عبد الرحمن
(بن مطرف التجيبى) وهو آخر الأشراف الباقين على قيد الحياة من أن
يكون بد قليل ضحية لطمع هذا الوزير ، ومن ثم راح يتدبر الأمر قبل وقوعه ،
ولم يكن تريثه في عدم التمرد الا انتظارا لفرصة مواتية ، وها قد لاحت
له الآن هذه الفرصة اذ وجد في عبد الله الشاب اليد الصالحة لتنفيذ
خطته، فراح يصرم سخطه على أبيه ويذكر في شئنا فشيئا فكرة التمرد
ويحثه على الثورة عليه ، واتفق الاثنان : التجيبى وعبد الله على امتشاق
السيف حالما تسنح الظروف وأن يتقاسما اسبانيا فيما بينهما اذا كتب لهما
النصر في هذا الصراع فيكون لعبد الله (٣٤) وسط الأندلس ولعبد الرحمن
الشمال . وساهم في هذه المؤامرة كثير من أصحاب المراتب العليا في
الجيش والحكومة على السواء ، وكان من بينهم أمير يجرى في عروقه
الدم الملكى هو عبد الله البطرشك الذى كان وقتئذ عاملا على طليطلة .

كانت هذه المؤامرة بالغة الخطورة واتسعت حتى لم يعد في الامكان
أن يطول سترها عن عين الحاجب الحذرة ، وترامت الى سمعه في بادى الأمر
أخبار غامضة أخذت تتضح شيئا فشيئا ، وسرعان ما اتخذ التدابير الناجمة
لاحباط خطط أعدائه فاستدعى ابنه اليه وأظهر له ثقته به خديعة منه
ومغالطة ، وحباه بحنانه ورضائه عليه ، واستقدم عبد الله البطرشك
وصرفه عن عمل طليطلة دون أن يعدم ذريعة أشبه بالحق يتذرع بها لتبرير
مسلكه ، واصطنع البشاشة معه فجازت الحيلة على الأمير الذى لم يساوره
أدنى شك من ناحيته عنده ، الا أن المنصور سرعان ما جرده من لقبه كوزير
وحرّم عليه مغادرة بيته .

* * *

لما أمن الوزير جانب اثنين من كبار المتآمرين بفضل حذره الشديد
أعد حملة لمحاربة القشتاليين بعد أن أنفذ لولاة الحدود أمره بالحضور اليه
ومرافقته ، فامثل عبد الرحمن بن مطرف للأمر وفعل بقية الأمراء فعله

ثم أغرى المنصور من عنده من جند سرقسطة للشكوى من عبد الرحمن ففعلوا واتهموه بأخذ أرزاقهم وحبسها على نفسه ، فعزله المنصور من منصبه يوم ٨ يونيو ٩٨٩ م (= سلخ صفر ٣٧٩ هـ) ولما كان عازفا عن مجافاة كل عشيرة هاشم فقد قلده يحيى بن [عبد الرحمن بن مطرف] المعروف بسماجة ولاية الثغر الأعلى ، ولم تنقض غير أيام قلائل حتى ألقى القبض على عبد الرحمن ذاته دون أن يفهمه أنه على علم بالمؤامرة ، بل كان كل ما زعمه هو أنه يريد أن يحقق في الطريقة التي سلكها في التصرف في رواتب الجند التي عهد إليه بدفعها لهم .

ما لبث عبد الله [بن المنصور بن أبي عامر] أن اشترك في الجيش نفاذا للأمر الصادر إليه ، وحاول المنصور استعادة محبته بما جباه به من ضروب العطف ، غير أن جميع محاولاته في هذا الصدد ذهبت أدراج الرياح ، فقد صمم عبد الله تصميمًا باتا على قطع كل ما بينه وبين أبيه ، فعمد في أثناء حصار شنت اشتيبن دي جرمان إلى ترك المعسكر سرا غير مستصحب معه سوى ستة من غلمانه ، والتجأ إلى غرسية الذي آمنه وآمنه ، وبقي رغم تهديدات المنصور أياما مقيما على عهده له أكثر من عام توالى عليه خلاله المحن بعضها في أثر بعض وحاقت به الهزائم في كل المعارك التي خاضها ، حتى إذا كان أغسطس ٩٨٩ سلبه المنصور مدينة وخشمة وأقام بها حامية إسلامية كما استولى على « القبة » (٣٥) ، ثم جد نفسه في النهاية مضطرا لطلب الصلح وتسليم عبد الله إلى أبيه .

وجاءت كوكبة من الفرسان من قشتالة قادت الثائر إلى معسكر والده وقد امتطى بغلا فارها جليل الحلية أهداه إليه القومس ، ولما كان واثقا من عفو أبيه عنه فقد كان خالي البال ، هادئ النفس ، وبينما هو في الطريق إذا به يصادف كتيبة مسلمة بقيادة سعد الخادم الذي قبل يده وطمأن خاطره ملقيا إليه أن أباه يعتبر ما فعله ضربا من الطيش يغتفر لمن كان في مثل سنه ، وكانت هذه هي لهجة الحديث وقت وجود القشتاليين معه ، فلما انصرفوا إلى معسكرهم عند شواطئ نهر دويرة تراجع سعد إلى الورا وأشار إلى من معه من الجند بالترجل والاستعداد لقتله ، فلما سمع العامري الشجاع هذه الكلمات غير المتوقعة لم تطر نفسه شعاعا ، بل وثب في خفة إلى جوار بغله واحتفظ بمعاله الصلبة ولاقى الموت ثابت الجنان ، وكان ذلك يوم ٩ سبتمبر ٩٩٠ م [= ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ] .

وكان شريكه عبد الرحمن قد أعدم قبله إذ أدين بخيائته أمانة منصبه ، فضربت عنقه بالزاهرة ، وأما عبد الله البطرشك فقد نجح في الإفلات والاختفاء عند برميدو (٣٦) .

لم يقنع المنصور بافساده هذه المؤامرة فحدد على قومس قشتالة ما فعله من مد يد المساعدة الى ولده عبد الله ، ودبر خطة للثأر منه ، فحرك ثائرة شانجة بن القومس ليتمرد بدوره على أبيه ، ولما كان شانجة هذا معتمدا على تأييد أغلب رجال الدولة له فقد أعلن الحرب في سنة ٩٩٤ م (٣٧) ، واذ ذاك قام المنصور فأعانه واستولى على حصن شانت اشتين وقلونية ، لكنه سرعان ما ارتاح لانتهاء هذه الحرب ، ذلك لأن بطانته التي ألقت التفكير على نمطه - أو التي كانت تتظاهر بهذا - عيل صبرها مثله من الحرب ، فكانت لا تجد أحسن من القول بأن كل الظواهر تشير الى قرب خضوع غرسية له حتى لقد حدث أن وفد عليه ذات يوم الشاعر صاعد ممسكا بأيل وآخذا زمامه بيده ، وأنشده قصيدة متوسطة البيان قال فيها :

مولاي مؤنس غربتى ، متخطفى من ظفر ايامى ، ممنع معقلى
عبد تشيلت بضبعه وعرسته فى نعمة ، أهدى اليك بأيل
بسميته غرسية وبعثته فى حبله ، ليتاح فيه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أسمى نعمة أسدى بها ذو منحة وتطول
وشاءت الصدفة العجيبة تحقيق ذلك اذ أصيب غرسية بسنان رمح
وأسر فى الطريق ما بين القصر ولانجة على شواطئ دويرة فى نفس اليوم
الذى أحضر فيه الشاعر الوعل الى مولاه أعنى يوم الاثنين ٢٥ مايو سنة ٩٥٥ م ، ولم تنقض خمسة أيام على هذا الحادث حتى مات القومس متأثرا بجراحه . ومنذ ذلك الوقت خلا الجو لشانجة فلم ينافس منافس ، لكنه كان مضطرا لدفع جزية سنوية الى المسلمين (٣٨) .

فى خريف هذا العام نفسه خرج المنصور قاصدا محاربة برميدو انتقاما منه لايوائه متأمر آخر (٣٩) ، فأصبح ذلك الملك فى حال يرثى لها اذ فقد كل شيء ولم يعد له من السلطة غير اسمها ، فقد انتهب الأشراف كل ما له من أرض وخدم وقطعان ، وتقاسموها فيما بينهم ، ثم سخروا منه حين قام مطالبا باستردادها ، حتى ان الملاك الصغار الذين أقامهم حراسا على القلاع المتناثرة هناك تمردوا عليه وكانوا يشيعون بين آونة وأخرى نبأ موته (٤٠) ، الامر الذى لم يكن ذا أهمية سواء أكان حقا أم باطلا لكنه كان ذا أهمية للمنصور مشجعا له اذ ما الذى يستطيع عمله ضد هذا القائد القوى .

لا شيء مطلقا .

ألا أنه سرعان ما انتبه الى غفلته بعد سقوط استرقة (٤١) التي اتخذها عاصمة له بعد خراب ليون والتي لم يلبث أن غادرها حين اقترب العدو منها ، ثم أثر الحكمة والعقل فطلب الصلح فأجيب اليه على أن يسلمه عبد الله البطرشك وان يدفع جزية سنوية (٤٢) .

* * *

الظاهر أنه بعد أن أسلم كونتات كاريون عاصمتهم الى جوميز أخذوا ينكرون على المنصور سلطته فكر راجعا أخذوا معه الأمير عبد الله البطرشك البائس الذي قبض عليه في نوفمبر (٤٣) (= شوال ٣٨٥ هـ) . ولما كان المنصور يعلم من قبل بجرمه فقد اشتط في معاقبته فقيده بالسلاسل وأردفه على بعير (٤٤) وأمر أن يطاف به في شوارع العاصمة والمنايا يصيح أمامه (٤٥) : « هذا هو عبد الله بن عبد العزيز الذي أثار العدو على مصالح المسلمين » . فما كادت هذه الكلمات تطرق سمعه حتى أحس الخزي والعار وقال : « كذبت وأيم الله . . انما قل انه رجل طمع في الولاية ولم يكفر » .

ومع ذلك فقد كانت تعوزه الشجاعة الأدبية اذ نسي أنه ينبغي على مثله أن يتسلح بالشجاعة قبل الاقدام على المؤامرة ، فلما طرحوه في السجن خاف أن يأخذوه بعد قبل الى المشنقة فأبدى ضعة حطت من شأنه الرفيع ، وكانت عكس الصرامة التي أظهرها زميله (عبد الله) بن المنصور اذا اعترف في الأشعار التي بعث بها الى الوزير بأنه كان العوبة سخرت فيما حدث ، كما حاول أن يذهب غضب ابن أبي عامر فتزلف اليه وأطال ، فسماه بأكرم الرجال حتى لقه قال (٤٦) :

يا من برحماء استعنت وحق لي منه الغياث : علاك ، استرعني دمي

ونفعته هذه المذلة (٤٧) فأبقى المنصور على حياته لاستتصغاره قتل مثل هذا الشخص ، لكنه خلاه رهين الحبس الذي بقي فيه لم يبارحه الا حين مات المنصور ، فاسترد حريته يومئذ فقط (٤٨) .

الفصل الحادي عشر

المنصور يعمل على جعل نفسه الحاكم الأعلى ولكن فكرة
«الشرعية» تعترضه • صبح تقف في طريقه • زيري بن عطية
عامل الخليفة بالمغرب يرفع علم الثورة ضد المنصور • اطماع
زيري • صبح تبعث بالمال الى زيري سرا • المنصور يدبر الخطة
لضرب نفوذ صبح • نجاحه في استصدار مرسوم بتفويضه
تصريف الأمور • اعتراف صبح بضياع نفوذها • حملة المنصور
على شنت ياقب ثم على البرتغال • القبض على خطاب جاسوس
وكشف مؤامرة القوامس الليونيين • المنصور يعاود مهاجمة
زيري ونهايته •

الفصل العادى عشر

المنصور فى ذروة قوته

لما كان المنصور قد ولى الحكم منذ عشرين سنة فقد تطلع لان يجعل الحكومة فى بيته وأن يدعم حكمه بالطريق الشرعى على أن يظل من حوله جاهلين هدفه الذى كان يسعى اليه ، ولذلك اصطنع التانى والحكمة وسار فى خطوات حذرة وان شابها شئ من التوانى فى عيون البعض ، وفى عام ٩٩١ م تنازل عن لقب الحاجب لابنه عبد الملك وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز ثمانية عشر ربيعا واكتفى هو بلقب المنصور (١) ، فلما كان العام التالى أمر أن تختتم رسائل الديوان بخاتمه الخاص بدلا من خاتم الخليفة ، كما لقب بالمؤيد كنية الخليفة (٢) أيضا . وفى سنة ٩٩٦ م أمر ألا ينعت سواه بالسيد وسمى فى الوقت ذاته بالملك الكريم (٣) .

بهذا كله أصبح ملكا وان لم يصبح خليفة ، فما الذى كان يحول بينه — يا ترى وبين أن يصير هو الخليفة ؟

الثابت الذى لا مرأ فيه هو أن هشاما لم يكن مصدر خوفه ، فعلى الرغم من أنه كان لا يزال فى ريق الشباب لكنه لم يبد أية بارقة من النشاط أو يظهر أى ميل للتححرر من النير الذى كان يرسف فيه ، أضف الى ذلك أن المنصور لم يبعد يخشى أحدا من أقارب الخليفة الأمراء بعد أن دبر التخلص من أشدهم خطرا عليه ونفى الذين دونهم خطرا ، وجعل الباقين فى حال أشبه ما تكون بالمتربة (٤) .

أفهل يظن أحد بعد هذا كله أن تلقى خطته معارضة من الجيش . . . كلا فقد كان أغلب الجيش مؤلفا من البربر ونصارى الشمال والصقالبة والجند الذين أسروا فى طفولتهم (٥) . ومجمل القول ان هذا الجيش كان يتألف من مخاطرين من أجناس شتى وكلهم له تبع وهم طوع اشارته أنى وجههم ، فمن ذا الذى كان المنصور اذن يخشاه ؟

لقد كان يخشى الشعب .

لكن هذا الشعب كان لا يعرف هشاما بن الحكم بل لم يكن هناك غير قلة من الناس في العاصمة نفسها هي التي رآته ، لأنه كان في المرات النادرة التي كان يغادر فيها سجنه الذهبي الى قصوره الريفية كان يخرج محاطا بنساء قصره ، وكان هو مثلهن تماما مغطى ببرنس كبير حتى ليعجز المرء عن تمييزه من بينهن، وكانت الشوارع التي يمر فيها غاصة بالجنود تنفيذا لأمر الوزير ٠٠٠٠ ومع ذلك فقد كان هشام محبوبا من شعبه (٦) .

أليس هو ابن الحكم المستنصر الخليفة الطيب التقى ؟

ثم أليس هو حفيد البطل عبد الرحمن الناصر ؟

ثم أليس هو بعد ذلك كله الحاكم الشرعي ؟

لقد كانت فكرة الشرعية متأصلة في كل النفوس ، حية في قلوب العامة أكثر مما هي في نفوس الأشراف الذين يرجع أغلبهم الى أصل عربي والذين لا يستبعد أن يتخلوا عنها اذا كان في تغيير الأسرة فائدة تعود عليهم أو اذا كانت الضرورة تفرض هذا التغيير، بيد أن تفكير الأمة التي كانت ترجع الى أصل اسباني كان يناقض تفكير هؤلاء ، اذ كان شعورها الديني وتعلقها بالأسرة الحاكمة يؤلفان جزءا من كيائها ، وعلى الرغم من أن المنصور قد كسى الوطن بالفخار والرفاهية اللتين لم يكن يحلم بهما قط الا أن الشعب لم يكن ليفكر له بأى حال من الأحوال أنه جعل الخليفة أسيرا للدولة ، ولم تكن الأمة جمعاء لتتوانى عن الثورة على الوزير لو أنه حاول الجلوس على العرش ، ولم يغب ذلك كله عن فطنة المنصور ، غير أنه أخذ يمني نفسه بتحول الراى العام شيئا فشيئا ، ويطمح أن ينسى الشعب الخليفة نسيانا تاما ولا يفكر الا فيه هو وحده ، وحينذاك يتسنى له تغيير الأسرة الحاكمة دون حدوث أى اضطراب .

لذلك كان من الخير لابن أبى عامر أن يؤجل مشروعه الضخم ادراكا منه أن قوته معلقة بخيط واه ، فعلى الرغم من جميع ما أحرزه من الفتوحات والأمجاد الا أنه كانت هناك امرأة كادت أن تنجح في الاطاحة به واسقاطه ٠٠٠٠

تلك المرأة هي صبيح .

لقد أحبته ٠٠٠ لكن زمن العواطف العارمة كان قد انطوى من حياتهما معا ، فتخاصما ونضب الحب في قلوبهما وحلت مكانه الكراهية يضرهما

كل منهما للآخر ، ولم تكن صبيح بالمرأة المترددة التي تقف في منتصف الطريق اذا سلكت الطريق ، فقد كانت عنيفة في كرهها وحقدتها عنفها في عشقها وحبها ، فصممت على أن تسقط المنصور وتوسلت لتحقيق ذلك باثارة كل من في البلاط والحريم من الرجال والنساء ، وتحدثت الى ولدها هشام ذاكرة له أن الشرف يقتضيه أن يظهر بمظهر الرجال ، وأنه آن الأوان لتحطيم القيد الذي حاول الوزير الطاغية تقييده به .

وتمت على يدها المعجزة اذ نجحت في أن تبث القوة والنشاط في رجل كان من أكثر الرجال خمودا لكن ما لبث المستور أن انكشف للمنصور وسقط القناع عن المخفى فكان اذا لاقاه لاقاه متجهما ، بل لقد أسرف فلم يكن يتوانى عن تقريره ولومه ، فرغب الوزير في تجنب العاصفة وعمد الى ابعاد كثير من الاشخاص الخطرين في الحريم ، لكنه كان عاجزا عن اخراج من هي روح المؤامرة ، بل ان تدييره هذا أدى الى زيادة حنقها عليه ، ولم يكن التعب ليجد سبيلا الى تلك المرأة النفارية بل أظهرت أنها ذات ارادة حديدية كتلك التي لعشيقها القديم ، فأخذ جواسيسها يذيعون - أنى حلوا - أن الخليفة يرى أنه قد آن الأوان ليتحرر ويحكم بنفسه ، وانه يعتمد على وفاء شعبه الكريم في تأييده للتخلص من سجنائه ، بل لقد عبر رسل السلطنة المضيق [واجتازوا العدو ، وبلغوا افريقية] وفي اللحظة التي تجمع فيها العامة المشاغبون بقرطبة رفع زيري بن عطية - عامل الخليفة على بلاد المغرب - علم الثورة وأعلن أنه لم يعد في طوقه احتمال الألم الذي يشعر به تجاه أسرة الحاكم الشرعى على يد وزير طاغية .

كان زيري الشخص الوحيد الذي مازال المنصور يخشاه وظل يخافه طول حياته ، اذ كان من عاداته الاستخفاف بأعدائه تخويفا لهم ، ولما كان هذا الزعيم نصف بربرى فقد ظل محتفظا في صحرائه الافريقية بصفات جنس انقرض ، وأعنى بهذه الصفات البطش والعزم والصلف ، ومع ذلك فقد تحمل المنصور نفوذ هذا الرجل الشديد الصولة ، وحدث أن استضافه منذ عدة سنين وأكرم وفادته تقديرا لمكانته ولقبه بالوزير ووصله بالمال الوفير الذي يناسب هذا اللقب ، ودون جميع أتباعه في ديوان الجند ، غير ان زيري لم يشأ الرحيل حتى يعوضه النفقات وهداياه اليه ، ولم يكن لما أحاطه به المنصور من أثر في نفسه اذ ما كاد يعود الى الأرض الافريقية حتى رفع يده الى رأسه وصاح (٧) : « الآن علمت أنك لى » ، ثم ناداه أحد رجاله بالوزير فنهاء عن هذا النداء وقال له : « ويحك ٠٠٠ وزير ؟ ٠٠٠٠ والله أمير ابن أمير ، واعجبى من ابن أبى عامر ومخرقته ، لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، ولو كان بالاندلس رجل ما تركه على حاله » .

وعلم المنصور بهذه الكلمات التي كانت كافية لاطاحة رأس أى شخص آخر لكنه تظاهر بعدم الاهتمام بها ، وما لبث أن عين بنفسه زيرى عاملا للخليفة على جميع بلاد المغرب ، وذلك بالرغم من خوفه منه وكراهيته له ، ولكنه كان يعتقد فيه الوفاء والصراحة . غير أن هذا الحادث أظهر له فساد حكمه اذ لم تكن صراحة زيرى ولا جفاف طبعه سوى قناع يخفى تحته كثيرا . من الطمع والحق ، لذلك سهل على صبح اغراؤه بالمال ليقوم بدور البطولة الذى رسمته له ، ولعله كان يريد اطلاق سراح مولاة من أسر المنصور ليكون فى أسر هو .

لم تكن صبح بالتى تجهل وجوب البدء بتقديم المال اليه ، ودلها دهاؤها . الاثوى على الوسيلة التى تعتمد اليها فى الحصول على المال ومدحها فيها . به ، ولما كانت تعرف أن بخزينة القصر ما يقرب من ستة ملايين دينار فقد أخذت منها ثمانين ألفا وضعتها فى مائة كوز وغطتها بالشهد والمرى وبعض السوائل المنزلية وألصقت على كل جرة ورقة باسم ما فيها ، ثم عهدت الى جماعة من الصقالبة بحملها الى مكان سمته لهم خارج المدينة ، ونجحت حيلتها . فلم يخامر الوزير شك ما ، فترك الصقالبة يمرون بأحمالهم ، وبينما كان المال فى طريقه الى المغرب اذا بالمنصور يعلم بالخبر بطريقة ما فاشتد اضطرابه شدة ما كان لها أن تكون لو كان يعلم أن صبحا اختلست مال مولاة السلطان هشام ، لكن الأمور جميعها كانت تحمله على أن تدبرها . المال كان يعلم من الخليفة مما يجعل ما جرى خطيرا خطورة تحتم عليه القيام بعمل شئ مضاد ، وسرعان ما عقد اجتماعا دعى اليه الوزراء وكبار العلماء وسواهم من أصحاب الكلمة من رجال البلاط ووجهاء البلد ، وأفضى اليهم أن نساء الحريم سولت لهن أنفسهن الاستيلاء على أموال بيت المال دون الخليفة نظرا لانصرافه التام الى واجباته الدينية ، وطلب اليهم أن يخولوه السلطة فى نقل الأموال الى مكان مأمون فأجيب الى ما طلب وان لم يؤد ذلك الى نتيجة حاسمة ، اذ جاء عماله الى القصر لنقل الخزينة فحالت صبح بينهم وبين ما يريدون زاعمة أن الخليفة يمنعهم من ذلك .

وأوقع فى يد المنصور ماذا يفعل !!

أهلجؤ الى القوة ؟ .. لو أنه فعل ذلك لكان هذا عملا موجها ضد الخليفة ذاته .

واذا حاول المنصور الذهاب الى هذا الحد فسوف تعصاه العاصمة فى طرفة عين : تلك العاصمة التى تتطلع الى الثورة ولا تنظر الا اشارة من الخليفة .

على أنه مهما كانت خطورة الموقف إلا أنه لم يصل الى حد اليأس .
طالما لم ينزل زيرو بجيوشه في أسبانيا ، وطالما لم يظهر الخليفة بمظهر
الرجل القادر على تصريف الأمور بنفسه .

وهكذا لم يفقد المنصور شجاعته مادام زيرو في افريقية وما دام
الخليفة روحا بلا معنى ، لذلك خاطر المنصور بالمهم في سبيل الأهم فغافل .
صباحا واحتال على مقابلة الخليفة وتحدث اليه ، وما لبث ابن أبي عامر
بعد هذا اللقاء ان استعاد قوته كملك بفضل هذا النفوذ الذي تمليه
الشخصيات القوية على الشخصيات الضعيفة ، فقد اعترف الخليفة بعجزه
عن الحكم بنفسه ، وقوض للمنصور السلطة في نقل الخزينة .

لكن ذلك لم يكف المنصور بل راح يحث الخليفة على اصدار مرسوم
كتابي بذلك ، وبهذا تقطع جبهة قول كل خطيب فوعده الخليفة بكل
ما أراد ، واذا ذاك دفع اليه ابن أبي عامر مرسوما يقضى بأن يترك له هشام
تدير جميع الشئون كما كان الأمر في الماضي ، فوقعه الخليفة في حضرة
الكثيرين من رجال الدولة البارزين الذين صادقوا على خاتمه وكانوا شهودا
على ما فعل ، وكان ذلك في فبراير أو مارس سنة ٩٧٧ م ، سعى المنصور
اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى انقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

أمن المنصور منذ ذلك الوقت اندلاع الثورة في العاصمة .
اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى انقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

ومع ذلك فقد أدرك الوزير أنه يجب عليه ارضاء الجمهور الذي كانت
صيححاته تتعالى بلا انقطاع ملحة في رؤية سلطانه ، فرأى المنصور أن يحقق
للعامة طلبها فأركب هشاما جوادا شق به شوارع العاصمة والصولجان في
يده وقلنسوة الخلفاء الطويلة على رأسه ، وسار معه المنصور وجميع رجال
البلاط ، واكتظت الطرق بالجموع الكثيفة ولم يختل النظام أبدا ولم تطرق
الآذان قط صيحة شغب (٨) .

واعترفت صبح بهزيمتها ، وأصبحت حزينة مغلوبة على أمرها محطمة
النفس ، فراحت تنشد في العبادة سلو الماضي والعوض عن آمالها
الضائعة (٩) .

بقي هناك زيرو الذي تضاعف خطره منذ أن فقد نصرته الخليفة له
والأموال التي كانت تمدد صبح بها، ولم يعد المنصور يرى سبيلا للتفاهم

معه بل عده خارجا على الدولة الشرعية وعهد الى عبده الطليق واضح بالخروج لمحاربته على رأس جيش عظيم وضعه تحت امرته (١٠) .

ربما يستبعد البعض قيام المنصور بحرب أخرى قبل أن يفرغ من حرب المغرب ، لكن جرت الأمور على غير ما يتصور أحد ، اذا غتنم برميدو فرصة انشغال الوزير بثورة زيرى فقطع الجزية ، لذلك دبر المنصور مع اتباعه الكونتات الليونيين حملة عظيمة ضده ، ولعل اصراره على خروجها اليه - رغم الظروف المحيطة به - يرجع الى رغبته فى أن يدرك زيرى وبرميدو وجميع أعدائه الظاهريين والخفيين أن فى قدرته النهوض بحربين فى وقت واحد واذا كان هذا هو مقصده فانه لم يكن مبالغا فى ثقته بقواته اذ قدر لهذه الحملة التى كان مقدما عليها - وأعنى بها حملة شنت بإقرب دى كومبستل - أن لا تدانيها فى شهرتها حملة مما قام به خلال عصر فتوحه الطويل .

ونحن اذا استثنينا المدينة الخالدة روما فليس فى أوروبا قاطبة مكان يبرز فى قدسيته شنت بإقرب بغاليسية ، ومع ذلك فليست هذه الشهرة بالقديمة اذ أنها لا ترجع الى أبعد من عصر شارلمان ، اذ يقال انه فى أثناء هذه الفترة أن أفضى كثير من الجماعات المتدينة الى تيودومير اسقف ايزيه (المعروفة اليوم باسم el Padrom) أنهم رأوا فى غيبش الظلام أضواء تخطف الأبصار تلتهم فى غيضة ، كما ترمى الى سمعهم موسيقا شجية ليست من أهل الدنيا ، وسرعان ما عدها الأسقف معجزة ، وتأهب ليتأكد بنفسه عما حدثوه به ، فعكف على الصوم والصلاة ثلاثة أيام سويا مضى بعدها الى الأجمة فاذا به أمام قبر من الرخام فأوحى اليه كما قال ان يعلن أنه لابد وان يكون للحوارى يعقوب بن زبدي الذى كان تزعم الأسطورة أنه بشر بالانجيل فى اسبانيا ، ومضى فأضاف الى ذلك أنه لما أمر هيرودوس بضرب عنق هذا الحواري فى بيت المقدس حمل تلاميذه جثمانه الى غاليسيه ودفنوه بها ، ولو قدر لهذه الرواية أن تكون فى غير هذا الوقت لكانت موضع جدل وحجاج وانكار ، أما والمصر عصر ايمان ساذج فلم يكن أحد يتشكك فيما يقول القسيس حتى ولو كان ما يقول مناقضا للواقع والعقل ، ثم ما لبث البابا ليو الثالث (١١) أن أعلن على رؤوس الاشهاد أن القبر المذكور هو قبر القديس يوحنا ، فكان هذا البيان خاتمة كل بيان ، وآمن الناس بما زعمه تيودومير ، وراح أهل غاليسيا يتباهون بأن عظام أحد الحواريين موجودة تحت ثرى أرضهم حتى ان ألفونسو الثانى أراد أن تكون اقامة أسقف ابريه منذ ذلك الوقت فى تلك البقعة التى اكتشف فيها القبر ، وشيدت على الضريح كنيسة ثم جاء بعد ذلك ألفونسو

الثالث (١٢) فبنى أخرى تتيه على سابقتها فى روعتها وحسنها ، واكتسبت شهرة فائقة بفضل ما قيل عن المعجزات الجمة التى جرت بين جدرانها ، وما أوشك القرن العاشر على الأفول حتى أصبح ضريح القديس يوحنا كومبستل مزارا ذائع الشهرة يحج إليه الناس من جميع الجهات وشتى النواحي ، ويقصده القوم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا بل وأقصى ربوع الشرق (١٣) .

وذاع فى كل بقاع الأندلس أيضا أمر يوحنا الرسول وخبر كنيسته الفخمة التى يقول فيها أحد المؤلفين العرب « انها كانت عندهم بمنزلة الكعبة فى الاسلام ، يحجون إليها من أقصى بلاد روما وما وراءها (١٤) » ، غير أن الأندلسيين لم يعرفوا هذا الاسم الا سماعا ، اذ لو أراد أحدهم رؤيته لأسره الغاليسيون ، ومن ثم لم يفكر أبدا أى عربى أن يقود جيشا يقتحم به هذا البلد النائي ، الصعب المرتقى .

ولما لم يكن ذلك الخاطر قد مر قط ببال أحد ما فقد صمم المنصور على اقتحامه ، وأراد أن يظهر للملأ أن المستحيل على غيره ليس بالمستحيل عليه هو ، وطمع فى تخريب أعظم المذابح قداسة عند أعداء الاسلام الا وهو مذبح الحوارى الذى يزعم أهل ليون أنه طالما حارب فى صفوفهم .

وفى يوم السبت ٣ يوليو ٩٩٧ م (= ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ) غادر المنصور قرطبة على رأس فرسانه فحمل أولا على قورية ، ثم على بازة (١٥) حيث انضم إليه عدد كبير من القوامس المعترفين بسيادته عليهم ، ثم حمل على برتقال حيث كان ينتظره أسطوله الذى أبحر من باب قصر أبى دانس المعروف اليوم فى البرتغالية باسم : Alcacero de sol حاملا على ظهره المشاة الذين تخلصوا من مشقة السير الطويل ، وكان الأسطول مجهزة بالسلاح والذخيرة ، ثم ضمت السفن بعضها الى بعض فتكون منها جسر عبر عليه الجيش نهر دويرة .

ولما كان الاقليم الواقع بين هذا النهر وبين نهر منهو فى أيدي كونتات محالفين للمسلمين (١٦) فقد عبره المسلمون دون أن تقابلهم أية عقبة سوى الأراضى الصعبة العبور ، من ذلك أنه كان يوجد جبل شاهق الارتفاع صعب المرتقى غير أن المنصور عبده فيه طريقا بأيدي الفعلة بالحديد (١٧) .

بعد أن اجتاز القوم وادى منيه وجدوا أنفسهم فى أرض العدو ومن ثم كان عليهم أن يكونوا يقطين كل اليقطة ، الا أن أكثرية الليونيين الموجودين

فى الجيش لم تكن مطمئنة تماما ، فقد تيقظت ضمائرهم فجأة بعد طول سكون ، فتذكروا أنهم ذاهبون لاقتراف جريمة شنعاء وكادوا أن يحبطوا الحملة لولا أن سمع المنصور بما دبروه فعالج الموقف قبل أن يفلت الزمام ، ويضيع الوقت ، واليك ما قيل فى هذا الصدد :

كانت ليلة شديدة البرد عاصفة الريح غزيرة المطر ، فدعا المنصور أحد فرسانه وقال له : « انهض الآن الى فيج طليارش (١٨) وأقم فيه ، فأول عابر يمر بك سقه الى » ، فمضى الفارس فى لحظة لطيته حتى بلغ الفيح وقضى الليل بطوله منتظرا لعنا ما هو فيه دون أن يرى أى شىء فيه حياة ، وأوشك الفجر أن يشرق حين لاح له من جانب المعسكر شيخ هرم يمتطى حمارا ، ويظهر على الرجل أنه خطاب اذ كان يحمل آلة الخطب ، فاستوقفه الفارس وسأله عن وجهته فأجابه الآخر : « وراء الخطب » - فلم يدر الجندي ما يفعل به فقال فى نفسه : « هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يروم خطبا فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ » .

ثم تركه يمضى لحال سبيله ، لكنه ما لبث أن تراجع عن رأيه متذكرا أن أوامر المنصور صريحة باتة ، وأن فى عدم اطاعتها خطرا عليه ، ومن ثم أعمل الجندي مهمازه فى دابته حتى أدرك الخطاب الكهل وقال له : « ارجع الى مولانا المنصور » فسأله الرجل : « وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ ... سألتك بالله أن تتركنى لطلب رزقى » فقال الفارس : « لا أفعل » وهكذا اضطر الرجل لاطاعته وعاد الى المعسكر .

لم يبد على الوزير الذى لم تغض له عين أى مظهر من مظاهر الدهشة ان يسوق اليه الفارس كهلا كهذا الكهل ، بل قال لمن حوله من خدمه الصقالبة : « فتشوه » فامتثل الصقالبة لأمره فلم يجدوا معه ما يريب فقال لهم المنصور : « فتشوا برذعة حماره » وفى هذه المرة لم تذهب شكوكه عبثا اذ وجدوا فى السرج رسالة كتبها بعض الجليقيين الذين فى الجيش الاسلامى الى مواطنيهم يدلونهم على ناحية ضعيفة من المعسكر ، ويذكرون لهم أن النجاح حليفهم ان هاجموا منها ، فلما وقف المنصور على ما فى الرسالة وعرف منها اسماء الخونة أمر فأطيحت رقابهم فى الحال ومعهم الخطاب الوسيط بينهم وبين اخوانهم فى الخارج (١٩) . وكان لهذه الخطة الحكيمة أثرها الناجع فقد جزع الليونيون الآخرون من بطش القائد فلم يعودوا يفكرون فى مثل هذا الأمر والاتصال بالعدو .

وتابع الجيش زحفه منسابا انسياب السيل الجارف فخرّب فى طريقه ديرى القديسين « كوزمو » و « داميان » واستولى على حصن.

شنت بلاية ، ولما كان عدد كبير من سكان البلد قد فروا إلى أكبر الجزيرتين ملتجئين إليها أو على الأصح إلى إحدى الصخرتين المنخفضتين الموجودتين في خليج « فيجو » فقد تعقبهم المسلمون بعد أن خاضوا مخاضة اكتشافها فعبروها إلى هذه الجزيرة وأخذوا ممن بها كل ما حملوه معهم ثم عبروا إلى « آيلة » سالبين مخربين إيرييه (البدرين) نفسها التي كانت محجاً شهيراً لوجود الحواري حنا دى كومبستل بها . ثم وصلوا إلى هذه المدينة الأخيرة في شهر أغسطس فوجدوها خالية من السكان الذين آثروا الهرب حين سمعوا بقدوم العدو ، فلم يجد المسلمون غير ناسك عجوز كان مقيماً بجوار قبر الحواري فسأله المنصور : « ما ذا تعمل هنا » فقال الشيخ : « أوتس يعقوب » فقال له المنصور : « أقم على ايناسك » ، وكف عنه كل أذى .

وأقام المنصور حامية على القبر حتى لا تمتد إليه أيدي جنده وهم في سكرة جنونهم .

أما بقية البلد فقد دكها عن آخرها ، وحطم أسوارها وبيوتها بل وكناثسها التي يقول بصندها أحد المؤلفين العرب ان النزول على شنت ياقب كان يوم الأربعاء فغودرت هشيما كان لم تغن بالأمس .

ومضت القوات الخفيفة فخربت ما جاورها وسارت قد ما حتى بلغت شانت مانكش القريبة من كورون .

بعد أن أمضى المنصور أسبوعاً في شنت ياقب أمر الجند بالرجوع إلى ليجو (٢٠) ، فلما بلغها أذن لحلفائه القوامس بالرجوع بعد أن وصلهم بالهدايا الجميلة لا سيما الأثواب الغالية ، ثم فصل خبر حملته في كتاب بعث به إلى البلاط ، وهو قصة حفظ لنا المؤرخون العرب مادتها بل وربما نص الفاظها (٢١) ، ثم دخل قرطبة وفي صحبتته جماعة من أسرى النصاري حاملين على أكتافهم أبواب مدينة شنت ياقب ونواقيس كنيسيتها .

فأما الأبواب فقد وضعت في الجامع الذي لم يكن قد فرغ من انشائه حتى ذلك الوقت (٢٢) ، وأما النواقيس فقد علقت في سقف البناء مستعملة كمصاييح (٢٣) .

اذن فمن ذا الذي كان يجول بخاطره يومذاك أنه سيأتي يوم يقوم فيه ملك مسيحي يرد هذه النواقيس إلى غاليسية عبي أكتاف الأسرى المسلمين ؟

★ ★ ★

أما في المغرب فكان حظ جيوش المنصور أقل سعدا .

حقيقة أن واضحا أصاب بعض النجاح في مبدأ الأمر حيث استولى على أصيلة ونكور ، ونجح في مباغته معسكر زيري ليلا ، وقتل كثير من رجاله ، لكن لم يلبث التوفيق أن جافاه فحاقته به الهزيمة حتى اضطر للفرار إلى طنجة حيث وجه رسالة للوزير يطلب منه إنجاده بالامدادات . حال استلامه الكتاب ، فلم يكد المنصور يتسلم كتاب قائده حتى أنفذ عددا كبيرا من الجند إلى الجزيرة الخضراء ، وأسرع في العمل على إبحارهم ورافقهم بنفسه إلى هذا الميناء ، وعهد إلى ابنه عبد الملك المظفر بقيادة الحملة فعبر المضيق على رأس جيش فخم أرسى به في سبتة ، وكان لخبر وصوله تأثير عظيم إذ بادر أغلب البربر الموالين له بالانضمام إلى لواء عبد الملك الذي سار بجميع من معه بعد انضمام واضح بجنده إليه ، وسرعان ما التحموا بجيش زيري الذي كان يزحف لمحاربتهم ، وجرت بين الجانبين وقعة في شهر أكتوبر سنة ٩٨٨ م ، استمرت من شروق الشمس إلى مغيبها ، وحمى وطيس القتال ، وبينما جند المظفر على وشك الهزيمة إذا بزيري يطعن في ثلاثة أماكن بيد عبد كان زيري قد قتل أخاه من قبل ، ثم فر القاتل إلى المظفر مفضيا إليه بما كان منه من قتله زيري ، فشك الأمير بادئ ذي بدء في كلام الرجل الهارب إليه ، إذ كانت راية زيري لا تزال منصوبة ترفرف ، فلما تأكد عنده صدق مقاله كر على العدو كرة شديدة وظهر عليه .

منذ ذلك الوقت تلاشى سلطان زيري ودخلت أملاكه جميعها في حوزة الأندلسيين ، وما لبث جراحاته التي أصابه بها العبد أن نغلت فمات (٢٤) .

وكان ذلك سنة ١٠٠١ م (= ٣٩٢ هـ) .

الفصل الثامن عشر

حملته على قشتالة • مرضه • وصاته الى ولده
عبد الملك • موته • مجمل القول فيه • قوة جيشه وهيبه
الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم •
الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم • صاعد الأندلس
البغدادى • أخلاق المنصور •

الفصل الثانى عشر

خاتمة المنصور

فى ربيع ١٠٠٢ م قام المنصور - وقد اقتربت نهايته - بآخر حملة لله ، وكان يتمنى على الله دائما أن يلقى ربه ومنيته فى ساحة الوغى ، وكان شديد الايمان باجابة دعائه هذا ، حتى لقد كان يستصحب معه على الدوام كفنه الذى خاطته له بناته ، ولم يدفع فى هذا القماش غير المال المحمول اليه من ضيعته المحيطة ببيته الموروث فى « طرش » ليكون منزها عن كل حرام ، وأمر الا يدفع فيه شئ من مال متحصل عليه من غير هذا الوجه ، وكلما دنى من الشيوخه ازداد تعبدا ، ولما كان القرآن الكريم يشير الى أن الله عاصم من النار وجوه الذين عفروا أقدامهم بتراب الجهاد فقد جرت عادة المنصور - كلما بلغ محلة من المحلات - أن يبادر الى جمع ما يكون قد علق بثيابه من التراب ويحتفظ به فى صرة أعدها لهذا الغرض وحده . ولما حضرته المنية أمر أن يجعلوا هذا التراب معه فى لحدده عسى أن تكون المشقة التى تكبدها فى جهاده شفيعا له عند رب العرش (١) .

ولقد تكللت بالنصر حملته الأخيرة التى شنّها على قشتالة شأنها فى ذلك شأن جميع حملاته السالفة ، وتوغل حتى بلغ Canales (٢) ، ودك دير القديس أملين حامى قشتالة ، كما خرب قبل ذلك بخمس سنوات كنيسة حامى غاليسية .

وفى أثناء عودته اشتد به المرض ، ولما كان سىء الظن بأطبائه الذين لم يتفقوا على تشخيص كنه علته أو كيف يكون برؤه منها فقد أصر على رفض كل ما أشاروا به عليه من علاج ، يقينا منه بأنه غير ناج من الموت ، وقعد به الداء حتى أعجزه عن امتطاء جواده فحمل فى محفة وقاسى الآلام الشداد حتى كان يقول : « ان زمامى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح فيهم أحد أسوا حالة منى » .

وظل ابن أبى عامر محمولا على ظهور الرجال أربعة عشر يوما حتى أدرك مدينة سالم ، لا يشغل باله سوى خاطر واحد هو أن سلطته كانت مضطربة على الدوام غير ثابته الدعائم وتقابل بالمعارضة ، وعلى الرغم من انتصاراته الجمة وشهرته المدوية الا أنه كان يخشى حدوث ثورة بعد موته تطوح بكل ما لأسرته من البأس ، واستبد به هذا الخاطر فعكر عليه صفو أيامه الأخيرة فدعى الى سريره ابنه البكر عبد الملك وألقى اليه بتعاليمه ووصاياهم .

لقد أوصاه أن يكل قيادة الجيش الى أخيه عبد الرحمن أما هو فيمضى الى قرطبة ليأخذ أزمة الأمور فى يديه ، وأن يبادر الى قمع كل محاولة يراد بها إثارة الفتنة ، فوعده عبد الملك باتباع نصائحه والعمل بارشاداته ، غير أن اضطراب المنصور كان قد بلغ درجة وصل الأمر معها أنه كلما هم ولده بالعودة - حين يحسب أن أباه قد فرغ من حديثه - أرجعه المنصور اليه خوفا من أن يكون قد نسى شيئا ، ولم يكن يعلم فى كل مرة نصيحة يضيفها الى ما سبق أن أوصاه به ، وحدث أن بكى الشاب قنهره أبوه وأنبه على جزعه الذى عده فاتحة خور ، ولما انصرف الابن عبد الملك استجمع المنصور قواه بعض الشيء ودعى اليه قواده الذين كادوا أن ينكروه لشدة هزاله واصفرار وجهه حتى لاح كأنه الشبح ، وكاد أن يفقد القدرة على الكلام فودعهم بحديث لا يبين أكثره ، وعمد الى الإشارة يفسر بها ما عجز لسانه عن الافصاح به ، ثم لم يلبث أن لفظ نفسه الأخير فى مساء الاثنين العاشر من أغسطس (٣) (= ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ) ، ودفن فى مدينة سالم وقد نقش على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبىك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبدا، ولا يحمى الثغور سواه (٤) .

أما الكلمة التى أودعها راهب مسيحي فى حوارياته فلم تكن أقل بيانا عن هذين البيتين اذ يقول فيها « فى سنة ١٠٠٢ م ، مات المنصور وذهب الى الجحيم (٥) » .

ولا شك أن هذه الكلمات البسيطة التى أملتها على الراهب كراهيته لعدو موحد فى الثرى هى أفصح فى تقدير مكانته من المرائى الطنانة التى قيلت فيه .

والواقع أنه لم يكن لنصارى الجزيرة خصم كهذا الخصم ، فقد شن المنصور عليهم أكثر من خمسين حملة (اذ كان من عادته أن يغزو غزوتين كل سنة ، أحدهما فى الربيع والأخرى فى الخريف) ، وقد خرج منها

كلها ظافرا ، واذا أسقطنا من حسابنا ما هدمه من البلدان التي كان من بينها ثلاث عواصم هي ليون وبانبلونة وبرشلونة (٦) فقد خرب كذلك هيكل حامبي غاليسية وقديس قشستالة ، ويقول أحد المؤرخين (٧) النصاري : « في هذا الوقت البعيد اندثرت العبادة الربانية من اسبانيا وتضاءل كليا مجد خدام المسيح ، ونهبت أموال الكنيسة المتجمعة خلال عدة قرون » .

ولقد أصبحت قلوب النصاري ترجف لذكر اسمه ، وطالما أنقذه هذا الذعر الذي بثه فيهم من أخطار دفعته اليها جراته حتى لم يكونوا يجرؤون على الانتفاع بالظروف التي يتهيأ لهم فيها أن يكون تحت أيديهم وفي متناولهم ، فقد حدث ذلك مرة أن سلك شعبا ضيقا بين جبلين شاهقين ودخل في أرض العدو ومضى جنده ينهبون ويخربون ذات اليمين وذات الشمال ولم يجسر المسيحيون على النهوض اليهم لمقاومتهم ، فلما قفل المنصور راجعا رأى أعداءه قد استولوا على ذلك الممر وعدم المسلمون الوسيلة لدفعهم ، وأدرك ابن أبي عامر حرج موقفه فدبر خطة حازمة وظل يبحث حتى هداه البحث للعثور على ناحية ملائمة ابتنى بها عدة دور ومنازل ، ثم أمر بضرب رؤس جماعة من الأسرى وتكديس جثثهم لتكون متاريس ، ولما أخذ فرسانه يذرعون البلد ولم يجدوا طعاما أمر بجمع آلات الحرث وطلب اليهم فلاحه الأرض ، فاشتد جزع أعدائه من تلك الاجراءات العظيمة التي أدركوا منها أن المسلمين عاقدون العزم على ألا يبرحوا بلدهم هذا ، فترددوا عليه يسألونه الصلح وأن يخرج غانما بما أصاب ، فرفض المنصور هذا العرض قائلا : « ان أصحابي أبوا أن يخرجوا ، وقالوا انا لا نكاد نصل الى بلادنا الا وقد حان وقت الغزوة الأخرى ، فلنقعد هاهنا حيث نحن الى ان يحين وقت الغزو ، فاذا غزونا عدنا الى بلادنا » .

وبد عدة مفاوضات أذعن النصاري ورضوا أن يذهب المنصور بغنائمه ، ودفعهم ذعرهم منه الى أن تكفلوا له بمده بدواب الحمل لنقل ما غنمه ، وبالميرة حتى يبلغ الأطراف الاسلامية ، وتعهدوا أن ينحوا الخيف التي تسد عليه الطريق (٨) .

وحدث في مرة من مرات العودة من إحدى الحملات أن نسي حامل الراية رايته وتركها مركوزة على قنة جبل مشرف على إحدى المدن المسيحية فظلت الراية مكانها أياما لم يجرؤ النصاري على التقدم نحوها ليروا هل رحل المسلمون أم لا زالوا مقيمين (٩) .

ويقال أيضا ان رسولا من قبل المنصور وصل الى بلاط غرسية ملك تفارة فبولغ في الحفاوة به ، ثم وجد في إحدى الكنائس عجوزا مسلمة ذكرت

له أنها أسرت في صباها ولا زالت رهن الأسر في تلك الكنيسة ، وتوسلت إليه أن يروى للمنصور خبرها فوعدها الرسول الذي قص على الوزير خبر سفارته ، فلما فرغ من تقريره سأله المنصور عما اذا كان قد أبصر في نفارة أمرا استنكره فأقضى اليه بخبر الأسيرة المسلمة ، فصاح به المنصور « ويحك ... كان عليك ان تبندرنى بهذا الخبر » ، وجهاز في لحظته حملة تقدمت الى حدود نفارة ، فاشتد جزع غرسية وأنفذ اليه في ساعته رسالة يستفسره فيها عما اقترف من الذنب لأنه لم يكن يرى أنه جاء بشيء يهيج حفيظته ، واذا قال الوزير للرسول الذين حملوا اليه هذا الخبر : « كان قد عاقدني ألا يبقى بأرضه أسيرا : ذكرنا كان أو أنثى ، وقد بلغنى بعد مقام فلانة بتلك الكنيسة ، والله لا أنتهى عن أرضه حتى أمسحها » .

فلما وقف غرسية على جواب المنصور بادر فأرسل اليه المرأة التي طلبها وكذلك آخرتين هداه اليهما البحث ، وأقسم في الوقت ذاته أنه لم ير أبدا هؤلاء النسوة ، ولم يبلغه خبرهن من قبل ، وأعلمه أنه أمر بهدم الكنيسة التي أشار اليها المنصور (١٠) .

★ ★ ★

ور مبعث خوف لأعدائه كما كان معبود جنده الذين يعدونه أبا يسهر على اجابة طلباتهم ويعنى بهم على الدوام ، الا أنه كان مع ذلك على جانب شديد من الصرامة البالغة في كل ما يتعلق بالنظام الحربى ، ذات يوم وهو يستعرض الجند سيفاً يلعب بأقصى الساحة في ساحة من ساحة ، وسرعان ما استقدم اليه صاحبه وسأله وهو يضطرم غيظاً « ما حملك على أن تشهر سيفك في مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟ » ، فأجابه الجندي مضطرباً « انى أشرت به على صاحبي مغمدا فدلقت من غمده » فقال له المنصور : « ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ثم التفت الى حاشيته وقال : « ليتقدم أحدكم فيضرب عنق هذا الجندي بسيفه ، وليطف برأسه ، وينادى عليه بذنبه » .

على هذه الصورة استطاع المنصور أن يوجد بين الجند نوعاً من الخوف الملائم ، فكانوا اذا مر بهم مستعرضاً اياهم حلق الصمت على رؤوسهم حتى ليقول أحد المؤلفين المسلمين « ان الخيل لتمثل أطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحممة (١١) » .

ولقد بلغت اسبانيا زمن المنصور من القوة درجة لم تنهياً لها أبداً من قبل حتى ولا زمن عبد الرحمن الناصر ، ويرجع الفضل في ذلك الى الجيش الذى أنشأه المنصور ودربه على الطاعة والاحكام والاحكام ، ولم

تقتصر خدمة المنصور على هذه الناحية فحسب بل لقد كان يعمل على نشر الحضارة وأدى لها خدمات جمة .

فلقد أحب المنصور النهضة الفكرية وشجعها ، وعلى الرغم من أن هناك بعض ظروف سياسية خاصة أجبرته على التشدد مع الفلاسفة إلا أنه كان لا يتوانى عن حمايتهم مادام ذلك لا يحرك غضب الفقهاء ، من ذلك مثلا ما حدث من القبض على ابن الشبانسى (١٢) والزج به فى السجن بتهمة الزندقة التى شهد عليه بها الكثيرون ، ورأى الفقهاء الحكم عليه بالموت ، وبينما هم على وشك قتله اذا بفقيه محترم هو ابن مكوى (١٣) (وكان كبير مفتيى قرطبة) يصل بأقصى سرعة وكان قد رفض المشاركة فى محاكمته ، وكان الفضل لطيبة قلبه أكثر مما لمنطقه فى تخليص ابن الشبانسى من الموت رغم المعارضة الشديدة التى أبداهها القاضى (١٤) الذى كان يرأس المحاكمة ، ورأى المنصور اذ ذاك الفرصة لصب غضبه على ابن السريع ووضع حد لتزمت المتدينين البالغ ، فقال ان الواجب يقتضيه تدعيم الدين ، وسيجد كل صادق الايمان عونته ، أما القاضى ابن السريع فقد بذل غاية جهده ضد ابن الشبانسى فأخفق ، ولذا يجب اهدار دمه حتى لا يفترى على غيره (١٥) . غير أن هذا القول منه لم يكن سوى مجرد تهديد فقد زج بالقاضى بضعة أيام فى الحبس ثم أطلق سراحه بعد أن أدرك وجوب الحد من قسوته ومغالاته على أولئك المفكرين المنكودين المتحررين من الآراء الموروثة .

ووجد رجال الأدب من المنصور أجمل العطف فكان فى بطانته جماعة من الشعراء الذين كان يجرى عليهم الرواتب الكبيرة وكثيرا ما رافقوه فى حملاته ومن بينهم « صاعد البغدادى » (١٦) الذى كان أشد الشعراء ظهورا وأكثرهم تسلية وان لم يكن أبدعهم قريحة فى الشعر ، ولا يمكن للمرء أن ينكر أنه على الرغم من كراهية الأندلسيين للطوائى عليهم إلا أنهم لم يستطيعوا أن ينكروا عليه براعة الناظم وخيال القصاص وبداهة المرتجل ، وان كان فى الوقت ذاته قليل الاحترام للحقيقة ، وكان أجسر محال يمكن للمرء أن يتخيله .

كان صاعد اذا شرع فى الكلام استرسل واستحال ايقافه ، واذا ذاك يغرق سامعيه فى سيل من الأعاجيب وكلما سئل عن معنى كلمة لا توجد فى اللغة عمد الى ايراد بيت ينسبه لشاعر قديم ، فكان يخيل لسامعه أنه لم يوجد قط كتاب لم ينظر صاعد فيه ، وقد أراد الأدباء كشف ستره

فأطلعوه ذات يوم - وهو فى حضرة المنصور - على كتاب أبيض الصفحات رقموا على الصفحة الأولى منه عبارة « كتاب النكت لأبى الغوث الصنعانى » ، ولم يكن هناك كتاب بهذا العنوان ، ولا كاتب يعرف بأبى الغوث الصنعانى ، لكن ما كاد صاعد يطالع العنوان حتى صاح بهم : « أى والله قرأته بالبلد الفلانى » ثم قبله فى احترام وذكر اسم البلد الذى ادعى أنه قرأه فيه والشيوخ الذين قرأهم وقال له : « ان كنت قرأته كما تزعم فعلام يحوى ؟ » ، فأجابه « وحق أبىك ليس فيه شعر ولا خبر » ، فانفجر الجميع ضاحكين منه سخريه به .

وحدث فى مرة أخرى أن وصلت المنصور رسالة من عامل له يدعى « برمان بن يزيد » يسأله فيها عن « القلب والتزبيل » ، أى « الزرارة والتسميد » فقال لصاعد : « هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب القوالب والزوالب لبرمان بن يزيد » فأجابه صاعد : « والله ، رأيت فى بغداد فى نسخة لأبى دريد بخط كأكرع النمل » ، فى جوانبها علامات الوضاع » ، فقال له المنصور : « أما تستحى أباه العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا واسمه كذا ، يذكر فيه كذا ، وانما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ، ونسبتها لعاملى لأخبرك » . فقال صاعد : قد يكون الأمر كما تقول ، ولكن لا يخطر ببالك انى أخلق شيئاً لم أره ، وأقسم لك ان الكتاب والكاتب موجودان ، ولعلها المصادفة العجيبة وحدها هى التى جعلت لعاملك نفس اسم المؤلف » .

وأطلع المنصور فى مرة أخرى على المجموعة التى وضعها أبو على القالى ، فأجابه صاعد فى ساعته : « ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل ، لا أرد فيه خبراً مما أورده أبو على » فأذن له المنصور الذى كان يتطلع الى كتاب يهدى اليه يبرز شهرة كتاب القالى الذى أهده للخليفة السابق ، لأنه كان يتطلع - حين حضر صاعدا الى الاندلس - أن يكشف مجده شمس القالى الذى أضفى عظمة أدبية على عصرى عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى ، فانكب صاعد فى لحظته على العمل ومضى يملأ فى جامع مدينة الزاهرة كتاب الفصوص « فلما فرغ منه أقبل أدباء عصره على تقليته فقرت نفوسهم وان دهشوا أن لم يجدوا بين دفتيه سوى مجموعة من الأكاذيب ، فجميع ما فيه من التفاسير اللغوية والأخبار والشعر والأمثال من وضع صاعد ، أو هكذا قالوا . فصدقهم المنصور وحنق على صاعد هذه المرة وألقى بكتابه فى النهر (١٧) وان لم يجرمه من عطفه الذى ازداد منذ أن تنبأ صاعد بأسر غرسية قومس وهى الجبوة التى كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، فلم يقتصر الأمر على عطفه

عليه بل وقره توقيرا زاد عن الحد لذلك لم يكن صاعدا يدع وسيلة يظهر بها تقديره لمعروفه عليه الا توسل بها وعمد اليها ، ولم يفت ذلك المنصور .

وخطر لصاعد ذات مرة أن يجمع الأكياس والصرر التي كان المنصور يبعثها اليه مملوءة بالمال وعمل منها قميصا لعبده كافور الأسود ومضى به الى القصر ونجح في ادخال البهجة على قلب الوزير قائلا له : « يا مولانا : لعبدك حاجة » قال : « اذكرها » قال : « وصول عبيد كافور الى هنا » فقال « سؤال عجيب » قال « ولا أقنع بسواه الا بحضوره بين يديك » فقال المنصور : « أدخلوه » فدخل كافور وكان عبدا فارعا الطول كالنخل اشراقا ، وقد ارتدى جلبابا مختلف الألوان يشبه ثياب الصعاليك كثير الرقاع ، فقال الوزير وقد حضر : « انه لباذ الهيئة ، فمالك أصبته » فقال : « هنالك الفائدة يا مولاي ، انك وهبت لي اليوم ملا جلد كافور مالا » فابتسم المنصور راضيا وقال له « لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معاني السكر » ثم أمر له في لحظته بمال وافر وثياب ، وكسى كافورا أحسن الكساء (١٨) .

ومجمل القول انه اذا كان هناك رجال مثل صاعد قد نعموا بعطف الوزير فمرد ذلك الى تذوق المنصور للأدب : الأمر الذي كان ينقص أغلب الأمويين ، وقد صح لديه أن واجبه يقتضيه وفد الشعراء لكن نظرته اليهم لم تكن تعدو نظرته للأشياء الرائعة التي تفرضها عليه مكانته الرفيعة ، وان كان هو ذاته ذا موهبة وحس مرهف يمكنه من التمييز بين الفت والتمين وبين الجوهر والعرض .

غير أنه لم يكن في حال تمكنه من معالجة الأدب لأنه كان رجل أعمال فقد كان خير نصير لمصالح البلد المادية اذ شغل نفسه على الدوام باصلاح المواصلات ، فأنشأ كثيرا من الطرق وأقام في استجة جسرا على نهر شنييل ، وبنى آخر في قرطبة على نهر الوادي الكبير كلفه أربعين ألف دينار (١٩) .

وكان المنصور يتفحص كل أمر جل أو تفه ، وكان اذا أراد الأقدام على أمر هام استشار في العسادة أهل الحل والعقد وان كثرت مخالفته لمشورتهم ، اذ لم يزد هؤلاء الرجال أبدا عن كونهم رجالا عاديين قد استعبدتهم العادة والعرف المألوف ، فهم يعرفون ماعمله عبد الرحمن الناصر أو الحكم الثاني في ظروف مماثلة لظروفهم ، ولا يؤمنون بقدرة امرء على سلوك سبيل غير السبيل التي سلكها من قبلهم ، كانوا اذا رأوا المنصور قد خالف مشورتهم

الى نهجه الخاص أيقنوا بفشله ، ثم تبرهن الأحداث على خطئهم
القادح (٢٠) .

أما فيما يتعلق بأخلاقه فالواقع أنه ارتكب أعمالا تنكرها الأخلاق ،
بل اقترف جرائم لا نمك حيالها الصمت والسكوت ، كل ذلك طمعا منه في
تملك السلطة والاستحواذ على السلطان وجمع القوة في يديه ، غير أن العدل
يقتضينا أن نذكر الى جانب ذلك أنه كان وفيا كريما عادلا طالما كانت أطماعه
غير خطيرة ، فان كان الأمر هكذا فالصرامة - كما قلنا - أساس شخصيته ،
وكان اذا صمم على شيء استحال صرفه عنه .

لم يكن الألم الجثمانى ليقعد المنصور عن طلبه الشيء والحاحه فيه ،
فقد حدث ذات يوم أن كان به داء فى رجله فأخذ يكويه أثناء اجتماع مجلس
المشورة ومضى يتكلم كأن ليس ثم شيء ، وما كان لأحد من الجالسين أن
يعرف ما يحدث لولا أن تصاعدت رائحة الجلد المحترق (٢١) ، وهكذا كان
كل ما فيه صورة للقوة والثبات العجيبين ، وكان ثابتا فى محبته ثبوته فى
كراهيته ، فلم ينس لأحد قط معروفا أسداه اليه ، ولم يغفر لأحد ما سيئته
ارتكبها ضده ، وقد آمن بذلك رفاقه الذين خيرهم وهم شباب ما يختارون من
الأعمال فيما لو آلت الوزارة اليه فحصل الطلاب الثلاثة الذين حملوا كلامه
على محل الجدة قسموا يومذاك ما يطمعون فيه من وظائف ، أما رابعهم الذى
سخر به فقد كفر عن حماقته بمصادرة كل ممتلكاته (٢٢) .

غير أن المنصور كان يتغلب فى بعض الأحيان على عناده اذا تبين له
خطؤه، فقد سئل ذات يوم الصفح عن جماعة من سجنائه ، فلما سرح عينيه فى
القائمة طالعه اسم أحد غلمانه وكان يضم له الحقد الدفين وقد مضت عليه
فى الحبس فترة طويلة بلا جريرة تبرر كل هذا العقاب فكتب على الهامش
(لا سبيل الى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية) ، ثم جاء الليل وطلب النوم
فاستعصى عليه ووخزه ضميره ، وبينما هو بين المنام واليقظة خيل اليه أنه
راى آتيا كرية الصورة عنيف الأخذ يأمره باطلاق سراح الغلام ويتوعده
بحبسه هو ، وحاول عبثا طرد هذه الافكار السوداء عنه ، وذلك بعث فى
طلب الورق وهو فى فراشه وكتب باطلاق سراح السجين وكتب هذه العبارة
« هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر (٢٣) » .

وضمه مرة أخرى مع الوزير أبى المغيرة بن حزم مجلس شراب فى
احدى حدائق الزاهرة الغناء واسمها « منية السرور » (اذ أنه رغم احترامه
للدين الا أنه كان كلفا بالنبذة طول حياته ولم يقلع عنه الا قبل عامين من

موته (٢٤)) وكانت هذه الأمسية إحدى الأمسيات الجميلة التي لا يتسنى التمتع بها إلا في تلك الأجواء الجنوبية اللطيفة ، ثم أقبلت جارية جميلة كان المنصور يهواها لكنها كانت شديدة الميل لابن حزم فآلقت :

قدم الليل عند سير النهار وبدى البدر مثل نصف سوار
فكان النهار صفحة خد وكان الظلام خط عذار
وكان السكّوس جامد ماء وكان المدام ذائب نار
نظري قد جنى على ذنوبها كيف مما جنته عيني اعتذاري
يا لقومي تعجبوا من غزال جائر عن محبتي وهو جاري
ليت - لو كان لي إليه - سبيل فأقضى من حبه أوطاري

فلم يحتمل المغيرة هذه الأبيات ولم يتبصر الأمر وأجابها في الحال بشعر قال فيه :

كيف كيف الوصول للأقمار بين سمر القنا وبيض الشفار
لو علمنا بأن حبك حق لطلبنا الحياة منك بشار
وإذا ما الكرام هبوا لشيء خاطروا بالنفوس في الأخطار

فلم يطق المنصور صبرا بل زار غاضبا واستل سيفه وصاح بالجارية في صوت هادر : « قولي وأصدقيني القول : إلى من تشيرين بهذا الحنين ؟ » فأجابته الفتاة الشجاعة : « ان كان الكذب أنجي فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت إلا نظرة ، ولدت في القلب ففكرة ، فتكلم الحب على لساني ، وبرح الشوق بكتماني ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة » ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتكلم ، فعفى المنصور عنها ثم التفت إلى أبي المغيرة غاضبا وأسرف في لومه وابن المغيرة صامت لا ينطق ولا يبين ، فلما فرغ ابن أبي عامر من كلامه قال له جليسه « أيديك الله ، إنما كانت هفوة جرّها الفكر ، وصبوة أيدها النظر ، وليس للمرء إلا ما قدر له ، لاما اختاره وأمله » . فصمت المنصور برهة ثم قال : « عفوت عنكما ، هي لك يا أبا المغيرة (٢٥) » .

ولقد ذهب إشاره العدل مذهب المثل السائر ، فكان يحب تنفيذ العدالة دون رعاية لأحد ما ، ولم يدع لعطفه على بعض الناس مجالا يطفئ عليه فيجعلهم بمنجاة من القانون . حدث أن وفد عليه رجل من العامة وقال له : « يا ناصر الحق ، ان لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك »

وأشار الى فتى صقلبي يحمل الدرة وكان أثيرا عند المنصور ، ثم تابع كلامه فقال : « وقد دعوته الى القاضى فلم يأت » ، فقال المنصور : « أو عبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ » اذكر مظلمتك يا هذا » .

فروى له الرجل كيف تعاقد مع الصقلبي الذى بدى له أن ينقض ما أبرم ، فلما فرغ من كلامه قال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية » ثم التفت الى الصقلبي الذى ارتعدت فرائصه خوفا وقال له : « ادفع الدرة لغيرك وانزل صاغرا ، وساو خصمك مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك » ثم قال لعامل الشرطة : « خذ الى صاحب المظالم ليقضى فيه بما يوجبه الحق عليه » . فانتصف القاضى للرجل الذى عاد الى المنصور شاكرا له يده فقال له الوزير « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك ، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي » .

وحدث فى مرة أخرى أن تخاصم أكبر خدمه مع تاجر مغربى فاستدعى القاضى الخادم للحضور أمامه لحلف اليمين فكبر عليه أن يقف ويقاضى، وفى ذات يوم بينما كان المنصور فى طريقه الى المسجد وفى صحبتته رئيس خدمه هذا اذا بالتاجر المغربى يدنو منه ويقص عليه ما حدث ، فأمسك الوزير لساعته بخادمه وأمره بالشخص الى القاضى ، فلما ثبتت ادانته صرفه المنصور عما بيده (٢٦) .

وقصبارى القول أنه اذا كانت الأساليب التى اصطنعها المنصور للاستيلاء على السبابة قد تجرمة وتدنيه الا أنه يجب الاعتراف بشرف سيرته ونبل خطته حينما استتب له الأمر ، ولو كان القدر أتاح له أن يولد فى مهاد الملوكية لما أسرف الناس فى لومه الى هذا الحد على ما اقترفه من الأعمال ، ولربما عدوه اذ ذاك أحد الأمراء العظام الذين يبجلهم التاريخ ويحفظ ذكراهم ، غير أنه لما كان قد اطل على الحياة فى بيت ريفى قديم فقد اضطرت له الرغبة فى تحقيق هدفه الى ساوك سبيل جم العثرات والمزالق ، وان الانسان ليستشعر الأسف على ما أخذ به نفسه من الأعمال رجاء الوصول الى مآربه دون اهتمام كبير بشرعية وسائله .

والمنصور بعد ذلك رجل فذ من نواح عدة ، وانه ليستحيل علينا ان نحبه ، كما يصعب علينا أن نعجب به لعدم التزامه جادة القوانين الأخلاقية المألوفة .

الفصل الثالث عشر

النزاع بين أنصار القديم والجديد • رجال يدعون الى ما يسمى بالملة الكلية أو الجامعة • ظهور رجال يعملون على نزع السلطة من بيت المنصور • موقف أنصار بني أمية والعامّة من التطور الاجتماعي • ظهور طبقة اجتماعية جديدة ثرية • المظفر وعبد الرحمن ولدا المنصور • احتيال شانجول ليكون وليا للعهد • تكاتف الجميع ضد مقتصب العرش • خلع شانجول والغاء بعض الضرائب • استخلاف محمد المهدي بالله • انقراض رجال شانجول عنه • منزلته • مقتله •

الفصل الثالث عشر

اضطراب الأوضاع

حينما عاد المظفر الى قرطبة بعد موت أبيه وجد الثورة مندلعة ، فقد ألح الناس على وجوب ظهور الخليفة وان يحكم بنفسه ، ولم ترض الجماهير بما قاله هشام الثانى لها من أنه يريد متابعة السير على ما هو عليه من الحياة الهادئة فقد صمم الشعب على مطالبه مما حمل المظفر على استعمال السلاح فى تفريق جموع الناس (١) واذا ذلك استتب النظام على الرغم من أن أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر — ويدعى هشامًا — تأمر ضد المظفر الذى علم بالأمر فى حينه فأحبط خطة المتآمر وقتله فى ديسمبر (٢) سنة ١٠٠٦ م [= شوال ٣٩٩ هـ] ، ثم سار فى حكم الدولة على غرار أبيه فانتصر على المسيحيين عدة مرات ، وأخذ البلد أيام حكمه يسير قدما فى طريق الرقاهية حتى لقد قيل « ان الأندلس بلغت فى أيامه نهاية الكمال » (٣) .

الا أنه حدث تغير اجتماعى عظيم اذ تلاشى المجتمع العربى القديم بمحاسنه ومساوئه حين سعى عبد الرحمن الناصر والمنصور فى توحيد الأمة وأدركا هذه الغاية ، وكانت الطبقة القديمة من الأشراف العرب قد انحلت من جراء صراعها مع الملوكية ، فلما غلبت على أمرها وتحطمت وخمدت ريحها أخذت الأسماء القديمة فى الاختفاء يوما بعد يوم ، أما نبلاء البلاط الذين كانت تربطهم بالأمويين وشائج القربى والعصبية القبلية فقد كانوا أحسن حالا وكانت هناك أربع عائلات لا تزال على ثراها وتنافسها هى : بنو أبى عبيدة ، وبنو شهيد وبنو جهور وبنو فطيس (٤) .

غير أن أقوى الرجال حينذاك كانوا هم القادة البربر والصقالبة (٥) الذين مهد لهم المنصور وبوأهم هذه المكانة ، ولما كانوا أجانب قد نشأوا فى الحضيض فلم يكونوا يتمتعون بالاحترام الكبير ، وكان الناس ينظرون اليهم على أنهم متسربلون ، وضحج الأهالى بالشكوى من مظالمهم الفادحة .

أما أهل الطبقة الوسطى فقد ازداد ثراؤهم من جراء التجارة والصناعة حتى لقد ظهر زمن السلطان عبد الله المضطرب جماعة من التجار والصناع أصابوا الأموال الضخمة دون أن تكون لهم رؤوس أموال. غير ما استدأنوه من أصدقائهم (٦) . أما الآن وقد استقرت الأمور في نصابها فلا عجب أن أصبح من اليسير الهين ازدياد الثروات ، وعلى الرغم من سلامة هذا المجتمع إلا أن جرائم الدمار كانت تنخر فيه .

وإذا كان الصراع قد توقف بين العرقيات إلا أنه عاد إلى الظهور مرة أخرى في صورة جديدة هي النزاع بين الطبقات ، فكره العامل مخدومه . واستعر الحسد في قلب رجل الطبقة الوسطى على الإشراف ، وإن اتفق الجميع على لعن القيادة العامة لا سيما البربر ، كما كان في أعماق الجهل الشامل شوق مبهم للمجهول ، فأصبح الدين هدفاً ينضج بالسهام وعرضة للحملات القاسية ، ولم تؤت التدابير التي اتخذها المنصور حيال الفلاسفة ما كان يرتجيه الفقهاء منها بل انعكست الآية فتضاعف عدد المفكرين الأحرار وابتدأ الشك المترسب في أعماق طبيعة الخلق العربي يظهر شيئاً فشيئاً في مسح العلم ، فتزايد تلاميذ ابن مسرة أو المسريون (٧) كما كانوا يسمون ، وعملت طوائف أخرى على نشر مبادئ شديدة الخطورة ، ويظهر أن إحدى هذه الجماعات نشأت بين الطبقة الدينية نفسها ، أو لا أقل من أن أعضاءها كانوا من المعنيين بدراسة الأحاديث النبوية غير أن دراستهم إياها لا بد وأنها كانت دراسة الرجل المتدين التي اتسمت بالسطحية وطبعت بطابع الميل إلى كتب الشك والأسفار التي ألفها رجال ماديون كانوا يرمون إلى تقويض أركان الملة ، ومن هنا نشأت فكرتهم العجيبة في تفسير الكون إذ قالوا إن الأرض محمولة على سمكة ، والسمكة على قرن ثور ، ويحمل الثور صخرة موضوعة على كتف ملك تحته توجد العتمة ، ومن تحت العتمة ماء ليس لنهايته حد (٨) .

بهذه التفاسير الغامضة المضحكة - التي ربما لم تكن سوى رموز - جاء المتدينون بهرطقة شديدة الخطورة ، واعتقدت تلك الطائفة بعدم تناهي الكون ، وأخذت تلقن الناس أن الدين قد يفرض فيعتقدن خوفاً أو أملاً ، لكن لا يستطيع البرهنة عليه بأدلة عقلية ، ومع ذلك فإن رجال تلك الطائفة ناصبوا في الوقت ذاته العداء لتعاليم الإغريق الفلسفية وهي التعاليم التي اعتمدت عليها طائفة أخرى كانت تتألف من علماء طبيعيين أدت بهم دراسة الرياضيات إلى النظر في علم الفلك وطلبوا الأدلة الرياضية للبرهنة على الدين ، فلما لم تتحقق أربتهم انصرفوا عنه ورموه بالعجز . ونددوا

بالصوم والصلاة والزكاة والحج ، وعدوها حماقة ، لذلك لم يقصر العلماء في تعنيفهم تعنيفا حمل رايته المتدينون في جميع العصور ضد أولئك الذين نبذوا ظهريا العقائد الموروثة ، ورموهم بأن لا هم لهم في الحياة سوى الاثراء بغية . التمتع بجميع أنواع اللذائذ دون احترام للشرائع ولا للأخلاق .

الا أن الطوائف التي هاجمت الاسلام في صراحة لم تكن أشد الطوائف خطرا عليه بل أخطرها عليه كانت تلك الجماعات التي أظهرت رغبتها في مسالمة ، ولم تكت قاصرة على المسلمين بل وجدت أيضا بين النصارى واليهود لأنها أخذت تنادى بعدم التعصب متسترة بعبارة « الملة الجامعة » ، ولم يكن يخفى على فقهاء المسلمين أن اضمحلال دين ما لا يرجع الى ما يتعرض له من الهجمات الخارجية بل الى عدم الانتصار له ، واختلاف الرجال الذين اعتنقوا هذه المبادئ فيما بينهم على نقاط معينة ، واتسعت شقة الخلاف بينهم لكنهم اتفقوا جميعا على الازدراء الشامل للتحليل المنطقي ، فقالوا ان الدنيا تزخر بكثير من الديانات والطوائف والمدارس الفلسفية التي يناصر بعضها البعض الآخر العداء وتتضارب فيما بينها ، واليك النصارى حيث نرى الملكانيين لا يطبقون النساطرة ، كما أن النساطرة يزدرون اليعاقبة، وكل واحد منهم يرى الآخر مقضيا عليه بالهلاك، كما يوجد بين المسلمين جماعة المعتزلة الذين يعدون كل مخالف لهم في تفكيرهم كافرا، كما أن الخارجي يرى من واجبه قتل كل من ليس من جماعته .

والسنى لا يتفق مع هذا ولا ذاك .

ويوجد نفس الأمر بين اليهود .

وليست الحال بأقل من ذلك بين الفلاسفة .

وكان لكل فريق حججه القوية فيما يذهب اليه ، والتي يجرمها خصمه بنفس القوة ، وكانت قوة كل منهم في أسلوبه .

واذن فأين نلتمس الحقيقة ؟

ومع ذلك فان بعض هؤلاء الشاكين رضوا ببيانات خاصة ، فكان من بينهم من آمن بوجود الله خالق كل شيء ، وبالرسالة انزلت على محمد [عليه الصلاة والسلام] ، وكانوا يقولون : « ان بقية المذاهب الأخرى قد تكون حقيقية أو قد لا تكون ، ونحن لا نؤيدها ولا ننكرها ، بل كل ما هنالك أننا نتجاهلها ، لكن وجداننا لا يسمح لنا باعتناق مبادئ لم يثبت لنا صدقها » وأولئك هم المعتدلون .

كذلك كان هناك غيرهم اعترفوا فقط بوجود الخالق ، وهناك غيرهم من هم أكثر منهم سيرا في هذا الطريق ممن لم يؤمنوا بشيء قط ، بل قالوا ان لم يثبت بالبرهان وجود اله أو خالق للكون ، كما أنه في الوقت ذاته لم يوجد ما يثبت أن الله غير موجود أو أن العالم وجد من الأزل . ونادى آخرون أنه من الملائم أن يحافظ الانسان - ولو ظاهريا على الأقل - على الدين الذي ولد عليه .

وذهب آخرون الى ضرورة وجود « الملة الكلية » وحدها ، وأدمجوا تحت هذا الاسم مبادئ الأخلاق التي تضمنها كل دين وبرهن عليها العقل (٩) .

كان للمتحدثين في شئون الدين منفعة تشاؤ منفعة المتحدثين في الامور الحكومية ، اذ عرفوا ما يحتاجه القوم .

أما من الناحية السياسية فكان الحال على الضد من ذلك اذ لم يكن لأحد فكرته الراسخة ، وكان الناس ناقلين على الحال التي هم فيها ، وظهر أن المجتمع موشك على الثورة نظرا للتحسن الذي طرأ على مركزه ، ولم يغب ذلك عن نظر المنصور ، ففي ذات يوم بينما كان يصعد ناطريه في قصره الفخم بالزاهرة وفي الحدائق الغناء المحيطة به اذا به ينفجر باكيا ويصيح : ويل لك يا زاهرة . ليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب .

فلما لاحظ الدهشة على من معه قال لهم : « والله لترون صدق ما قلت . وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، ورسومها قد غرت ، ومباينها قد هدمت ، ونحيت ، وبخزائنها قد نهبت ، وبساعاتها قد أضرمت بنار الفتنة » (١٠) .

لكن اذا كان مقدرا لهذه الثورة الحدوث فما الدافع عليها وما وسائلها ؟

هذا هو الشيء الذي لم يكن الناس يحسبون له حسابا ، غير أنه لا أقل من أنه كان يوجد أمر واحد يتفق الجميع عليه ألا وهو رغبة الكل في انتزاع السلطة من بيت المنصور ، على أنه يجب ألا ندهش من ذلك أبدا فالشعوب التي تدين بالولاء للسلطنة لا يرضيها أن يستبد بالأمر أحد ما سوى السلطان نفسه ، كما أن جميع الوزراء الذين تولوا الملك بدلا من السلطان أصبحوا معرضين للضغط الشديد الذي لا تخمد جذوته مهما بلغ أولئك الوزراء من الكفاءة والأهلية ، ولاشك أن هذا التقدير

كاف تماما لتفسير المقت الذي أضمره الناس للعامريين اذ يجب ألا ننسى أنهم جرحوا عواطف الشعب وحاربوه في تعلقه وتمسكه بشرعية الحكم ، واذا كانوا حتى الآن قانعين بممارسة السلطة باسم الأمير الأموي الا أنهم أفصحوا عما يكتُمونه من التطلع الى العرش ، ففتح عليهم هذا الطمع باب الفتنة وأسخط الناس عليهم ، ولم يقتصر ذلك السخط على أن يكون من جانب أمراء البيت المالِك وحدهم ، بل تعداهم الى الطبقة المتدينة الشديدة التمسك بالحق الشرعى ، كما تعداهم الى الأمة التى كان يعتقد - أو كان يجب أن يعتقد - أنها كانت شديدة التعلق بالأسرة المالكة . أضف الى ذلك أن أشرف البلاط كانوا يتوقون لأن يسقط العامريون عسى أن يؤدى هذا السقوط الى زيادة قوة الأشرف ، وكان رعاى العاصمة - فى الوقت ذاته - مستعدين لتأييد أية ثورة قبل حدوثها ما دامت تجيز لهم سلب الطبقات الموسرة واشباع الحقد الذى يكنونه لها ، وربما كان هذا التغير الأخير هو الدافع لمبالغة الأثرياء فى التجبر ، وكانت قرطبة قد أصبحت اذ ذاك مدينة صناعية بها آلاف العمال ، وكان أتفه عصيان يؤدى الى جعلهم - فى غمضة عين - قوة بالغة الخطر ، وقد تؤدى الحال الى قيام حرب فظيعة بين الفقراء والأغنياء ، والظاهر أن الغفلة كانت سائدة فلم يتوقع أحد ما اقترب هذا الخطر ، اذ لم تكن الطبقات الغنية ترى فى العمال غير فئة مرتزقة ، وكانت مؤمنة بعودة المياه الى مجاريها حالما يزاح عن كاهلهم عبء العامريين .

ومن ثم كان سقوط بنى عامر رغبة تكاد أن تكون عامة شاملة فى اللحظة التى مات فيها المظفر فى زهرة عمره فى سنة ١٠٠٨ م (صفر ٣٩٩ هـ) ، وخلفه أخوه (الناصر) عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكان الناصر هذا شابا يمهته الفقهاء ويعبدون مولده عارا لايمحى ، اذ كانت أمه ابنة أحد شانجين : أما قومس قشتالة أو ملك نفارة (١١) ، فكانوا لاينادونه الا بشانجول (١٢) أى « شانجة الصغير » ، فراحت هذه الكنية لقباً عليه فى التاريخ ، ثم أن سيرته كانت لا تسمح للناس أن يتناسوا أصله لانكبابه على الملذات ، اذ كان لايجزم عن شرب النبيذ جهرة ، وكان الجميع يتحدثون حائقين أشد الحنق عليه بأنه سمع المؤذن «حى على الصلاة» فقال : « لو قال حى على الكأس لكان خيرا له » (١٣) ، لذلك اتهمه القوم بأنه دس السم لأخيه المظفر ، ويقولون فى صدد هذا الموضوع أنه قطع تفاحة بسكين غمس أحد جانبيها فى السم تناول هو النصف السليم وأعطى أخاه النصف الآخر (١٤) .

ربما لم يخل الأمر من أن فى هذه الاتهامات شيئا - قل أو كثر - من الافتراء ، لكن الثابت هو أنه كانت تنقصه مواهب المنصور والمظفر

ومهارتهما ، على الرغم من أنه جرى على ما لم يجرؤ عليه أحدهما ، اذ تركا للخليفة الأموي لقب السلطنة لم ينازعه إياه رغم أن زمام الأمور كان في واقع الأمر في أيديهما ، ولم يستطع أحدهما أن يقول انه الخليفة رغم تطلعهما الى هذا الأمر ؛

أما شانجول فقد أخرج الى الوجود ذلك المشروع باعتباره ولي العهد ، وقاتح في هذا بعض الرجال البارزين لا سيما أبو العباس بن ذكوان القاضي ، و (أبو حفص) بن بزد الكاتب ، فلما تأكد لديه وقوفهما الى جانبه أفضى بطلبه الى هشام الثاني الذي يظهر - على الرغم من ضعفه الشديد - أنه أراد التمهّل لحظة في أمر خطير كهذا الأمر لاسيما وأن الرأي العام مؤمن بالفكرة القائلة بأن النبي محمدا [عليه السلام] أشار الى أن الأمر لا يكون الا في معد ، وعمد الخليفة الى استشارة جماعة من الفقهاء ممن كانوا متأثرين بفكرة ابن ذكوان ، فأشاروا عليه بإجابة مطلب شانجول وأرادوا القضاء على ترده فرووا له الحديث النبوي القائل (١٥) « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » فحمل الخليفة نفسه على قبول ما طلبوه منه وبذلك لم ينقض شهر على وفاة المظفر حتى أعلن شانجول نفسه وليا للعرش بمقتضى عهد كتبه ابن برد (١٦) .

بلغ سخط القرطبيين ذروته في هذا العهد وتغنى الناس جميعهم بمثل هذا الشعر (١٧) :

ان ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق اذ أقاما حفيد شانجبا ولي عهد
ومضى الناس يقصون في يقين جازم أن رجلا من الصالحين مر أمام
قصر الزاهرة فصاح (١٨) : « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك
في كل دار » .

ومجمل القول ان الحق على شانجول والكراهية له كانا له في كل مكان ، الا أن الثورة المسلحة لم تكن قد قامت بعد اذ ترك الشعب التهديد وأمسك عنه نظرا لمجيء الجيش ، حتى رحل ، فخدع شانجول نفسه بالهدوء الظاهري الذي ساد البلد ، وأفصح عن رغبته في شن حملة على مملكة ليون ، فلما كان يوم الجمعة ١٤ يناير ١٠٠٩ م غادر العاصمة على رأس قواته وبدى له أن يعصب رأسه بعمامة كانت في أسبانيا وقفا على القضاة والفقهاء وأمر رجاله بالاعتداء به ، فرأى أهل قرطبة في هذه النزوة انتهاكا جديدا لحرمة الدين واستهانة بحماته (١٩) .

بعد أن عبر « شانجول » الحدود حاول عبثا ارغام « أدفونش » الخامس على النزول من الجبال التي كان معتصما بها ، لكن هبت العواصف

الناجية فاستحال السير ، واضطر [أبو المطرف] الى العودة ، لكنه لم يكد يصل الى طليطلة حتى ترامت اليه الأنبياء بشبوب الثورة في العاصمة .

وترأس الحركة أمير من البيت الأموي اسمه محمد وهو ابن هشام الذي قتله المظفر ، وبالتالي كان ابن حفيد عبد الرحمن الناصر ، وكان متخفيا في قرطبة كي لا يلاقى الرجل الذي قتل أباه ، وتعرف هذا الشاب في تلك الفترة بكثير من رجال الشعب حتى استطاع تكوين عصاية من أربعمائة رجل جسور وذلك بفضل ما بذله من المال الذي لم يبخل به على أحد وبفضل المساعدة التي لقيها من فقيه ورع يسمى الحسن بن يحيى ومعاونة كثير من الأمويين له ، ووصل خبر هذه المؤامرة الى سمع عامري هو ابن عسقلانة الذي وكل اليه شانجول حكومة قرطبة أثناء غيابه عنها ، وكانت الأخبار التي بلغت شانجوة غامضة مبهمه ، لكنه أخذ في تفتيش عدة بيوت شك فيها فلم يعثر قط على شيء .

أما محمد بن هشام بن عبد الجبار فقد حدد يوم الثلاثاء خامس عشر فبراير (= ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ) لتنفيذ مشروعه ، واختار ثلاثين من أشد رجاله جرأة وأمرهم باخفاء أسلحتهم تحت برانسهم والذهاب مساء الى السطح القريب من القصر الخلفي .

ثم جمع العلماء وبعض الرجال البارزين وطلب اليهم تحرير عهد بالتنازل ووقعه هشام بيده وأمضى محمد بقية الليل في القصر ، فلما كان اليوم التالي استوزر أحد أقاربه ووكّل الى أموي آخر أمر حكومة العاصمة وأناط بهما أن يدونا في سجل الجند كل من يرغب في الانخراط في سلكه ، فكانت الحماسة عظيمة وشاملة الى درجة أن الجميع بادروا الى قيد أسمائهم في ديوان الجند ، وتسابقت طوائف الشعب من التجار والأغنياء والمزارعين في القرى وأئمة المساجد والزهاد والمتقشفين الى السلاح تأييدا له وكانوا متأهبين لبذل دمائهم دفاعا عن الأسرة الشرعية ضد الفاسق الذي يريد اغتصاب العرش .

وحينذاك ندب محمد بن هشام كبير وزرائه للشخص الى الزاهرة للاستيلاء عليها ، ولم يفكر العسكر القائمون في الدفاع عنها بل سرعان ما أعلنوا ولاءهم للخليفة الجديد وسألوه العفو عنهم فأجاب ملتئمهم بعد أن أغلظ في تأنيدهم لرضائهم عن مشاريع شانجول الطماعة .

بهذا انهارت في أقل من أربع وعشرين ساعة قوة العامريين ، ولم يكن أحد يتوقع هذا النجاح السريع لخصومهم ، وعم السرور قرطبة لاسيما بين طبقات المجتمع الدنيا ، ولما كان الشعب سريع الغضب سريع الرضا فقد رأى أن ذلك فاتحة خير . . . لكن اذا كان رجال الطبقة

الوسطى قد كرهوا ظروف هذه الثورة الواسعة الخطرة الا أنهم حرصوا على المساهمة فيها بنصيب ، وكانوا يرون أن استبداد ابن أبى عامر المستنير قد هيا للبلاد رخاء مستحبا ومجدا حريبا قد يكون أحسن من الفوضى والاستبداد العسكرى الوحشى الذى كان موشكا أن يمرض عليهم .

غير أنه لم يحدث شئ من الفوضى التى تصحب فى العادة كل ثورة تقوم بها العامة .

أما محمد فلم تكن لديه حينذاك السلطة الكافية لكف القوم عن السلب ، ولما كان مدركا ما هو موشك على الوقوع فقد أمر بنقل الخزائن وكل ما بالزاهرة من غال وثمانين الى قرطبة ، غير ان يد النهابين كانت أسبق منه فى الامتداد اليها فحملوا كل ما فى القصر حتى الأبواب والألواح الخشبية ، كما امتدت يد السلب الى كثير من دور أتباع المنصور وأسرته ، وظل محمد - أربعة أيام - عاجزا لا يملك القدرة على عمل شئ ما يؤدى الى كبح جماح هؤلاء اللصوص ، لكنه نجح أخيرا فى ردعهم . وكانت الثروات المتجمعة بالزاهرة عظيمة جدا حتى لقد بقى بها بعد ذلك من النقد مايون ونصف مليون دينار ، ومن الدراهم مليونان ومائة ألف درهم ، هذا غير ما حمله الناس ، كما عثر القوم بعد قليل على مخابىء بها مائتا ألف دينار ، وحين أصبح القصر خاليا من كل شئ أضرموا فيه النار ، و مالبت أن عاد كومة من الأنقاض .

فى هذه الأثناء قرئ على الشعب الموجود بالمسجد عقب صلاة الجمعة (١٨ فبراير) منشوران رسميان ، اشتمل أولهما على تعداد كبار شانجول والأمر بلعنه فى الصلوات العامة ، وأما ثانيهما فكان خاصا بالغاء كثير من الضرائب التى فرضت منذ عهد قريب ، وما انقضت ثمانية أيام بعد هذا الحادث حتى أعلن محمد على الشعب تلقيبه بالمهدى بالله ، وهو الذى سننعتة به دائما ، ولما نزل من على المنبر نودى بالخروج لقتال شانجول ، وكان لهذا النداء أثره العجيب اذ سرت حماسة العاصمة الى الأقاليم ، ولم تنقض فترة وجيزة حتى خرج المهدى بالله على رأس جيش كثيف جدا ، لكن لما كان الشعب هو الذى قام بالثورة فقد كان راغباً فى صرف القيادة عن القادة القدماء الذين ينتمون الى البلاط السابق ، فاختر كبار الضباط من رجال الشعب ومن الطبقة الوسطى ، فكننت ترى فيهم المطيبين والحاكمة والسروجية ، وهكذا ظهرت أسبانيا لأول مرة فى مسوح الديمقراطية ، وفقد العامريون والأشراف كل ما كانوا يتمتعون به من قوة وجاه .

وما كاد يصل الى سمع شانجول - وهو فى طليطلة - خبر هياج العاصمة حتى حمل على قلعة دباح ، وأجمع العزم على القضاء على الثورة بالقوة ، غير ان أكثر جنده أخذوا فى الانفضاض عنه أثناء زحفه ، فلما طلب الى البقية من العسكر ان ينقسم له يمين الولا رفضت طلبه قائلة نه قد تقدمت له بيعة فى أعناقها فليس هناك ما يدعو الى تكرارها ، بل لقد كان ذلك رد البربر أيضا وهم الذين أظفروهم العامريون وملئوا أيديهم بالمال حتى لقد اعتقد شانجول أن فى استطاعته الاعتماد عليهم جاهلا أنهم لم يتجملوا أبدا بشكر يد المنعم عليهم والاحلاص له ، ودفعنهم ثقتهم بضياع السلطان الذى أوجدتهم والتفكير فى الاحتفاظ بشروانهم الى المسارعة فى الخضوع للخليفة الجديد ولم يحاولوا ستر جسعهم هذا فقد نادى شانجول أحد قادتهم واسمه محمد بن يعلى الزناتى - واستفسره عن شعور الجند من ناحيته فرد عليه قائلا : « اياك أن نغتر فليس والله يقاتل عنك أحد من زناته ، والناس لهم تبع » .

فسأله شانجول الذى لم يكن يتوقع بحال من الأحوال مثل هذا الرد على الرغم من أنه كان يعرف من قبل مدى ولاء فريق من الجند له « وما الدليل عليه ؟ » فأجابه : « مر بتقديم مطبخك الى طريق طليطلة ونظاهر بالرحيل اليها فتعلم من يتبعك ومن يتخاف عنك » ، فقال شانجول متحسرا « صدقت » .

قال ذلك دون أن يجسر على التثبت من صحة الدعوى التى قالها له الزناتى البربرى .

* * *

غير أنه فى وسط هذه الحيانة العامة بقى هناك صديق واحد ظل على الوفاء له ، ذلك هو حليفه الليونى « كونت كاريون » من أسرة قومس (٢٠) فقد قال له ذلك الرجل النبيل :

« الراى عندى أن ترحل وأرحل معك بأصحابى الليلة » .

فأجابه شانجول : أنا أرجو ان لويت على قرطبة أن تختلف الكلمة عليه (٢١) وان يكون لى منهم أنصار يميلون الى » .

فقال الكونت : « خذ باليقين ونح الظن فأمرك والله مختل ، وأحوالك منتقضة وأمورك مدبرة ، وجندك عليك لا لك » ، فأجابه العامرى : لابد من الاشراف على قرطبة » فقال الكونت « أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطئك ، فان أنت عشت عشت ، وان مت مت معك » .

: حينذاك أصدر شانجول أمره [بمغادرة قلعة رباح] والزحف على العاصمة ، وبدى له ان يستريح في منزل بلغه اسمه « منزل هانى » فاغتنم البربر الفرصة وتسللوا لوذا تحت جنح الظلام ، فلما تنفس الصبح تلفت حوله فلم يجد غير غلمانة وعساكر القومس الذى كرر عليه الرجاء بقبول ما عرضه عليه من قبل فلم يستجب له أيضا هذه المرة ، واذا أصر الشاب فى حماقة على المضى الى مصرعه فقد قال : « رغبت الى القضاى أن يأخذ لى أمانا من عند ابن عبد الجبار ، وقد ضمن لى ذلك » . وفى مساء الخميس ٤ مارس (= ٢ رجب) وصل الى دير « شوش » فلقى فى الغداة جماعة من الفرسان الذين أرسلهم المهدي لمقابلته فقال لهم شانجول « ما لكم على من سبيل ، أنا فى طاعة المهدي » فأجابه قائد الكوكبة : « اذن فاتبعنا الى قرطبة » فاستجاب شانجول للأمر كارها وساروا فى طريقهم حتى صادفوا بعد الظهر حاجب المهدي فى كتيبة كبيرة فاستوقفهم وبعث الى قرطبة بحريم شانجول وكن سبع نسوة ، ولما جرى بشانجول الى الوزير قبل الأرض مرارا أمام هذا الأموى فصاح به أحدهم « قبل حافر دابته » فأطاع . . كل ذلك وقومس كاريون صامت يرقب منتهى الذلة التى صار إليها هذا الرجل الذى اهتزت أمامه منذ قليل امبراطورية عظمى ، ثم جاءوه بجواد غير جواده وصاح الوزير : « من ينزع قلنسوته ؟ » فبادر بعضهم فنزعها وسار الراكب فى طريقه . وكانت الشمس قد انحدرت الى المغرب حين بلغ الجند محللتهم وتلقوا الأمر بشد وثاق يدى شانجول وقدميه فلبوا الأمر فى غلظة حتى صاح بهم « نفسوا عنى قليلا وأطلقوا يدى استرح ساعة » .

فلما أجابوه الى ما طلبه أسرع فاستل خنجره كان فى خفه غير أن الجند بادروا بامساكه قبل أن يرمى رميته فصاح به الحاجب « سنكفيكه » ثم طرحوه أرضا وذبحوه وفصلوا رأسه عن جسده ، ثم عادوا الى الكونت فقتلوه .

* * *

ولما كان اليوم التالى دخل الفرسان قرطبة وقدموا الى الخليفة المهدي بالله جثة شانجول محنطة فوطأها بسنابك جواده ثم سمرها على مقربة من باب القصر الى صليب وعليها قميصه وسرواله ، وجعل رأسه المقطوع الى جانبها مرفوعا الى رمح ووقف الى جوار هذه البقايا البشعة رجل يردد بلا انقطاع :

هذا شانجول المأمون (٢٢) ، لعنه الله ولعنى وياه .
وكان هذا الرجل هو صاحب شانجول الذى عفى عنه المهدي على شرط أن يكفر عن ولائه الذى أظهره لمولاه من قبل (٢٣) .

الفصل الرابع عشر

واضح الصقلي يعلن تأييده للمهدي • تصرفات المهدي
الخاطئة ضد الصقالبة العامريين والمتدينين • معارضة البربر
له • ادعاؤه موت هشام بن الحكم الخليفة • البربر بقيادة
هشام حفيد الناصر يهاجمون المهدي • القتال بين الجانبين في
القصر • هزيمة المهاجمين • زاوى الصنهاجى يجمع البربر
ضد المهدي • ترشيحه أمويا للخلافة وموقف البربر منه •
استعانة الجانبين بشانجة القومس • تأييده للبربر الزاحفين
على قرطبة • وقعة قنطيش • خوف المهدي من البربر وابراره
هشاما • سلبهان يزحف على مدينة سالم • وقعة البقر
وانتصار القطلونيين ثم هزيمتهم • المهدي ينتقم من قرطبة •
الصقالبة يخلعون المهدي ويولون هشاما مكانا ويقتلونه •

الفصل الرابع عشر

المهدى والبربر وهشام بن الحكم

كان كل شئ فى أول الأمر يبدو وكأنه يسير وفق ارادة المهدى بالله ، فقد بايعه القرطبيون بالخلافة واعترف به البربر ، ثم لم تنقض خمسة أيام على مقتل العامرى حتى تسلم المهدى رسالة أنفذها اليه واضح أقوى الصقالبة نفوذا وحاكم النغر الأوسط يؤكد فيها طاعته له ، ويفضى اليه بفرحته الكبرى لمصرع المغتصب وهلاكه ، ولم يكن المهدى ينتظر مثل هذه المبادرة السريعة من جانب واضح بالخضوع له وتأيينه اذ كان يعرفه صنيعة المنصور وغرس نعمته ، وان ابن أبى عامر هو الذى أبلغه المكانة التى هو فيها الآن ، ومن ثم فسرعان ما أقر المهدى بتقديره لجميل واضح عليه فبعث اليه بالمال الوفير وأهداه جوادا فارها حسن الحلية ، ثم عهد اليه بحكومة النغر كله .

هكذا التفت كل الجماعات طواعية حول الحكومة منذ الساعة الأولى ، أو هكذا كان الظاهر على الأقل ، والحق أن الاجماع كان أقل مما يبدو، فقد تمت الثورة تحت تأثير نوبة حمى عنيفة اجتاحت القوم واعترى الشلل كل مظهر للتفكير الصحيح ، فلما هدأت الأمور بدأ الناس يدركون أن سقوط العامريين لم يضع حدا للمصائب ، ولم يعالج أخطاء الماضى أو يعوض خسائره ، فما زال الناس فى ظل النظام الجديد يجأرون بالشكوى ويضجون ، كما أنه لم يكن للمهدى المواهب أو الفضائل التى تزكيه ، بل كان رجلا فاسقا فظا ميالا لسفك الدماء ، قليل الحصافة ، اذ ناصب جميع الأحزاب العداء ، فاستهل حكمه بصرف سبعة آلاف من جنده ، ولا مشاحة فى أن هذه خطة كانت تملئها عليه الضرورة حتى لاتصبح قرطبة تحت رحمة الطبقات الدنيا ، الا أن ذلك العمل أغضب الشعب الذى استخفه الطرب لاستلابه الأموال الطائلة دون قيامه بعمل ما رغم افتخاره بأنه هو الذى قام بالثورة ، ثم لج المهدى فى خطئه فأبعد عن

العاصمة جمهورا كبيرا من الصقالبة العامريين وعهد بوظائفهم الى صقالبة ممن يعملون في القصر ، فدفعهم ذلك العمل الى الارتقاء في أحضان خصوم المهدي الذي لو أنه كان قد اصطنع قليلا من الفطنة لأمكنه ضمهم الى صفه ولحملهم على الوقوف الى جانبه وتأييده .

تم انه عمد في الوقت ذاته الى اهاجة حفيظة المتدينين ضده ، اذ لازم القصر لا يبرحه عاكفا على ملذاته ، وأخذ المسلمون الأتقياء يشيرون في فزع الى اقامته المآذب التي تسمع فيها انعام الارغون والمزامير ، حتى لقد كانوا يقولون أنه يفعل ما كان يفعله شانجول وسموه بالسفیه (١) وراحوا يصبون عليه اللعنات لأنه عكر صفو كثير من الأسر ، فهجوه كما هجوا سلفه من قبل ، وكانت غلظته عاملا على ضياعه لدى الرأي العام فقد حدث أن بعث اليه واضح برؤس كثيرين من سكان الثغور الذين رفضوا الاعتراف به فأمر أن ترشق بالزهور وأن توضع على شاطئ النهر تجاه قصره ، وكان يلذ له انعام النظر في هذه « الحديقة العجيبة » ، وطلب الى شعرائه نظم القصائد في هذا الموضوع ، وكان من بين من طلب اليهم ذلك صاعد الذي أصبح يتزلف الى أعداء العامريين بعد أن كان يداهنهم ويتملقهم .

اذا كان المهدي بالله قد أساء الى جميع طبقات الشعب من الصقالبة والمتدينين والعامية فانه من فاحية أخرى لم يحاول أبدا عمل شيء يجذب الى جانبه البربر الذين كانوا عصب حركته ، والواقع أن أولئك المحاربين الغلاظ كانوا مكروهين في العاصمة ، اذ لم يغفر الشعب لهم أنهم كانوا روح الفوضى وسر استبداد العامريين ، وكان المهدي يعرف انه ان يبسط عليهم حمايته فقد أضاع البقية الباقية له من المكانة في نفوس الناس ، وكان يدرك في الوقت ذاته عجزه عن ردهم الى افريقية فكان ذلك يفرض عليه أن يسترضيهم ، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك بل كان يغتنم كل فرصة لاطهار احتقاره لهم وكراهيته لهم فحرم عليهم ركوب الجياد ، ومنعهم من حمل السلاح ، وصرفهم عن دخول القصر فكان ذلك غفلة كبرى منه ، اذ كان البربر يعرفون قدرهم ويدركون خطرهم لما ألفوه من احترام البلاط وتبجيله لهم ، ثم انهم تعودوا أن يكونوا في الدولة الجماعة التي يعتد بها ، وفي ذات يوم نهبت العامة كثيرا من دورهم دون أن تحول الشرطة بينها وبين النهب ، فمضى زاوي وزعيمان من زعمائهما الى الخليفة وطالبوا اليه في صاف معاقبة الجناة ، فانزعج المهدي من فظاظتهم وأفرجه ما ارتسم على وجوههم من الغلظة فراح يعتذر اليهم ، ثم أراد أن يفتأ غضبهم فأمر بقتل المحرضين على الفوضى التي ارتكبوها ، لكن ما كاد ينصرف عنه خوفه منهم حتى عاود خطته في التضييق على البربر والعمل على ازعاجهم .

وعلى الرغم من شدة طيش المهدي بالله الا أنه لم يتعام تماما عن حرج مركزه ، وكان أشد ما يخافه أن يأتي اليوم الذي يصير فيه اسم هشام بن الحكم صرخة لتأليب جميع الناقمين عليه ، ومن ثم صمم على أن يفهم الناس أن سجنه العظيم قد مات دون أن يقدم هو على قتله ، وحدث في ابريل سنة ١٠٠٩ م أن مات مسيحي شديد الشبه بهشام فحمل المهدي بالله جنمائه سرا الى الفصر وعرضها على جماعة تعرف هشاما ، وسواء أكان الشبه قويا جدا حتى خفيت الحقيقة على الشهود أنفسهم أم أنه استطاع اكتسابهم الى جانبه بالخدعة الا أن الثابت أنهم قرروا ان الجثة للخليفة السابق ، ثم استقدم المهدي بالله بعد ذلك رجال الدين والوجهاء والشعب وصلوا على الميت الراحل ، وشيع المسيحي الى مقابر المسلمين ودفن يوم الاثنين ٢٧ شعبان بين مظاهر التوقير الملوكية الواجبة ، أما هشام الحقيقي فكان اذ ذاك محبوسا بأمر المهدي بالله في قصر أحد وزرائه .

اطمأن بال-الخليفة الغافل [المهدي] من هذه الناحية وظن أنه أصبح حرا يفعل ما يريد ، لذلك قام في شهر مايو (رمضان) فأطبق في السجن - دون أن يعرف أحد السبب - بسليمان بن عبد الرحمن الثالث الذي كان قد نودي به قبل ذلك بزمان قصير ولما للعهد . زد على ذلك أنه أشاع عزمه على قتل عشرة من كبار البربر فكان هذا أكبر دافع للمغاربة على امتشاق السيف ، واذ ذاك قام هشام - أحد أبناء سليمان بن عبد الرحمن - ونشط لتكوين حزب من هؤلاء البربر ووجد الأمر ميسرا له فقد ألف السبعة آلاف عامل الذين عزلهم المهدي جيشا كان على أتم أهبة للثورة ، وتجمع هؤلاء الرجال يوم ٢ يونيو ١٠٠٩ م أمام قصر هشام بن سليمان ونادوا به خليفة فسار بهم هشام الى خارج البلد حيث انضم اليهم البربر وزحفت جموعهم على قصر المهدي بالله .

انتزع الخليفة [المهدي بالله] قسرا من ملذاته فسأل الجماعة عن مبتغاها فقال له هشام بن سليمان « ما فعلت بأبي وقد طرحته في مطبقك ؟ » ، وحينئذ رد المهدي على أسيره سليمان (بن عبد الرحمن) حريره ، وكم كان مخطئا اذ ظن أن هذا العمل كاف لتبديد شمل المجتمعين لأن هشاما طلب اليه التخلي عن العرش فأخذ المهدي بالله في محاورته رجاء كسب الوقت ، واستغرق الحوار فترة طويلة ضجر أثناءها العمال والبربر من طول سكونهم فمضوا يذهبون حوانيت « فحص السرايق » ويضرمون فيها النيران ، فهب القرطبون لقتالهم لا يرومون من وراء ذلك نصرة المهدي بل حماية أنفسهم من أن تمتد أيدي البربر الى بيوتهم بالنهب والسلب ، ولم يلبث أن قدم العسكر لنجدة المهدي ، واستمرت رحى المعركة

دائرة بين الجانبين مدة يوم وليلة ، غير أنه في صباح الجمعة ٣ يونيو ١٠٠٩ م اضطر البربر للنكوص على أعقابهم وقد عمهتهم الفوضى واضطربت صفوفهم ، فتعقبهم فريق من أهل قرطبة عند حدود وادي أرملاط ومضى فريق آخر فنهب بيوتهم وسبى نساءهم ، ونودي بإجازة كل من يعود برأس بربرى • أما هشام - خصم الخليفة - فقد زج به فى السجن كأبيه من قبل وقتل (٣) •

ولما جمع البربر سباهم فى النهاية أقسموا أن يكون انتقامهم عجيبا ، ولم يكن لهم من المهارة ما يؤهلهم لوضع خطة انتقامية ، غير أن الحظ واتاهم فكان فيهم زاوى ، وهو من أسرة صنهاجية حكمت فى إفريقية القسم الذى عاصمته الفيروان ، وكان زاوى أكثر زملائه البربر المحاربين رقيا وذكاء ، فرأى قبل كل شئ ضرورة البحث عن منافس للمهدى •

كان تحت يد زاوى رجل أموى اسمه سليمان - وهو ابن أخ لهشام - الذى ساهم بنصيب فى وقعة عمه ثم صاحب البربر بعد ذلك فى فرارهم ، فاقترح زاوى على رفاقه مبايعته بالخلافة (٤) ، فرفض البعض مقترحه نافين عن سليمان كل كفاءة يمكن أن تزكيه لزعامة الجماعة ، وقالوا انه تنقصه الخبرة اللازمة لقيادة أى جيش على الرغم من أنه كان رجلا فاضلا فى نفسه ، كذلك أبى آخرون أن يتزعمهم عربى أيا كان هذا العربى ، واذاك قام زاوى - تأييدا لفكرته - باتباع طريقة لاشك أنها كانت جديدة على البربر ولكنها مألوفة عندنا حيث جمع خمسة رماح وجعل منها سلمة واحدة ودفعها لأقوى جندى من رجاله وقال له : « أجهد نفسك فى كسرها كما هى » فمجز الجندى عما سأله إياه فقال له زاوى : « حلها وعالجها رمحا رمحا » فأنجز البربرى الأمر فى لحظته ، واذاك قال زاوى : « هذا مثلكم يا برابرة ، ان اجتمعتم لم تطاقوا ، وان تفرقتم لم تبقوا •• والجماعة فى طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعجلوا » فصاحوا جميعا : « نأخذ بالوثيقة ولا نلقى بايدينا الى التهلكة » فمضى زاوى فى كلامه آخذا بيد سليمان وقال : « بايعوا لهذا القرشى سليمان يرفع عنكم الأنفة فى الرياسات وتستميلوا اليه العامة بالجنسية » •

حينذاك أقسم الجميع يمين الولاء لسليمان وتسمى بالمستعين بالله، وعاد زاوى مرة أخرى فقال : « ان مثل هذه الحال لا يقوى على الاستطالة ، فليعد رئيس كل قبيلة منكم قبيله ، ويتكفل للسلطان بتقديمهم ، وأنا الكفيل بصنهاجة » •

وتم طلب زاوى الذى انتخب بطبيعة الحال ممثلا لقبيلة
صنهاجة (٥) .

أما الخليفة سليمان فلم تكن له أدنى سلطة على البربر الذين انتخبوا
رؤساءهم دون استشارته ، والحق أنه لم يكن سوى دمية فى أيديهم
يحركونها كيفما شاءوا .

زحف المغاربة بعد ذلك شطر وادى الحجارة (٦) ، فلما استولوا على
هذه المدينة عرضوا على واضح الانضمام اليهم وسألوه أن يفتح لهم أبواب
مدينة سالم فلم يستجب لعرضهم بل كر عليهم مهاجما اياهم بالنجادات
التي أرسلها المهدي اليه ، لكنه عاد مخذولا ، غير أن البربر لم ينعموا
بالنصر الذى حازوه لأن واضحا حرمهم من كل ذخيرة حتى لقد ظلوا
خمس عشرة يوما عديموا خلالها القوت غير خشاش الأرض فرأوا - تخلصا
من هذا المأزق - أن ينفذوا الى شانجة قومن قشتالة نفرا من رجالهم
يلحون عليه أن يتدخل لصالحهم ويعدونه بمحالفتهم اياه ما دام واضح
والمهدي عارفين عن السلم غير مستجيبين له .

ولما وصل نفر المغاربة الى مقر شانجة القومس وجدوا عنده سفارة
من قبل المهدي تحمل البه جيادا وبغالا وملابس وأحجارا كريمة وغير ذلك
من الهدايا ، كما وعدته هذه السفارة أن يتخلى له المهدي عن كثير من
المدن والحصون اذا هو مد يد المعونة الى خليفة قرطبة ، وهكذا تغبر
كل شئ فى أقل من شهر واحد ، ولم يعد المسلمون هم القوم الذين
يملون شروطهم على الامراء المسيحيين ، بل انعكست الآية فراح قومن
قشتالة هو الذى يقرر مصير اسبانيا العربية .

لما أدرك الكونت حقيقة الوضع عند جبرانه وعرف مبلغ ما اعترى قوة
المهدي من وهن تعمد للبربر بالانضمام اليهم اذا هم تخلوا له عن القلاع التي
وعده بها رسل المهدي ، فقبل البربر شروطه ، وحينذاك رد السفراء
الآخرين وبعث الى معسكر البربر ألف ثور وخمسة آلاف شاة وألف عجلة
من الدقيق وأنواع المأكول ، وبذلك أصبح البربر فى حال تمكنهم من شن
حملتهم ، وانضم اليهم الكونت برجاله ، وشرعوا فى الزحف على مدينة
سالم التي ما كاد البربر يقربون منها حتى جددوا مساعيهم لجذب واضح
الى صفهم ، لكن نجاحهم هذه المرة لم يكن أكثر من نجاحهم معه من قبل
فقرروا عدم اضاءة الوقت وزحفوا رأسا على قرطبة فى يوليو ١٠٠٩ م
[ذو الحجة ٣٩٩ هـ] وتعقبهم واضح بفرسانه هاجمهم ، غير أنه اضطر
للفرار بسبب قتل الكيرين من رجاله ودخل قرطبة فى أربعمئة فارس ،

وسرعان ما انضم اليه أحد قادته بمائتي فارس آخرين ممن ساعدتهم
الحظ فنجوا من المذبحة .

لما علم المهدي بالله بزحف البربر على العاصمة فرق السلاح على
كل قادر على حماه ، وتحصن في سهل يقع شرقي قرطبة ، غير أن ما انطبع
عليه من الغفلة دفعه للخروج من مأمنه لمواجهة العدو بدلا من انتظاره ،
والتقى الجمعان في « قنطيش » (٧) يوم ٥ نوفمبر ١٠٠٩ م
(السبت ١٣ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، وكانت كتيبة مؤلفة من
ثلاثين بربريا كافية لالقاء الفوضى في صفوف العدو المضطربة ، حتى لقد
أخذ ذلك الجيش المؤلف من العامة والعمال والفقهاء يدوس بعضه بعضا في
ارتداده السريع ، وتناوشت المئات منهم سيوف البربر والقشتاليين
كما ابتلعت أمواج الوادي الكبير منهم المئات ، حتى لقد قدر عدد القتلى
في هذه الواقعة المروعة بعشرة آلاف رجل (٨) .

ما كاد واضح يرى كل هذه الخسارة حتى ركض شمالا في فرسانه
الستمائة (٩) . أما المهدي فقد اختبأ في قصره ، لكن سرعان ما حاصره
البربر ففكر في انقاذ نفسه بإرجاع هشام الثاني (بن الحكم) الى الخلافة
فأبرزه (١٠) من سجنه وأجلسه في مكان يراه فيه البربر وبعث اليهم
قاضيه ابن ذكوان يقول لهم على لسانه : « انما أنا قائم دون هشام بن الحكم
ونائب عنه : كالخليفة والحاجب ، وهو أمير المؤمنين » فضحك البربر من
رسالة القاضي وقالوا له : « سبحان الله يا قاضي ، يموت هشام بالأمس
وتصلي عليه أنت وأميرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه ؟ وعلى كل
فالله محدود على سلامته ، أما نحن فلا حاجة لنا في امامته ولا نرضى
بغير سليمان » .

وحاول القاضي عبثا تبرير موقف مولاه ، وبينما هو في الكلام اذا
بقرطبيين يذهبون لتحية سليمان والاعتراف به بالخليفة الشرعي عليهم بعد
ان أزهبهم وهو يهدد أسوارهم .

بينما كان سليمان (بن أخى هشام) يدخل العاصمة التي أخذ البربر
والقشتاليون يقتربون بها شتى الموبات اذا بالمهدي يشخص الى طليطلة
للاختفاء بها في بيت رجل من أهلها اسمه « محمد الطليطلى » أمدّه
بكل ما يحتاجه لبلوغ هذه المدينة ، ولما كانت كل الأراضي التي بين طرطونة
ولشبونة لاتزال في يد المهدي بالله فقد أجاب سليمان شائجة حينما ذكره
بعهده له وعجزه عن الوفاء به في لحظته هذه لعدم استيلائه بعد على المدن
التي يطلبها منه ، لكنه جدد له اليمين بالتنازل عنها حالما تستسلم له ،
ومن ثم رحل شائجة عن قرطبة يوم [الاثنين] (١١) ١٤ نوفمبر ١٠٠٩ م

(= ٢٢ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، مستصحباً معه رجاله الذين أثروا على حساب سكان المدينة .

لم يطرأ أى تغيير على حظ هتسام فقد عاد سليمان فحبسته فى المطبق من جديد بعد أن أرغمه على التنازل له ، كما أذن بدفن جثة شانجول وفق الشعائر المألوفة ، نزولا على رغبة الموالي العامريين القدماء .

كان المهدي قد بلغ فى ذلك الوقت طليطلة فأكرم أهلها وفادته ، وأخذ سليمان فى الزحف لمهاجمته وبعث الى الطليطليين بجماعة من الزعماء المدنيين يخيفونهم من غضبته عليهم اذا هم أوضاعوا فى الفتنة ودأبوا على العصيان ، فلم ترهبهم هذه التهديدات . ولما كان سليمان يكره محاصرة مكان قوى مثل طليطلة بل يأمل أن تستسلم له من تلقاء ذاتها نسجا على منوال غيرها من المدن فقد زحف على مدينة سالم ، وانضم كثير من الصقالبة الى جيشه فى أثناء سيره واستولى على مدينة سالم دون اوراق نقطة دم لأن واضحا كان قد أخلاها وارتد الى طرطوشة التى أنفذ منها الى سليمان كتابا ينبئ فيه باعترافه بخلافته ان تركه مقيما حيث هو ، وكان يرمى من وراء ذلك الى خديعة سليمان وأتباعه والى كسب الوقت ، وجازت حيلة واضح على سليمان الذى وقع فى الأحبولة فترك له حكومة جميع الثغور يصرف أمورها كيف شاء .

واذ أصبح واضح مطلق اليدين بادر الى عقد حلف مع القومسين القطلونيين : ريموند صاحب برشلونة وأرمقند صاحب أرجيل بعد أن تعهد لهما بالوفاء بكل ما طلباه منه ، ثم سار شطر طليطلة على رأس جيشه وجيش آخر قطلونى ، وعمل على الاتصال بقوات المهدي ، وحينذاك دعى سليمان أهل قرطبة لحمل السلاح ، لكن لما كان هؤلاء لا يحبون العمل تحت امره المغاربة فقد امتنعوا عن استجابته متذرعين بأنهم غير متأهبين للحرب وطابق الخبر فى وقعة قنطيش .

أما البربر الذين كانوا يؤثرون ألا يكون فى صفوفهم جند من هذه الجيلة فقد طلبوا الى سليمان أن يكل اليهم أمر كسب المعركة من أجله ، فأجابهم سليمان الى مطلبهم ، فلما تقدموا وبلغوا عقبة البقر (١٢) وهى محلة على بعد أربعة فراسخ من قرطبة التقوا بجيش خصمهم وكان قوامه ثلاثين ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحي ، وجرى ذلك فى النصف الأول (١٣) من يونيو ١٠١٠ (ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) فجاء قادة سليمان وجعلوه فى المؤخرة وطلبوا اليه ألا يبرح موضعه هذا أبدا حتى ولو وطأ العدو تحت أقدامه ، ثم أخذوا هم فى مهاجمة القوات القطلونية ، غير أنهم تبعوا

لخطط هجوم الحرب الشرقية استديروا العدو وطوقوه وكروا عليه كرة صدق ، وعلى الرغم من أوامر قواد سليمان اليه ألا أنه للأسف لم يدرك مرمى تدبيرهم الحربى هذا فما كاد يرى المقدمة تتقهقر حتى أيقن أن الهزيمة لحقت بهم فأطلق لجواده العنان ، واقتدى به من حوله من الفرسان ، بيد أن البربر عاودوا الهجوم على عدوهم بشدة فقتلوا ستين زعيما قطلونيا ، ومن بينهم أرمقند صاحب أرجيل .

لكنهم لما رأوا سليمان قد غادر مكانه عادوا الى الزهراء وبذلك كسب القطلونيون المعركة وأدى جهل سليمان وجنده الى هزيمته فى عقبة البقر التى كان من المتوقع أن يخرج منها ظافرا منتصرا لو أنه أدرك خطط قواده وامتلأ لأوامرهم ، وهكذا رجحت كفة القطلونيين ، والظاهر أن ذلك راجع لعدم مساهمة قوات واضح والمهدى مساهمة جدية فى القتال .

ارتد المهدى الى قرطبة ، وهكذا قدر للبلد المنكود الذى نهب منذ ستة شهور على يد القشتاليين والبربر أن ينهب من جديد على أيدي القطلونيين .

ومضى المهدى يتعقب البربر الذين زحفوا على الجزيرة الخضراء فانبسطوا فيها يقتلون كل من يعترضهم ويسلبون القرى ، غير أنهم ارتدوا على أعقابهم حينما علموا أن عدوهم جاء فى آثارهم .

فلما كان يوم ٢١ يونيو ١٠١٠ (١٤) = الجمعة ٨ ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ) التقى الزحفان المتعاديان قرب المكان الذى يصب فيه نهر اوادى آدة فى الوادى الكبير ، وفى هذه المرة مسح المغاربة عار تقهقرهم فى وقعة البقر ، وفر جيش المهدى بالله تاركا فى ساحة الحرب القتلى وفيهم كثير من الصقالبة ، وما ينوف على ثلاثة آلاف قطلونى ، كما ابتعأت مياه الوادى الكبير أعدادا ضخمة من الجند (١٥) .

عاد القطلونيون المغلوبون بعد ذلك بيومين الى قرطبة غاضبين لهزيمتهم ، فأمعنوا فى القتل فى وحشية غريبة ، لاسيما أنهم راحوا يقتلون كل من يشبه البربر بأى وجه من الوجوه ، فلما طلب المهدى منهم معاودة القتال الى جانبه مرة أخرى رفضوا طلبه محتجين بفداحة الخسائر التى حاقت بهم مما لا يسمح لهم بالقتال ، ثم انصرفوا عن قرطبة يوم ٨ يوليو ١٠١٠ م (= السبت ٢٣ ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) ، وعلى الرغم من جميع المساوىء التى ارتكبها القطلانيون فقد انزعج الأهالى لرحيلهم ،

« إذ لم يكن ثم خطر يفوق خطر البربر الذين كان في استطاعة القطلانيين وحدهم دفعهم ، حتى ليقول مؤرخ عربي بعد رحيلهم « كان لأهل قرطبة لفراقهم أكبر هم ، حتى كان بعضهم يلقي بعضا فيعزيه كما يعزى من فقد أهله وماله ، أسفا على رحيلهم وجزعا من وصول البربر اليهم » .

فرض المهدي بالله على المدينة غرامة فادحة تمكنه من دفع رواتب جنده ، ثم زحف على العدو ، لكن جيشه كان قد فقد شجاعته مند رحيل القطلانيين عنه ، فلم يكذ زجاله يقطعون سبعا قراسخ حتى اعتراهم خوف شديد لمجرد تفكيرهم في أنهم سوف يواجهون بعد قليل أولئك البربر المخيفين فانقلبوا على أعقابهم الى قرطبة ، ومن ثم كان على المهدي انتظار العدو في العاصمة التي خندقها وسورها ، غير أن القدر شاء أن يكون سقوطه على يد الصقالبة وليس على يد البربر .

كان تحت راية المهدي بالله جماعة من الصقالبة وكبيرهم واضح ، أما البقية الأخرى منهم - وفيهم خيران وعنبر - فقد انقادوا لمناوئيه ، وشعر جميع الصقالبة بضرورة اتحادهم معا رغبة في تحقيق أهدافهم ومطامعهم ، ألا وهي أن تكون « القوة » في أيديهم ، فصمموا أن يجلسوا على العرش هشاما الثاني مكانه في كرسى الخلافة ، ومن أجل تحقيق هذه الخطة عمل واضح جهده على إثارة سخط سكان العاصمة وأخذ يبالح في الأرجاف بأخبا رتعلق بحياة الفسق والفجور التي يحياها « السفية » ، ومضى يقبح لدى العامة الفوضى التي يرتكبها الجند ، هذا مع أنه كان في الوقت ذاته يشجعهم عليها سرا ، ولما أفسدت هذه المكائد البقية الباقية من حب الشعب للمهدي بالله تقدم خيران وعنبر وبقية قادة جيش سليمان من الصقالبة الى المهدي يعرضون عليه خدماتهم ، فتعجل هذا بقبول عرضهم ، لكن ما كاد هؤلاء المرتزقة يدخلون قرطبة حتى أدرك أنهم يتآمرون به ، ولما كان عاجزا عن مقاومتهم فقد صمم على الاعتصام مرة أخرى بطليطلة ، فحال الصقالبة بينه وبين ما يريد ، وفي يوم الأحد ٢٣ يوليو ١٠١٠ م (= ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ) ركبوا في شوارع قرطبة ينادون بهشام الثاني ، وأخرجوه من سجنه وأجلسوه على كرسى الخلافة ونادوا بشعاره .

كان المهدي بالله في هذه اللحظة في الحمام ، فلما نعى إليه خبر ما جرى انطلق لساعته الى دار الملك ليجلس الى جوار هشام لولا أن جذبه عنبر جذبة شديدة من ذراعه وأنزله عن العرش وأرغمه على الجلوس بين يدي هشام الذي أنبه في لهجة عنيفة قاسية على ما ارتكبه في حقّه وما أنزله به من المصائب ،

ثم تقلم عنبر فأمسك بالهدي من ذراع طرحة أرضها واستل
السيف ليضرب به عتقه ، وحينذاك طوقه المهدي ، فلما رأى بقية الصقالبة
ذلك المنظر أقبلوا عليه يتناوشونه بسيوفهم فهبروه بها حتى مات ،
ثم سحبوا جثته الى الرصيف الذي وضعت فيه جثة ابن عسقلاجة قبل ذلك
بسبعة عشر شهرا .

وهكذا اذا كان قد صعد العرش بمؤامرة فان هناك مؤامرة أخرى
ببلبته العرش والحياة معا (١٦) .

الفصل الخامس عشر

الكراهية ضد الصقالبة • في العاصمة • سليمان يطلب
النجدة من شانجة كوند قشتالة • استرداد شانجة بعض
القلاع من غير حرب • ضراوة البربر ضد قرطبة والزهاء
محاولة الصقالبة الانتقام • مقتل حابسة بن أخى زاوى •
استبدال القرطبيين فى الدفاع عن مدينتهم • عودة سليمان
للقرص الخليفي •

الفصل الخامس عشر

الأندلس بين الصقالبة والبربر

كان الصقالبة يبلغون أقصى القوة اذا كان الحاكم شديد الضعف كما هو الحال ازاء هشام الثاني ، فقد تطلع واضح الحاجب الى حكم أسبانيا كما فعل مولا المنصور من قبل ، غير أن الظروف لسوء طالع كانت غير الظروف السابقة فقد تبدلت الأمور ، وشتان ما بين واضح والمنصور ، وفي الواقع أنه لم يبد في بادئ الأمر شيء من المعارضة بالعاصمة التي لم يجزع أحد فيها لمصرع الطاغية المهدي بالله الذي طيف برأسه في الشوارع دون أن تلوح بارقة من التذمر ، وسرعان ما تبين واضح انهيار أمله في اللحظة التي كان فيها اعتراف البربر بالحاكم الذي ألبسه التاج ، فقد اشتد بهم السخط عليه حينما بعث اليهم برأس المهدي رجاء العودة الى طاعة هشام ، وهموا بأن يفتكوا بحامل الرسالة لولا توسط سليمان في الإبقاء عليه حتى لقد بكى سليمان نفسه أسفا على منظر رأس ابن عمه ، ومن ثم غسله وأرسله الى عبيد الله بن المهدي الذي كان موجودا اذ ذاك بطليطلة .

تنبه واضح لموقف البربر ثم لم يلبث أن أدرك بعد قليل وجسود أعداء له داخل المدينة ذاتها ، ذلك أن بعض الأمويين كانوا كارهين للسيادة الصقلبية ، ورأوا أن تحقيق منافعهم الشخصية يتطلب منهم أن يكونوا الى جانب سليمان فأوعزوا اليه سرا بوجوب التقدم يوم ١٢ أغسطس (= ٢٧ ذو الحجة سنة ٤٠٠ هـ) الى أبواب العاصمة ومن ثم يمكنونه منها ، فوعدهم سليمان بالحضور ، غير أن واضحا علم من خيران وعنبر بالمؤامرة التي تدبر ضده ، فقبض على المتآمرين ولما كان سليمان قد حدد يوما يظهر فيه أمام أسوار البلد فقد هوجم بشدة واضطر الى التراجع السريع (١)

كان واضح يأمل أن يسلس التراجع من شكيمة البربر فعاد لمفاوضتهم من جديد دون أن يحصل على نتيجة ما ، وفي هذه الأثناء طلب سليمان النجدة من حليفه القديم شانجة كونت قشتالة عارضا عليه التنازل عن الحصون التي كان المنصور قد استولى عليها منه ، ولا ندري عما اذا كانت هذه هي نفس الحصون التي وعده بها من قبل ، غير أن المؤكد هو أن الكونت وجد هذه المرة الوسيلة لزيادة رقعة أملاكه دون أن يكلفه ذلك ارسال حملة الى الأندلس .

لم تكن القلاع المتفق عليها في حوزة سليمان بل في يد واضح ، ومن ثم فقد أفهمه شانجة بوجوب التخلي له عنها والا زحف عليه في رجاله القشتاليين وانضموا الى جانب البربر ، فكانت مسئولية قبول ذلك الطلب أو رفضه أخطر من أن يتحملها واضح وحده ، فأرسل في طلب وجوه الناس وأقضى اليهم بفحوى رسالة شانجة وسألهم أن يحضروه النصح ويشيروا عليه بما يفعل ، فكان ردهم عليه أنه ينبغي عليه قبول هذا الطلب مدفوعين الى ذلك بخوفهم من رؤية البربر يهاجمونهم بمساعدة القشتاليين ، فتغلب ذلك على ما عندهم من روح الكبرياء القومي ، وفي شهر أغسطس أو سبتمبر ١٠١٠ م (= المحرم سنة ٤٠١ هـ) عقد واضح مع شانجة معاهدة أسلمه فيها - على حد قول الكتاب المسلمين - أكثر من مائتي خضن ، يذكر منها المؤرخون المسيحيون (٢) شانت شتين وكرويتيا وليكوند وجرماز ، ووخشمة .

وسرت هذه الروح كالعدي فقد رأى أحد الكونتات الآخرين أن قليلا من الوعيد والتهديد كاف للحصول على بعض القلاع الحصينة ، فقام بدوره مهددا بانضمامه من ساعته الى جانب سليمان ان لم يجب الى مطلبه ، فلم يجرؤ أحد على رفض ما طلب ، وهكذا أصبحت الامبراطورية الاسلامية فريسة للفتن والانحلال ، كما راحت تسير في طريق التمزق .

فهل لازال قرطبة فرحين بسقوط بنى عامر ؟ وهل لازالوا يعدون يوم سقوط العامريين يوم فرحة لهم كما قد نستدل على ذلك من حماسيتهم الشديدة في تأييدهم الثورة ؟

الواقع أنهم كانوا جد مخطئين لكنهم لم يكونوا يستطيعون التراجع ، فكان عليهم وسط الظروف المحيطة بهم أن يرضوا بطاظة هামاتهم أمام أعداء دينهم والرضوخ للسيطرة التي يريد البربر والصقالبة فرضها عليهم ومقاساة أهوال النهب والسلب على يد هؤلاء وهؤلاء .

ومجمل القول انه كان عليهم قبول كل ما يتعرض له الجماعات التي تسير من غير هدف محدد واضح ، ومن غير أن تكون لديها فكرة سياسية أو دينية تسعى لتحقيقها ، فبدفعها الطيش لأن تطرح بنفسها في أعصار الثورات .

الا أن أهل قرطبة لم يكونوا وحدهم في هذه اللحظة أكثر الناس معاناة لشدة وطأة البربر الذين حاصروا بلدهم قرطبة مدة شهر ونصف ثم حملوا على مدينة الزهراء فاستسلمت لهم بعد حصار دام ثلاثة أيام فقط ، ويرجع سبب استسلامها إلى خيانة أحد القادة فقد فتح لهم أبوابها يوم ٤ نوفمبر ١٠١٠ م (= ٢٤ ربيع الأول ٤٠١ هـ) ، وجرت مذبحة مروعة فكان ما أصاب الزهراء على يد البربر كافيا لأن يدرك منه القرطبيون ما يدخره لهم هؤلاء اذا كانوا لا يزالون في شك من مصيرهم ، فقد ذبحوا جند الحامية على بكرة أبيهم ، واعتصم الناس بالمسجد الذي لم يحترم البربر قداسته فلم يبقوا على أحد لاذ به : رجلا كان أم امرأة أم طفلا ، بل قتلوهم جميعا ، ثم أضرموا النيران في المدينة بعد أن استباحوها ، وبذلك لاقت الزهراء التي لم يكن لجمالها ضريب في أوربة ما لاقت منافستها فأصبحت كومة من الأنقاض .

ظل فريق من الجيش المغربي طوال الشتاء ينهب ضواحي قرطبة ويحول دون وصول الطعام إلى المدينة ، فلما جرد سكان الأقاليم المجاورة من كل ما يملكونه تراحموا زرافات ، وجاوز عددهم عدد السكان وارتفعت أسعار الغلال ارتفاعا فاحشا استحال معه تموين هؤلاء فمات الكثيرون منهم جوعا وأصبحت الحكومة نفسها على شفا الأفلاس لقلّة دخلها حتى اضطر الحاجب واضح لبيع الجزء الكبير من مكتبة الحكم الثاني بثمان زهيد (٣) ، وأن أخذت في الوقت ذاته جماعات قطاع الطرق تنهب الولايات فسقطت المدن الكبرى في أيديهم ، وكان أشد الأمور نكاية هو معاناة السكان ما عانتها الزهراء ، وهكذا كان كل مكان باسبانيا مسرحا تمثّل عليه أفجع المناظر ، فهجرت القرى حتى لقد كان المرء يسير بضعة أيام في الطرق التي كانت مأهولة من قبل فلا يصادف أي كائن حي .

وفي صيف ١٠١١ م (= ٤٠١ هـ) تفاقم بؤس الأندلس لاسيما قرطبة ، وكان هذه المدينة المنكوبة التي اجتاحتها الطاعون (٤) قد اطمأنت إلى توالى المصائب عليها فازدادت الفوضى ، ونسب الجند إلى واضح ما حاق بهم من النكبات ، كما راح القائد الصقلبي ابن أبي وداعة - عدو الحاجب الشيعي - يعمل على إثارة السخط ضد واضح ، فقد سبه ابن أبي وداعة

على ملا من الناس ، وأدرك واضح اضطراب مكانته ، فندب شخصيا يدعى
أبا بكر للذهاب الى سليمان والاتفاق معه على الصلح [ويشير عليه بمنازلة
قرطبة بعد رحيله عنها] ، فأثار هذا المسلك حفيظة الصقلية لذلك
ما كاد أبو بكر يعود بعد مفاوضات خصم الخليفة ويدخل قاعة الملك حتى
وثب الجند عليه ولم يدعوه يذكر الجواب الذي كان يحمل ، وذبحوه
في حضرة الخليفة وفي حضرة واضح الذي صمم في لحظته هذه على الفرار
الى البربر ، غير أن خبر عزمه على الهروب تراسى الى ابن أبي وداعة فحال
بينه وبين تنفيذه ، إذ جمع جنده واقتحم بهم قصر الحاجب قائلا له :
« لقد أسرفت في الأموال ، ثم تعتزم بعد ذلك على مصالحة البربر ؟ » ،
ثم ضربه بصفح سيفه ، ثم طرحت جثته يسوم ١٦ أكتوبر ١٠١٠ م
(= ١٥ ربيع الأول سنة ٤٠٢ هـ) حيث طرحت من قبل جثتا المهدي
بالله وابن عسقلانة .

انقضى عام ونصف عام بعد ذلك قبل أن يضع العدو السيف عن
الصقلية والقرطبيين ، وفي هذه الفترة حكم ابن أبي وداعة المدينة بيد من
حديد وبقسوة متناهية ، وآزره الفقهاء كل المؤازرة فسموا حرب البربر
جهادا ، وأصاب المحاصرون شيبا من الغنم ذلك أنه في شهر مايو ١٠١٢ م
(= شوال ٤٠٢ هـ) وقع في أيديهم محارب بربري بارز هو
حباسة بن أخى زاوى ، إذ أخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى
لقى نفسه وسط محاربيه وإذا بحزام سرجه يرتخي وما كاد ينحني لشده
حتى سدد اليه صقلبي نصراني طعنة شديدة من رمحه أسقطته عن فرسه ،
وسرعان ما أجهزت عليه جماعة أخرى من الصقلية فحاول أخوه حبوس
انتزاع جثته من يد العدو فقاتلوه فلم يظفر ببغيته ، وحمل الصقلية
رأس حباسة الى القصر يزدهيهم النصر وتركوا جثته للشعب الغاضب
الذى أضرم فيها النار بعد أن مثل بها أفعى تمثيل وطاف بها الشوارع ،
فاشتد حنق البربر وقالوا « سننار لشيخنا ، وإذا أرقنا دماء القرطبيين
جميعا فلا نكون قد اكتفيننا بثأرنا » (٥) وإذا ذاك ضاعفوا من عنفهم ،
غير أن اليأس منع القرطبيين قوة جبارة ، وخرج ابن أبي وداعة مبربرا
حتى أرغم خصومه على رفع الحصار ودفعهم عن أشبيلية ، لكنه عجز عن
أن يمنعهم من الاستيلاء على قلعة رباح ، بيد أنهم ما لبثوا أن عادوا الى أسوار
العاصمة التى رغم استماتة القرطبيين فى الدفاع عنها إلا أن البربر
استطاعوا ردم الخندق مما ساعدهم على السيطرة على الجانب الشرقى منها ،
لكن يظهر أن الحظ واتى القرطبيين مرة أخرى فقد أرغموا عدوهم على
التخلي عن الجزء الذى وقع فى يده ، وكانت هذه آخر مرة ينتصر فيها
القرطبيون (٦) إذ دخل البربر المدينة من باب ضاحية شقندة بعد أن

رشوا أحد الضباط ففتح له ذلك يوم الأحد ١٩ إبريل ١٠١٣ م
(= ٥ شوال سنة ٤٠٣ هـ) ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها الطويلة سيلا
من الدماء الجارفة ، فقد ارتد الصقالبة فاشلين وأخذ البربر يجوسون
خلال الشوارع يصيحون صيحات منكرة وانسابوا في المدينة مدمرين
وسالبين ومقتلين الناس ، وراح الأهالي الوادعون ضحية غضبهم الأعمى ،
فكان من القتل سعيد بن منذر خطيب جامع المدينة منذ أيام الحكم الثاني
والذي زكاه فضله وورعه فأعيد اختياره (٧) ، وكان من القتل أيضا
مروان التعس من أسرة بنى حدير الشريفة الذي أحب قفشل فيثس
فجن (٨) وطرحوا جثة العالم ابن الفرضي صاحب معجم التراجم القيم ،
وكان ابن الفرضي (٩) قاضي بلنسية زمن المهدي ، وقد تحقق رجاؤه
الذي تمناه في لحظة من لحظات الحماسة الدينية في أن يموت
شهيدا فمات الميتة التي اشتهاها (١٠) .

وتعددت الضحايا حتى ليعجز المرء عن عدّها .

وفي نفس الوقت كانت النيران تشتعل وتلقى بأضوائها المشنومة
على هذه المناظر المروعة ، وغدت أفخم القصور طعمة للنار حتى لقد
قال ابن حزم (١١) فيما بعد : « انتزى أرباب الدولة على الناس
وامتحنوهم بالاعتقال والترقيب والاغترام الفادح والاستتار ، وأرذمت
الفتنة ، وألقت باعها وعمت الناس » .

وفي اليوم التالي لاحتلال المدينة ذهب سليمان لامتلاك القصر
الخليفي وجيء له بجميع القرطبيين الذين شاعت الصدفه البهتة أن
ينجو من سيوف البربر ، وأوقفوهم على جانبي الطريق لتحيته ،
وعلى الرغم من أنهم كانوا مروعين من المناظر المؤلمة التي قدر لهم أن
يشاهدوها فقد سعوا جهدهم للهتاف له ، ولكنه هو كان يدرك حقيقة هذه
الحماسة المصطنعة ، فقال متمثلا بقول شاعر قديم (١٢) :

يقولون لي أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بي ساعة قتلوني
ولما بلغ القصر جاء بهشام الثاني وقال له : « أما كنت تبرات لي من
الخلافة وأعطيتني صفقة يمينك .. فما حملك على أن نقضت عهدك
وحللت عقدك ؟ » .

فضم هشام البائس يديه وأجابه : « اني مغلوب على أمرى متبريء
من الخلافة ، ومسلم الأمر اليك وخالع لك نفسي » .

أما البربر فقد استقروا أولا في شقندة ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر
نفي جميع سكان قرطبة ماعدا الذين ينزلون الناحية الشرقية والميدان
المسمى بالمدينة وصودرت أملاكهم ، وضمت الى المنتصر الذي احتل
اذ ذاك البيوت التي نجت من الحريق (١٣) .

الفصل السادس عشر

• تمزق وحدة البلاد • خلاصة الراى فى الخليفة سليمان •
• كراهية الناس لظلمه • خيران الصقلبي يستولى على المرية •
• على بن حمود البربرى وطهوحه الى الخلافة • هل هشام حى
أم ميت ؟ قتل سليمان وتولية على بن حمود • انقلاب خيران
عليه وتلويحه بلعى أموى للحكم • ترحيب القرطبيين بحاكم
أموى • انقلاب ابن حمود عليهم ومصادقته البربر وأثر
مظالمه • مقتله • مبايعة ابنه القاسم • خيران والمندر يختاران
المرتضى الذى يرفضه زاوى • غدر خيران والمندر بالمرتضى •
عدل القاسم فى الحكم • استكثاره من السودان يثير البربر
عليه • فرار القاسم والنزاع الأسرى • ثورة أهل قرطبة •
ابن أخيه يغلبه ويحبسه ثم يقتله خنقا • مبايعة عبد الرحمن
المستظهر أخى المهدي بالخلافة •

الفصل السادس عشر

المنازعات والخصومات المموية

حول الحكم

استقل كثير من ولاية الأقاليم منذ اندلاع الفتن - بما في أيديهم ، وكان سقوط قرطبة في يد البربر آخر طعنة مزقت وحدة الامبراطورية فاستولى القواد الصقالبة على بعض المدن الكبرى في الشرق ، كما استقل زعماء البربر استقلالاً تاماً فيما كان بيدهم من الاقطاعات أو الولايات التي أقطعهم إياها العامريون ، أما الشراذم القليلة الباقية من الأسرات العربية التي كانت لا تزال على شيء من القوة تؤهلها للاعتبار فقد تجاهلت الخليفة الجديد الذي كان سلطانه يمتد على خمس مدن كبرى فقط هي قرطبة واشبيلية ولبلة وأكشومية وباجة .

كان هناك من المظاهر - وإن قل - ما يدل على تبدل الأمور ، فقد كان البربر يتوقون للتمتع بالأموال التي أصابوها من جراء تخريب العاصمة وبعض المدن الأخرى ، كما أن سليمان نفسه - على الرغم من اضطرابه لحوض غمار الحرب مدة أربع سنوات - لم يكن أبداً بالشخص المحب للحرب بل كان على الضد من ذلك ، فعلى الرغم من أنه كان رئيس هذا النفر الوحشي الذي خرب كل الامبراطورية إلا أنه كان رجلاً ملؤه الانصاف والدمائة والكرم ، وكان محباً للآداب ، جيد النظم ، قد انطوت نفسه - تجاه المرأة - على الفروسية التي من مظاهرها احترامها لها واصطناعه الرقة حيالها ، وكان يعمل كل ما في جهده لايجاد جو من الهدوء بعد هذه العواصف ، غير أن سوء طالعه أبى إلا أن تشتد نكمة الشعب عليه من جراء فظاظة جنده الذين قصرت يده عن أن تنالهم بالعقاب ، لاسيما وأن خضوعهم له كان مرهوناً بإطلاق يدهم وفق ما يشتهون ، وكان الأندلسيون يرون فيه رجلاً مغموراً بالإيمان معدوم الناموس (١) ، وكافراً زنديقاً مغتصباً ، وأنه بلغ العرش على اكتاف البربر ومسيحيي الشمال أعنى الجماعتين اللتين يفرع منهما الناس ،

وما كان أشد غفلته حين أنفذ إلى المدن المختلفة الكتب ينبؤها فيها بأنه
معاملا بما عامل به قرطبة ان لم تعترف به (٢) ، فانصبت اللعنات عليه
من كل ناحية وقال في ذلك أحد الشعراء (٣) :

لا رحم الله سليمانكم فانه ضد سليمان
ذاك به غلت شياطينها وحل هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا لهلك سكان وأوطان

وقال أيضا :

حلفت بمن صلى وصام وكبرا لأغمدها فيمن طغى وتجبرا
وأبصر دين الله تحيي رسوما فبدل ما قيد لاح منها وغبرا
فيا عجبا من عبثي مملتك برغم المصالي والعوالي تبتبرا
قلو أن أمرى بالخيار لبذتهم وحاكمتهم للسيف حكما محبرا
فاما حياة تستلذ بفقدهم واما حيايم لا نرى فيه ما نرى

هذه هي مشاعر الأندلسيين بل الصقالبة أيضا الذين دأبوا على
الدعاء في الصلاة لهشام الثاني رغم كثرة الحاح سليمان وزجائه إياهم
بالدعاء له مكانه ، وأكد لهم أنه قانع منهم بهذا المظهر من الخضوع لا ينتفى
معه المزيد منهم (٤) ، هذا على الرغم من أنهم كانوا غير واثقين من بقاء
هشام حيا ، فقد تناقضت الاشاعات التي كثرت حول مصيره ، فمن قائل
أنه مات مقتولا على يد سليمان ، ومن قائل أنه محبوس في قبر مظلم
بالقصر ، وكان الناس أميل لتصديق الشائعة الثانية وترجيحها لأن العادة
جرت بأن مفتصنب العرش لا يد وأن يظهر لجمهور العاصمة جثمان الذي
تخلى له عن العرش لو أنه مات ، ولم يحدث قط أن أطلع سليمان أحدا
مها على جثة هشام (٥) ، لذلك ظل الصقالبة يحاربون باسم هشام ،
وكان من أظهرهم خيران .

ولما كان خيران هذا مولى للمنصور الذي ولاه أعمال المرية (٦) فقد
وكن إلى الفرار من قرطبة حين دخلها البربر فمضوا في أثره فاضطر
لقتالهم ، ثم تخلت عنه قواته ممعنة في الفرار تاركة إياه في معصيان القبال
والموت منه دان فقد أثخنته جراحه ، حتى اذا اندملت هذه الجراح ووجد في
نفسه القدرة على المسير عاد إلى قرطبة حيث أكرم وفادته صديق له من
المنتصرين ، وزوده بذئب الصديق بمبلغ من المال أعانه على العودة
للشرق حيث انضم تحت لوائه كثير من الصقالبة والأندلسيين الذين تمكن

بهم من الاستيلاء على المرية بعد أن حاصرها عشرين يوماً . وفي هذه الأثناء وجد حليفاً قوياً في أحد قادة سليمان . ذلك هو علي بن حمود الذي يرج نسبته إلى النبي [عليه الصلاة والسلام] وكانت أسرته قد أقامت منذ قرنين في إفريقية فتبربرت ، كما كان هو نفسه ضعيف اللسان في العربية ، أو تولى حكم سبتة وطنجة ، كما حكم أخوه الأكبر القاسم الجزيرة الخضراء . فكان علي بن حمود شبه مستقل في ولايته ، لكنه لم يقنع بما هو فيه بل كان يتطلع إلى الخلافة التي لم يجد إليها غير سبيل واحدة ألا وهي محالفة الصقالبة ، ففاتح خيران في هذا الأمر وأراد كسبه إلى جانبه بتدبير خرافة عجيبة إذ ادعى أن هشاماً الثاني كان يشتغل بالملاحم ووقف على أن علوي أول اسمه « عين » يعيد ملك الأمويين بعد انقراضه ، وأضاف إلى ذلك قوله أنه سماع هشاماً يتحدث عنه بعد سقوط قرطبة وبعث من سجنه من يقول « إن خاطري يحدثني بأن هذا الرجل يقتلني » ، فإن فعل فخذ بثأري « فاستخف الفرخ خيران أن تهيأ له مثل هذا المساعد وآمن . بأن هشاماً لا يزال حياً ، وقبل هذه الرواية دون بحث أو تحقير ، ولما كان بن حمود وعده بإرجاع هشام إلى العرش أن عثروا عليه فقد تكفل خيران بالاعتراف بابن حمود أن قام الدليل على موت هشام (٧) .

حين اتفق الطرفان على هذه الشروط عبر علي بن حمود المجاز وطلب من عامر بن فتوح (الفائق) حاكم مالقة أن يسلمه المدينة ، ولما كان عامر مولى لمولى أموي (٨) ، ولما كانت الأمور تقتضي اتفاقه مع الصقالبة ولما كان يضم الكراهية الشخصية للبربر لأن أحد رؤسائهم سلبه رندة (٩) فقد أجاب طلب علي بن حمود الذي حمل بعد ذلك على (المنكب) حيث انضم إليه خيران بقواته ، ثم واصل الزحف على قرطبة .

لم يقتصر اعتماد علي بن حمود على الصقالبة وحدهم بل اعتمد أيضاً على طائفة كبيرة من البربر الذين كانوا على وجه العموم قليلي التعلق بسليمان إذ لم ينادوا به خليفة إلا لأن الصدفة البحتة وضعتهم في طريقهم في اللحظة التي كانوا أحوج ما يكونون فيها إلى أحد الأعداء ، وكان أشد ما يبغضهم فيه هو لين عريكته وانعدام كفاءته الحربية . التي هي ميزان تقديرهم للرجل ، وكانت الحال على الضد من ذلك من ناحية علي بن حمود فقد دفعته شجاعته إلى احتدامهم إياه فضلاً عن كونه من أبناء جلدتهم ، وانضم إليهم زاوي أقوى زعمائهم وحاكم غرناطة إذ ذاك ، وهو الذي أجلس سليماناً على العرش وكان شديد الكراهية للأمويين عامة ، فقد قتل أبوه في معركة بإفريقية خاضها ضد جماعة من أنصار بني أمية وعلقت رأسه على أسوار قلعة قرطبة حيث ظلت باقية مكانها حتى استولى هو وأتباعه على تلك العاصمة وخربوها ، وكانت هذه جريمة لم يغفرها

أبدا للأمويين (١٠) ، وبذلك انضم زاوي الى علي بن حمود الذي رفع علم الحرب ، وأثر مسلكه هذا على بقية البربر الذين أرسلهم سليمان لمحاربة منافسه فلم يقاتلوه ، وبرر أحدهم هذا المسلك بقوله : « اذا أردت يا أمير اكتساب الحرب فعليك أن تقودنا بنفسك » ، فأطاعهم حتى اذا صاروا على كثر من معسكر العدو عملت الرشوة عملها فيهم فأركبوا سليمان بغلته وأسلموه الى خصمه .

وفي يوم الأحد أول يوليو ١٠١٦ م [٢٢ محرم ٤٠٧ هـ] دخل على وحلفاؤه العاصمة ، وكان أول هم خيران والصقالبية البحث عن هشام الثاني ، وراحت جهودهم في هذا السبيل عبثا ، وكان ذلك من حسن طالع علي الذي استقدم سليمان بين يدي الوزراء والفقهاء وسأله عما حل بهشام فأجاب سليمان في ايجاز : « لقد مات » فقال علي : « فأين لحدتموه ؟ » فدلهم سليمان على أحد القبور فنبشوه وأخرجوا جثة مولاه ، فما كان من الخادم الذي يؤكدون علمه بوجود هشام حيا في هذه اللحظة الا أن أكد أنها جثته مدفوعا الى ذلك بخوفه من علي بن حمود، بل لقد أراد زيادة البرهنة على ذلك فلاحظ ضرسا أسود في فم الميت مؤكدا أنه كان لهشام مثل ذلك ، وأكد شهادته آخرون أرادوا اكتساب رضا علي عليهم أو لعلمهم خافوا تقيته بليهم . وهكذا اضطر الصقالبية للاعتراف بموت السلطان الشرعي والاقرار بخلافته على الذي ضرب عنق سليمان وأمر بقتل أخيه وأبيه ، فلما وصلوا الى الأب قال له ابن حمود : « أهكذا يا شيخ قتلتم هشاما ؟ » فأجابه الشيخ التقى ابن السبعين الذي كانت العبادة شغله ولم يسناهم قط في الأحداث السياسية بقوله : « لا والله ما قتلناه ، وانه لحى يرزق » ، فعاجله على مخافة الجهر بما يفسد عليه خطته، وأمر الجلاد بضرب عنقه فضربه (١١) . ثم دفنوا الجثة التي زعموها لهشام - مرة أخرى - بجميع مظاهر التشریف الملوكية .

فهل حقيقة مات هذا الحاكم ؟

ان روح التحزب تلقى على هذه الناحية حجابا كثيفا لا يمكن اختراقه ، ومن المؤكد أن هشاما لم يظهر بعد ذلك أبدا ، وان الجثة التي قيل انها له كانت مزعومة .

غير انه من ناحية أخرى لم يقد الدليل البين هل مات هشام على يد سليمان أم انه لاقى حتفه في عهد هذا الأمير . كما أن الموالي الأمويين الذين كانوا يعرفونه راحوا يؤكدون أن الجثة التي أخرجها علي بن حمود لم تكن جثة هشام ، ومع أن سليمان نفسه صرح أمام كبار رجال قرطبة

بموت هشام منذ مدة الا أننا نشك في شهادته ، فلعل عليا مناه بالابقاء
على حياته لو أنه صرح به فما كان من سليمان أبدا سفاك دماء ولم يكن
يخطر بباله قط أن يقدم على جريمة أحجم عنها المهدي بالله رغم ضراوته ،
كذلك يجب أن نذكر انه كان لابد لسليمان من أن يعرض جثة هشام على
أهل قرطبة - كما جرت العادة - لو أن هشاما مات في أيامه لا سيما وأن
ذلك يزكى صالحه .

واذا كان الأمويون صادقين فيما ادعوه من أنه كان يستصغر (١٢)
شأن القرطبيين حتى انه لم يفكر في عرضها عليهم ، فقد تناسوا أنه كان
لا يستهين بالصقالبة بل كان يبذل كل ما في وسعه لحملهم للاعتراف
بخلافته ، لذلك كانت أحسن وسيلة تساعد للتغلب على معارضة لهم
هي أن يحملهم على الاقتناع بموت هشام .

ثم ان لدينا أخيرا شهادة أبي سليمان العجوز الذي أشهد الله على
أن هشاما لا يزال حيا يرزق رغم اصرار ابنه على مخالفته ، أفهل كان
لهذا الشيخ الورع أن يكذب في اللحظة التي هو ماض فيها لملاقاة ربه . . ؟
اننا نستبعد ذلك .

هذا الى أن جميع الأحوال تحملنا على الظن بصدق ما كان يتحدث
به نسوة الحرير وخصميانه من قصص تتضمن كيف أن هشاما تمكن
من التسلسل من القصر أيام سليمان ثم اختفى بعد ذلك في قرطبة حيث
أخذ يتكسب كعامل ومن هناك مضى الى الشرق أفهل كان لسليمان
يده في هربه بعد أن أقسم له ألا يكون سبب ازعاجه .

وهل ظل متصلا به ؟

وهل كان يدري مكانه ؟

ان أقوال أبي سليمان تدفع المرء على القاء هذه الأسئلة ، غير أننا
لا نستطيع الاجابة عليها اجابة قاطعة ، وعلى أية حال فليس من المستبعد أن
يكون هشام قد سئم استغلال اسمه في الدعوة الى الحرب على السنة
جماعة من ذوى الأطماع لم يدعوا له ظلا من السلطة فذهب للانزواء في
ركن مظلم من آسيا حيث أمضى بقية أيامه مطمئن البال مجهولا من الناس ،
ونعم بحياة خالية من الأوجاع والأوصاب والمخاوف .

ومهما يكن الأمر فقد أخذ علي بن حمود مقاليد الأمور في يده ،
وظن الناس أنهم قادمون على عهد أحسن من سابقه ، وعلى الرغم من أن
مؤسس الأسرة الحمودية كان نصف بربري فقد مال الى الأندلسيين ،
وأصغى في طرب الى قصائد شعرائهم التي لم يكن يفهمها فهما تاما ،

كما أنه لم يجعل بينه وبينهم حجابا فكان يجلس للاستماع لكل ما يريدون. قوله ، وقمع أعمال السلب التي كان البربر يقومون بها ، وأسرف في معاقبتهم على أتفه جرم يأتونه بسلب ما ليس لهم ، من ذلك مثلا ما حدث ذات يوم من أنه صادف أحدهم راكبا وأمامه سلة مملوءة عنبا فاستوقفه وسأله من أين له بهذا العنب فتردد الرجل لحظة وقال فى اضطراب : « أخذته كما يفعل الناس » فدفع رأسه ثمن ما اختلس .

كذلك اتخذ على بن حمود خطة نبيلة هي أنه رد على القرطبيين كل ما سلبه منهم البربر أثناء الفتن ، غير أنه لسوء طالع سكان العاصمة انقلب عليهم فجأة نتيجة لطمع خيران .

لقد أخلص له خيران فى بادئ الأمر فتعقب دعاة الأمويين فى ولايته بالحبس والتنكيل (١٣) ، ولو كان قد استمر على معاونته لعلى بن حمود لعاد الهدوء يرفرف على البلد ، لكنه أراد أن يمثل الدور الذى مثله المنصور من قبل ، فلما أدرك أن عليا ليس بالرجل الذى يرضى أن يكون دمية فى يده كهشام الثانى فقد دبر مشروعا سعى من ورائه الى إعادة الأسرة القديمة كى يحكم باسمها ، وأخذ يبحث عن مدع يستعمله فى هذا الغرض ، فلما كان حوالى شهر مارس (١٤) سنة ١٠١٧ م [= شوال / ذو القعدة سنة ٤٠٧ هـ] (١٥) وجد هذا المدعى فى شخص ابن حفيد عبد الرحمن الثالث واسمه أيضا عبد الرحمن ويسكن بلنسية (١٦) ، فوعده كثير من البربر بمد يد المساعدة اليه وكان من بينهم المنذر حاكم سرقسطة وهو من أسرة بنى هاشم فزحف شطر الجنوب مستصحبا معه حليفه ريموند كونت برشلونة ، ولما شعر على كذلك بخيانة القوم الذين كان يتجمل لهم . ولما تبين أيضا رغبة أهل العاصمة فى رد الخلافة للأمويين رأى نفسه مضطرا لأن يسلط عليهم ما كان يمنعه عنهم حتى الآن وارتمى فى أحضان البربر الذين كان يضطهدهم من قبل ، فأطلق لهم العنان فاستباحوا قرطبة كمدينة مغلوبة على أمرها وسار هو بنفسه على هذا المنوال ودفعته حاجته للمال الى فرض الضرائب الفادحة عليهم وقبض على جماعة كثيرين من أعيانهم ، من بينهم (أبو الحزم) بن جهور أحد أعضاء مجلس المشورة البارزين ولم يطلقهم الا بعد أن فدوا أنفسهم بمبالغ طائلة ولم يكتف بما أنزله بهم من المظالم بل أخذ فى امتهانهم ، من ذلك أنه فى اللحظة التى أطلق فيها سراحهم وجاءهم خدمهم بدوابهم أمر من أخذ الدواب وتركهم ينزلون الى دورهم راجلين (١٧) .

كذلك لم يحترم على بن حمود أوقاف المساجد التى أوقفها الأتقياء عليها ، واشترى - لتحقيق ذلك بالثمن البخس - ذمة فقيه اسمه عبد الجبار ،

وبهذا أرغم الأوصياء على تسليمه الأوقاف فعم قرطبه الذعر ، وزحرت المدينة برجال الشرطة والجواسيس والوشاة ، وانعدم العدل ، ذلك أن القضاة كانوا أميل الى جانب الأندلسيين حين كان يعطف عليهم ، أما الآن فان تعلقهم بوظائفهم أدى بهم الى عدم الاصغاء الى شكاوى العامة من البربر مهما بلغت هذه الشكايات من الصحة ، وباع آخرون أنفسهم للخليفة حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرين لهم « صار شطر الناس اشراطا على سائرهم » فأقفرت الشوارع من سالكيها ، ولم يكن يرى في الغالب سوى تعشاء حامت حولهم الشبهات يقادون الى السجون ، وأما من نجوا من القبض عليهم « فقد اختفوا في الأقبية ، فان رغبوا في شراء ما يحتاجون اليه انتظروا دخول الليل وتسربلوا به » . .

وأقسم على في لحظة من لحظات غضبه على الأندلسيين أن يخرب العاصمة بعد أن يتصيد أهلها ويبيدهم غير أن الموت أجله من يمينه ، ففي ١٠١٧ (= ٤٠٧/٤٠٨ هـ) زحف على وادي آش لتأديب العصاة ، غير أن الأمطار أرغمته على الارتداد على عقبيه ، وفي شهر ابريل ١٠١٨ م (ذي القعدة ٤٠٨ هـ) علم أن الحلفاء قد بلغوا جيان فأعد العدة لاستعراض جيشه يوم ١٧ منه (١٨) ليزحف بعد ذلك ، وفي اليوم المحدد طال انتظار الجند دون أن يطلع عليهم فلما مضى الضباط الى القصر للاستفسار عن علة غيابه وجدوه مقتولا في الحمام .

لقد اقترف هذه الجريمة ثلاثة من صقالبة القصر كانوا من قبل في خدمة الأمويين ، ولم يكن واحد من هؤلاء الثلاثة يضمم الكراهية الشخصية للسلطان بل كانوا موضع عطفه وثقته ، كما أنهم لم يقدموا على جرمهم تحت اغراء خيران أو القرطبيين ، ولما قبض عليهم فيما بعد وأدينوا أصروا على أنهم قتلوه من تلقاء أنفسهم لم يدفعهم أحد الى ذلك ، وتبلى للعيان أنهم فتكوا به ليخلصوا البلد من طاغية لم يعد أحد يطيق استبداده .

ومهما كانت الحقيقة فقد استبشر أهل العاصمة لمقتل على وان لم يكن معناه القضاء على الحموديين ، فقد ترك من بعده ولدين أكبرهما يحيى حاكم سبته والقاسم (١٩) متولى أمر أشبيلية ، وحدث أن مالت جماعة لاستخلاف يحيى مكانه ، ورأى آخرون أن الخير في مبايعة القاسم لقربه منهم ، وانتصر الآخرون ، فما انقضت ستة أيام على موت على حتى دخل القاسم العاصمة وبايعه الناس .

أما خيران (الصقلبي) ومنذر (التجيبي) فقد دعيا جميع الزعماء

الذين يمكنهما الاعتماد عليهم الى اجتماع عقد يوم ٣٠ ابريل (= الأربعاء ١١ ذو الحجة سنة ٤٠٨ هـ) ، وقر المجتمعون - وهم كثيرون وأغلبهم من الفقهاء - أن تكون الخلافة انتخائية وأقروا اختيار عبد الرحمن الرابع ولقب المرتضى ، فلما تم ذلك ساروا الى غرناطة فلما بلغوها كتب المرتضى الى زاوى كتابا رقيقا يطلب منه الاعتراف بخلافته ، فلما قرىء الكتاب على زاوى رده بعد أن أمر كاتبه أن يكتب على ظهره (٢٠) « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » ، فلما وصل الكتاب الى المرتضى وجه الى زاوى رسالة تفيض بالوعيد جاء فيها « أنا خارج لكم فى وجوه من الافرنج والأندلسيين ، فماذا أنت قائل ؟ » ثم ختمها بهذا البيت :

ان كنت منا فأبشر بخير أو لا فأيقن بكل شر

فرد عليه زاوى مقتبسا هذه السورة من القرآن الكريم (٢١) « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ، فاستشاط المرتضى غضبا من هذا الرد وصمم على محاربته .

غير أن خيران والمنذر عرفا أن المرتضى لم يكن بالشخص الذى يريدانه ، ذلك أنهما فى الواقع لم يكن يعنيهما فى قليل أو كثير حق الأسرة الأموية ، وانهما اذا كانا يحاربان من أجل أموى فانما يفعلان ذلك لقاء أن يترك لهما تدبير الأمور ، وأنف المرتضى تمثيل هذا الدور ولم يكن ليرضى قط أن يكون مسلوب السلطان ، بل لقد فرض رغائبه على قائديه بدلا من الرضوخ لهما ، ومن ثم أضمر الغدر به فعاهدا زاوى على التخلي عن المرتضى حالما تبدأ المعركة الا أنهما لم يفعلا ما اتفقا عليه واستمرت الواقعة عدة أيام ، وأخيرا طلب زاوى من خيران الوفاء بعهده ، فأجابه خيران : « انما نوقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو أنا كنا معك فأثبت جمعك لنا ونحن ننهزم عنه ونخذله فى غد » .

فلما تنفس صباح اليوم التالى استدبر خيران والمنذر ظهرهما للعدو فى ثلة غير ضئيلة من رجالهما فأسخط ذلك الكثيرين لاسيما سليمان بن هود قائد الكتائب النصرانية فى جيش المنذر فلم ينهج نهج الجبناء بل مضى يرتب جنوده للمعركة فمر المنذر بجواره وصاح به : « النجاة يا ابن الفاعلة ، فلست أقف عليك » ، فأجابه سليمان (بن هود) :

« جئت بها والله صلياء وفضحت أهل الأندلس » ، ثم لم يلبث أن تبع رئيسه حين أيقن باستحالة المقاومة .

لما هجر المرتضى أكثر جنده أخذ يقاتل في شجاعة اليأس المستميت ، وما لبث وقع في أيدي أعدائه ، غير أنه تمكن من الإفلات منهم والهروب إلى وادي آش خارج حدود غرناطة ، لكنه قتل على يد جماعة من جواسيس خيران كانوا يترصدونه .

وكفر خيران عن تلك الخيانة الوضيعة المستنكرة بفشل شيعته إذ لم يعد الصقالبة في حال تمكنهم من ضم صفوفهم كجيش ، وأذعن سادة الأندلس لأعدائهم البربر ، ومع ذلك فقد نعمت قرطبة بالرفاهية التي يمكن الحصول عليها في ظل حكومة أجنبية ، وأوشك عهد الإرهاب أن يولي وحل محله عهد كان أقل اضطراباً وأسكن في الفتنة بفضل الحكومة القائمة ، إذ كان القاسم أميل للسلم والهدوء ولم يشأ أن يزيد من آلام القرطبيين باضطهاد جديد ، وأراد تناسي الأضغان القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وولى زهيراً الصقلبي - أمير مرسية - أقطاعات جيان وقلعة رباح وبياضة، وشك الناس في سنيته وقالوا إنه شديد التعلق بالمذهب الشيعي . ومهما كانت صفة مبادئه فإنه لم يحاول فرضها على أحد أو التكلم عنها ، ولم يغير شيئاً من دولة الإسلام في الأندلس ، ويرجع الفضل إلى اعتداله هذا في استمرار بقاء الأسرة الحمودية في الحكم رغم قلة عطف أهل العاصمة عليها . . . غير أنه كان من المحتمل أن يؤدي مرور الأيام إلى أن يسحب النسيان ذيوله على ما لحق ساداتهم القدماء من النكبات لو لم توجد ظروف لم تكن لهم يد في دفعها عنهم أحيت الآمال الهاجمة .

لم تكن للقاسم ثقة في البربر فبحث عن أنصاره في غير صفوفهم ، وكان في خدمة البربر جمع كثيف من السودان فاشتراهم القاسم منهم واستقدم آخرين من إفريقية ، وألف جنده من الفريقين واختص قاداتهم بأرفع المناصب (٢٢) مما أسخط البربر عليه فقام يحيى ابن أخيه واستغل لصالحه تذرهم منه وكتب لهم كتاباً يقول لهم فيه :

« ان عني أخذ ميراثي من أبي ، ثم أنه قدم في ولايتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد السودان ، وأنا أطلب ميراثي وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد السودان كما هم عند الناس » فوعده البربر بالوقوف إلى جانبه كما هو المنتظر منهم في مثل هذه الحال ، وإذا ذاك غادر يحيى العدة مع جنده وبلغ مالقة وكانت تحت حكم أخيه إدريس الذي كان يؤيده في خطته ، وهنا تسلم يحيى رسالة من خيران الصقلبي الذي كان مستعداً على

الدوام لتأييد كل معتصب للعرش ثم لا يلبث أن يقلب له ظهر المجن عقب انتصاره ، وأشار خيران في هذه الرسالة الى ما أداه لأبيه من قبل وراح يعرض عليه خدماته ، فأشار عليه ادريس برفض هذه اليد قائلا له : « ان خيران رجل خداع » ، فأجابه يحيى : « نحن منخبذون فيما لا يضرنا » ثم كتب الى والى الميرية يخبره بأنه قبل عرضه ، وشرع يتأهب للزحف على قرطبة ، ورأى عمه أن الخير في الفرار ، وفي ليل ١٢/١١ أغسطس ١٠٢١ م (= ٢٨ ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ) (٢٣) فر الى اشبيلية غير مستصحب معه سوى خمسة فرسان ، وبعد ذلك بشهر واحد دخل ابن أخيه العاصمة ولم تطل مدة حكمه اذ لم يتأخر السودان عن اللحاق بالقاسم ، وحذى حذوهم كثير من القادة الأندلسيين ، فتلفت يحيى أخيرا حوله فوجد أنه قد انصرف عنه كثير من البربر الذين أنفوا من غطرسته فأصبح مركزه اذ ذاك بالغ الخطورة حتى لقد كان يخاف أن يقبض عليه بين آونة وأخرى وهو في قصره ، واذا أراد الاطمئنان على نفسه فقد فر عن قرطبة متسترا بالليل ومضى الى مالقة فعاد القاسم بعدئذ ، وفي يوم ١٢ فبراير ١٠٢٣ م (= ١٨ ذي القعدة ٤١٣ هـ) صرفت اليه الخلافة مرة أخرى ، غير أن سلطانه كان مضطربا وقد أخذ في التضاؤل يوما بعد يوم ، ففي افريقية قام ادريس حاكم سبته وانتزع منه مدينة طنجة التي كان القاسم قد عنى بتحسينها وبذل في ذلك جهدا كبيرا ، كما كان يعد العدة للرجوع اليها اذا فشل في التمكن من الحكم فيما وراء العدو ، كذلك استولى يحيى في اسبانيا على الجزيرة الخضراء وكانت بها زوجة عمه وأمواله ، ولم يستطع الخليفة الاعتماد في العاصمة ذاتها على غير السودان .

أما القرطبيون الذين لم يكتروا للصراع الناشب بين العم وابن أخيه فقد أغرتهم هذه الظروف على التحرك من جديد لأن فكرة التخلص من البربر كانت مسيطرة على كل النفوس ، وشاع الخبر بأن أحد الأمويين موشك على الظهور لاسترداد العرش فتسرب الخوف الى نفس القاسم من تلك الشائعة ، ولما كان اسم هذا الأموي مجهولا فقد أمر بالقبض على كل من يعثر عليه من الأمويين الذين تفرقوا اذ ذاك في البلاد ودخلوا في أغمار الناس .

بيد أن التدابير التي اتخذها القاسم لم تحل دون اندلاع الثورة اذ أن مظالم البربر أرهقت أهل قرطبة فامتشقوا الحسام يوم ٣١ يوليو ١٠٢٣ (= الأربعاء) (٢٤) = جمادى الأولى سنة ٤١٤ هـ) ، وجرت معركة حامية الوطيس أمضى الفريقان بعدها معاهدة - أو بالأحرى هدنة - فيما بينهما واتفقا على أن يحترمها الجانبان ، لكنها لم تكن طويلة المدى رغم محاولات القاسم اطالة أمدها باصطناعه اللطف مع الشعب ، ففي يوم

صلاة الجمعة نودى « الحرب • الحرب » فرددت جميع النواحي الدعوة وأخرج القرطبيون القاسم ورجاله البربر عن المدينة لا عن الضواحي ، فمضى القاسم الى المغرب وضيق الخناق على العصاة أكثر من خمسين يوما كانت الحرب خلالها حربا عنيفة قتل الطعام عند القوم حتى سألوه أن يأذن لهم بمغادرة المدينة بنسائهم وأطفالهم لكنه رفض طلبهم ، وحينذاك قام أهل قرطبة بعمل أملاء اليأس عليهم اذ خلعوا أحد الأبواب وانتالت جموعهم من المدينة يوم الخميس ٣١ أكتوبر (= ١٣ شعبان ٤١٤ هـ) . وحملوا بشدة على عدوهم الذى ركن الى الفرار وقد اختلت صفوفه وارتد القواد الى مقاطعاتهم ، ولجأ القاسم نفسه الى اشبيلية التى أغلقت أبوابها فى وجهه وخلعت طاعتها له ، وقد شجعها على ذلك موقف قرطبة فاضطر للخروج الى « شريش » ، لكن يحيى مضى اليه وحاصره بها وأرغمه على التسليم وبذلك انتهى دور القاسم السياسى واقتاده يحيى الى مالقة مكبلا بالحديد وأقسم ليقتلنه •

غير أن الوسواس أقضت مضجعه فتراجع عن يمينه اذ رأى فى نومه أباه يقول له : « أخى أكبر منى ، وكان محسنا الى فى صغرى ومسالما لي عند أمارتى... فإلله الله فيه » • غير أنه أراد قتله وهو ثمل الا أنه كان كلما هم بالفتك به وكل الأمر الى مشورة نسمائه الذين أفضوا اليه ذات مرة ألا خطر عليه من عمه القاسم طالما هو فى الحبس ، وبذلك ظل القاسم سجيناً ثلاثة عشر عاما فى قلعة من قلاع مالقة ، بيد أنه فى عام ١٠٣٦ م (= ٤٢٧ هـ) علم يحيى أنه يحاول دفع الحامية الى العصيان فقال : « أو بقى فى رأسه حدث بعد هذا العمر » ، ثم أمر بخنقه (٢٥) •

حين استرد أهل قرطبة استقلالهم فكروا فى تنظيم الأمور بهما وترتيبها بارجاع الأمويين الى العرش دون اللجوء الى الثورة ، وفى شهر نوفمبر ١٠٢٣ م (شعبان رمضان ٤١٤ هـ) عقدت عدة اجتماعات وتبذلت الآراء فاقترح الوزراء على أبناء جلدتهم ثلاثة أشخاص ليختاروا منهم من يحبون ، أولئك هم : سليمان بن عبد الرحمن الرابع المرتضى ، وعبد الرحمن أخو المهدي بالله ومحمد بن العراقى وكان الكل على ثقة من اختيار سليمان فوضعوا اسمه فى أعلى القائمة وكتب أحمد بن برد الكاتب عهد التولية باسمه •

لكن نفوذ هؤلاء كان أقل مما هو متوقع ففشلوا فشلا ذريعا حين فاتهم أن يحسبوا حساب منافسه عبد الرحمن (أخى المهدي بالله) وكان شابا فى الثانية والعشرين من عمره حين أخرجه الحموديون عن العاصمة لكنه تسلل اليها خفية قبل ذلك الاجتماع بزمان قصير ، وانتهاز فرصة

هياج القرطبيين على البربر لتكوين جماعة تؤيده في طلب الخلافة ففشل.
في هذا المشروع . أما الوزراء الذين دبروا الثورة ولم يكونوا مبالين اليه
فقد زجوا برجاله في السجن ، وأطبق عليهم فيه حتى تمت البيعة بالانتخاب.
فأطلقوا .

كذلك حاول هؤلاء الوزراء القبض على عبد الرحمن نفسه غير أنهم
حينما أخذوا يعدون أسماء المرشحين للخلافة رأوا ضرورة ذكر اسمه مخافة
اغضب الكثرين من مواطنيهم ان هم تناسوه ، لكن لم يكن يخطر لهم ببال
أن يكون هذا الأمير منافسا خطيرا لسليمان ، لذلك كتبوا اسمه قريبا
بعض الشيء من السطر الذي كتبوا فيه اسم المنافس الثالث محمد
بن العرقس الذي لم تكن له أدنى مكانة في نفوس العامة .

حين وثق الوزراء من عملهم دعوا الخاصة والجند والعامة للاجتماع
في المسجد الجامع يوم أول ديسمبر ١٠٢٣ م [١٥ رمضان سنة ٤١٤ هـ]
لاختيار من يريدون ، وفي ذلك اليوم كان سليمان بن المرتضى أول من
وافى المسجد مستصحبا معه الوزير عبد الله بن مغامس وهو في أبهى
جلله ، والسروور ياد عليه لثقتة من أن العامة سوف تختاره ، فاستقبله
أصحابه أحسن استقبال والتمسوا منه أن يجلس على مرتبة أكثر ارتفاعا
خصصوها له ، ثم ما لبث عبد الرحمن أن دخل المسجد من باب آخر في
خلق كبير من الجند والعامة ، فما كادت جماعته تعبر عتبة الباب حتى
نادوا به بشعار الخلافة ، فدوت أرجاء المكان بالهتاف العالي .

أما الوزراء الذين لم يكونوا قط يتوقعون هذا الأمر فقد ريعوا
والجموا ، وصار من المستحيل عليهم الانتظار وسط هذا الحشد فبايعوا
عبد الرحمن بالخلافة ، واقتدى بهم سليمان الذي كان أكثرهم ذهولا
واضطرابا ، فأخذ القوم الى عبد الرحمن الذي قبل يده وجلس الى جواره .

أما المنافس الثالث محمد بن العراقي فسرعان ما أقسم له يمين
الولاء ، واذا ذاك قام الكاتب فمحا اسم سليمان من عهد البيعة ، وأثبت
مكانه اسم عبد الرحمن الخامس الذي تسمى بالمستظهر .

الفصل السابع عشر

حب المستظهر لحبيبة بنت عمه سليمان ورفض أمها زواجها منه
شعره • حياؤها وأدبها • ابن حزم •

الفصل السابع عشر

واحة المؤرخ

ربما كان مؤرخ العصر الذى مزقته الفتن الأهلية وعصفت به الأعاصير
«لهوجاء أحوج ما يكون للابتعاد قليلا عن مناظر الصراع التى كانت بين
الأحزاب والفتن الاجتماعية والدماء المهرقة ، وربما كان هذا المؤرخ أشده
الناس احساسا بالحاجة الى تهدئة خاطر والمضى به شطر مثل أعلى من الهدوء
والطهارة والأحلام ، وها نحن ذا نتوقف لحظة يتجه فيها تفكيرنا نحو
قصائد أملاها الحب الطاهر السليم على الشاب عبد الرحمن المستظهر
ووزيره ابن حزم ، فقد عبقث أشعارهما بعطر الشباب وامتازت بالبساطة
والرقة ، فهى تدخل على النفس بلا استئذان .

لذلك يطيب لنا أن ننصت الى هذه الأنغام العذبة الصافية وسط
تلك الفوضى الشاملة ، ونستمع الى ترجيع البلبل وسط العاصفة الهادرة .

كان عبد الرحمن لا يزال فى أُميرة صباه حين شغف حبا بحبيبة
«بنة عمه سليمان الخليفة لكنه لم يوفق فى هواه ، فقد عارضت أديها
زواجه بها ، وأفهمته الفارق بين مكانتيهما ، فنظم اذاك تلك الأبيات التى
سرت فيها روح الأنفة المجروحة جنبا الى جنب مع الوله العميق (١) :

وجالبة عذر التصرف رغبتى	وتأبى المعالى أن تجيز لها عذرا
يكلفها الأهلون رداء جهالة	وهل حسن بالنسب أن نمنع البدر؟
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت	جلالة قدرى أن أكون لها صهرا ؟
جعلت لها شرطا على تعبدى	وسقت اليها فى الهوى مهجتي مهرا
نعلقتها من عبد شمس غريرة	مخدرة من صيد آبائها غسرا
حمّامة عش العيشمين رفرفت	فطرت البها من سرانهمو صقرا
لقد طال صوم الحب عنك فما الذى	يترك منه أن تكونى له فطرا

وانى لأستشفى بمرى بداركم
والصق أحشائي ببرد ترابها
فان تصرفيني يا ابنة العم تصرفي
وانى لأرجو أن أطوق مفخري
وانى لطعان اذا الخيل أقبلت
وانى لأولى الناس من قومها بها
وعندى ما يصيب الحليمة ثيبا
جمال ، وآداب ، وخلق موطأ
هدوء ، وأستسقى لساكنها القطرا
لأطفئ من نار الأسى بكمو جمرا
- وعيشك - كفا مد رغبته سترا
بملكى لها وهى التى عظمت فخرا
جرائدها ، حتى ترى جونها شقرا
وأنبههم ذكرا ، وأرفعهم قدرا
وينسى الفتاة الخود عذرتها البكرا
ولفظ اذا ماشئت أسمعك السحرا

ونحن نجهل كل شيء عن مشاعر حبيبته ، ولم يسعفنا الكتاب العرب
بشيء عن هذه الناحية ، ولم يتركوا لنا سوى صورة غامضة عن هذه
المسألة الرقيقة التى شاء الخيال أن يلون جوانبها ، ومع ذلك فيظهر أنها
لم تكن تنكر حب الأمير عبد الرحمن . فقد حدث أن صادفته ذات يوم
فخفضت عينيها أمام نظراته الملتهية ، واحمرت وجنتاها خجلا ، وأنسابها
اضطرابها أن ترد عليه سلامه ، فأساء عبد الرحمن تفسير هذا الموقف
وعزاه الى جفائها اياه وانصرافها عنه ، ولم يكن ما جرى الا حياء وصفة
وحينذاك أنشد :

سلام على من لم يجد بكلامه
سلام على الرامى الذى كلما رمى
بنفسى حبيب لم يجد لمحبه
ألم تعلمى يا عذبة الاسم اننى
وانى وفى حافظ لأزمتى
ولم يرني أهلا لرد سلامه
أصاب فؤادى عامدا بسهامه
بطيف خيال زائر فى منامه
فتى فيك مخلوع عذار لجامه ؟
اذا لم يقم غيرى بحفظ زمامه

وليس ثم دليل على أن عبد الرحمن وفق فى الاتصال بحبيبته ،
والواقع أن سوء التوفيق لازمه فى حكمه ، وان كانت هناك فاتنة غيرها
عطفت عليه وان لم تبر بوعدا له ، مما تشهد به الأبيات التى وجهها
اليها وفيها يقول :

طال عمر الليل عندي
يا غزالا تقض السود
أنسيت العهد اذ بتنا
منذ تولعت بصدي
ولم يوف بعهدي
على مفرش ورد ؟

واجتمعنا فى وشاح . وانتظمتنا نظم عقده
وتعاقبنا كقصنين . وقداننا كقده
ونجوم الليل تحكى ذهبنا فى لازورد (٢)

وكان لعبد الرحمن صديق يشبهه كل الشبه استحجبه لنفسه ،
ذلك هو على بن حزم الذى سكن أجداده كورة لبلة وأقاموا على نصرانيتهم
حتى جاء جد أبيه حزم فاعتنق الاسلام ، ودفعه خجله من أصله لمحاولة
محو كل أثر له ، فأنكر أسلافه ، وكذلك فعل أبوه أحمد الذى تولى
الوزارة أيام العامين اذ دعى أنه مولى فارسى أطلقه يزيد أخو معاوية
بن أبى سفيان (٣) كما كان شديد الاحتقار لدين أجداده ، يستدل على
ذلك مما جاء فى أحد فصوله عن الأديان (٤) من أن النصارى يقولون
بثلاثة ويقولون بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، أحد هم الآب ، والثانى
الابن والثالث الروح القدس ، وأن الآب هو الابن وأنه ليس بالابن وأن
الناسوت هو الله وليس بالله ، وأن المسيح هو الله . ومن فرقهم
اليقوبية وهم مئات الألوف عدا ، ويقولون ان الله الخالق مات وصلب
وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ثم قام من بين الموتى ورجع .

لم تكن هذه التهكمات تهكمات رجل شاك بل مسلم شديد التمسك
بدينه ، وكان ابن حزم من جماعة الظاهرية التى تتقيد كل التقيد بالنصوص
وتعنى بتدخل العقل البشرى فى مشكلات القانون الفقهى كمسألة وجود
الشعر (٥) .

أما فى السياسة فقد كان ابن حزم من أنصار الأسرة الشرعية التى
أصبح مولى لها بالنظر الى أصله المزعوم ، ولم يكن للأمويين مولى أشد
منه إخلاصا لهم وتعلقا بهم وغيره عليهم ، ولما اعتلى على بن حمود العرش
واستسلم له خيران كبير الصقالبة أدرك ابن حزم أن مستقبله قد ضاع
لغير رجعة ، لكنه كان من الفئة القليلة التى لم يطر قلبها شعاعا ، فدأب
على تدبير المؤامرات والدسائس رغم ما يحوطه من الأعداء والجواسيس
لأنه كان يعتقد - شأن كل متحمس أن التريث هو عين الجبن ، ولما وقف
خيران على مكائده ألقاه فى السجن بضعة أشهر ليرجع عن حماسه التى
لم يعد ما يبررها ثم عاد فنفاه ، فاستعاذ ابن حزم بحاكم حصن القصر
القريب من اشبيلية ، وبقي هناك حتى ورد الخير باختيار عبد الرحمن
الرابع خليفة فى بلنسية ، وحينذاك أبحر ليكون فى خدمته واستبسل
فى حربه فى الواقعة التى غدر فيها أصحاب المرتضى به ، واذا ذاك وقع فى
يد البربر الغالبين وظل فى أسرهم ردحا طويلا من الزمن (٦) .

وأخيرا جاء الوقت الذى عرف الناس فيه قدر ابن حزم حتى عد أعظم علماء عصره وأخصب الكتاب الذين أخرجتهم اسبانيا منذ زمن بعيد .
أما فى اللحظة التى نتكلم عنها فلم يكن الناس يعدونه الا شاعرا أو أحد لهاميم الشعراء الذين أنجبتهم بلاد الأندلس العربية ، ومع ذلك فقد كان لا يزال فى ريق الشباب ونضارة الحياة ، اذ لم يكن يكبر الشاب عبد الرحمن الا بثمانية أعوام ، وكانت لابن حزم هو الآخر قصة غرامه أيضا وهى قصة ساذجة رواها هو نفسه فى صدق وصراحة ولفظ مستساغ .
لا تستطيع حياله الا أن ننقلها بنصها حيث يقول : (V) .

« ألفت فى أيام صباى جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما ، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها ، وطهارتها وخفرتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، قليلة الكلام ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، وجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها ، تزدان فى المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها غير راغبة فى اللهو ، على أنها كانت تحسن العود احسانا جيدا .

« أحببتها حبا مفرطا ، وسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة . وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع فى الحديث الظاهر الى كل سامع فما وصلت من ذلك الى شيء البتة ، فلعهدى بمصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخى من النساء ونساء فتياتنا ، ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرا من النهار ، ثم تنقلن الى قصبة كانت فى دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن ، فانى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه أنسا بقربها ، متعرضا للدنو منها ، فما هو الا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره فى لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد الى الباب الذى صارت اليه ، فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره ، وكذنت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لانهن كن عددا كثيرا ، واذ كلهن يتنقلن من باب الى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها . وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل اليهن أنفذ من قبانة مدلج الآثار ، ثم نزلن الى البستان ، فرغب عجائزنا وكرائمننا الى سيدتها فى سماع غنائها فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وان الشيء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس الأحنف حيث يقول :

انى طربت الى شمس اذا غربت . كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة فى خلق جارية كأن أعطافها طى الطوامير
ليست من الانس الا فى مناسبة ولا من الجن الا فى التصاوير
فالوجه جوهرة ، والجسم عبعة والريح عنبرة ، والكل من نور
كأنها حين تخطو فى مجاسدها . تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكأن المضرب انما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم
ولا أنساه الى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت اليه من التمكن
من رؤيتها وسماع ملامها ، وفى ذلك أقول :

لا تلمها على النفار مع الوصل . ل ، فما ذاكمولها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور ؟

وقلت أيضا :

منعت جمال وجهك مقلتيها . ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما . فليست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعرا . هنيا ذا ، لعباس هنيا
فلسو يلقاك عباس لأضحى . لفوز قاليا وبكم شجيا

« ثم انتقل الوزير أبى من دورنا المحدثه بالجانب الشرقى من قرطبة
فى ربض الزاهرة الى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط
مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة ،
وانتقلت أنا بانتقاله ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمر أوجب ذلك . »

« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء
أرباب الدولة ، وامتحننا بالاعتقال والترقيب والاعرام الفادح والاستتار ،
وأرذمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا ، الى أن توفى أبى
الوزير رحمه الله ونحن فى هذه الحال بعد العصر يوم السبت ليلتين
بقيتا من ذى القعدة (٨) عام اثنين وأربعمائة ، واتصلت بنا تلك الحال
من الفتنة بعده الى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها وقد ارتفعت
الناعية فى المآتم وسط النساء فى جملة البواكى والنوادر ، فلقد أثارت
وجدنا دفينا ، وحركت ساكنا ، على أنى كنت فى ذلك اليوم مرزاً مصاباً من
وجوه وما أنت نسيت ، ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن ،

وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا ، فلباه مجيبا
فقلت :

يبكى لميت مات وهو مكرم وللحي أولى بالدموع الدوارف
فيا عجباً من آسف لأمري ثوى وما هو للمقتول ظلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند
البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم (٩) سنة أربع وأربعمئة ، وغابت
عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام أو أكثر ، ثم دخلت قرطبة
فى شوال (١٠) سنة تسع وأربعمئة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها
هنالك ، وما كدت أميزها حتى قيل لى هذه « فلانة » ، وقد تغير أكثر
محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاص ذلك الماء الذى
كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرأة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذى كان
البصر يقصد نحوه مبهورا ، ويرتاد فيه متخيرا . وينصرف
عنه متحيرا ، فلم يبق الا البعض المنبىء عن الكل ، والخبر
المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتمامها لنفسها ، وعدم
الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبدلها فى
الخروج فيما لا بد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وانما
النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتمل بها استهدمت ،
لذلك قال من قال : (ان حسن الرجال أصدق صدقا ، وأثبت أصلا ،
وأعتق جودة لصبره على ما لو لقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير
مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن ، وانى لو ثلت
منها أقل وصل ، وأنست لى بعض الانس لخلوطت طربا ، أو لمت فرحا ،
ولكن هذا النفار الذى صبرنى وسلانى ، وهذا الوجه من أسباب السلو :
صاحبه فى كلا الحالين معذور اذ لم يقع تثبت بوجود الوفاء ، ولا عهد
يقتضى المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه
ونسيانه :

هواك فلسيت أقربه غرور . وأنت لكل ما يأتى سرير ، (١١)

لا مشاحة فى أنه من اليسير على المرء أن يتبين فى هذه القصة
السالفة نفحة الاحساس الرقيق النادر بين الجماعات التى تؤثر فى العادة
وصف المحاسن التى تجذب الشخص والعيون التى تسببه ، والبسمة
التي تغريه .

ولا شك أن الحب الذى يتصوره ابن حزم انما تمتزج به الفتنة
المادية ، وهو حب يعبق بالهوى العف والأناقة المستحبة والتقدير
والحماسة . ولعل ما يدفع المرء الى الاعجاب به هو ذلك الجمال الهادى ،

والتواضع ، لكن يجب ألا ننسى أيضا أن هذا الشاعر الشديد العقاف
الذى أجرؤ على القول بأنه كان نصرانيا بين شعراء المسلمين لم يكن عربيا
خالصا فهو حفيد أسباني مسيحي ، لذلك لم تعتد تفكير الجنس الذى خرج
منه ولا شعوره ، وعبثا ما كان يحاوله أولئك الاسبان المستعربون من
محاولة انكار أصولهم ، وسخريتهم بأسلافهم النصارى ، فقد كان فى
قلب أولئك الاسبان على الدوام شئ خالص من الرقة والروحانية .

الفصل الثامن عشر

تقديم عبد الرحمن صغار الخاصة • مكائد ابن عمران -
تحريضه العامة وهجومهم على قصر عبد الرحمن • ثورتهم على
البربر ، استخلاف محمد المستكفي بن عبد الرحمن • سوء
معاملته للرجال • الثورة في قرطبة • هروب المستكفي
متخفيا وقتله بالسم • عرض الخلافة على يحيى بن حمود
وتوقفه في قبولها • القرطبيون يختارون هشاما ويبايعونه •
ضعف شخصيته • استجابة الحكم بن سعيد الحائك • قيامه
بفرض ضرائب جديدة واستعماله القسوة في جمعها •
تقريبه ابن عبد الجبار المعتدى على أوقاف المساجد • تدمير
العامة والأشراف • مصرع الحكم بن سعيد وخلع هشام •

الفصل الثامن عشر

اضطراب الأمور الداخلية

لم تكذ تنقضى سبعة أسابيع منذ وقع اختيار القرطبيين على عبد الرحمن [بن هشام بن عبد الجبار] ومنذ أن استحجب هذا ابن حزم حتى مات عبد الرحمن فودع الثاني السياسة واللذائذ الدنيوية الى غير رجعة ، وراح ينشد السلوى ونسيان الماضي فى العكوف على القراءة والعزلة والانهماك فى الصلاة ، ولعل تجهم الأيام وما صادفه البعض من النفي قد أدى منذ زمن بهم الى معرفة الرجال معرفة تامة وفهمهم والحكم على الحوادث ، غير أن الخطر كان محدقا بالقوم ، ذلك أن عبد الرحمن لم يقدم الا صغار الخاصة ولم يتخذ من المشيرين سوى ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب بن حزم وأبى عامر بن شهيد ، ورغم ما كان عليه هؤلاء من الكفاءة والتبريز الا أن حرية أفكارهم جعلتهم يصطدمون بالجامدين ، أما من يكبرونهم فى السن من الخاصة فكانوا أميل الى انتخاب منافسه سليمان الذى استبعدته العامة ، واذا ذاك أخذ هؤلاء الأشراف فى تدبير المكائد جهرا لصالح سليمان حتى لقد وجد عبد الرحمن نفسه أخيرا مضطرا للقبض عليهم ، وأيده العقلاء فى عمله هذا لأنهم أدركوا ألا محيص له عن تلك الخطوة التى أقدم عليها وان تكن قد أغضبت منه جماعة الأشراف ، كما جعل السلطان نفسه هدفا للوم لابقائه منافسيه الاثنين رهن الحبس ، اذ أنه رغم معاملته اللطيفة لهما الا أنه حرم عليهما مغادرة القصر ، أضف الى ذلك أنه لما كانت الثورات والفتن قد عطلت معظم الأعمال العامة فقد نجم عن ذلك أن تخلف جمهور كبير من العمال العاطلين الذين أصبحوا على أتم أهبة للعمل بمعاولهم فى تقويض دعائم ذلك المجتمع القديم ، ومما زاد الطين بلة أن تمكنت هذه الجماعة الهدامة من أن تجد لها رئيسا من الأمويين اسمه محمد وهو الذى كان يؤمل أن يقع عليه الاختيار لحظة أن اجتمع القوم لانتخاب الخليفة ، غير أن الكل تجاهلوه وأنكروه فلم يجر اسمه على لسان أحد منهم ، ولا عجب فى ذلك فقد كان محمد هذا رجلا قدما لم يصب حظا من الفهم أو التعليم وانما همه ملؤ بطنه وارضاء حواسه ، لكنه كان

فى عيني نفسه شيئا غير ذلك ، حتى لقد تسخط حنقا حين علم بانصراف القوم عن اختياره ، وأنهم صرفوا العرش الى شاب حدث ، وحينذاك استغل تأثيره على العمال الذين عدوا غلظته صراحة منه ، واتصل بهم اتصالا وثيقا ، فكان أدنى خواصه حائكا اسمه أحمد بن خالد الذى تمكن محمد بفضل معونته اياه من اغراء الصناع على النهب والتخريب ، وهىأهم جميعا لثورة باثرة .

لم يتوقع القوم فى بادىء الأمر أى خطر من تعصب العامة ولم يظنوا أن ينال رذاذ هذا الغضب الأشراف المحبوسين طالما هناك متنافسون كثيرون ولكل منهم أتباعه ، غير أنه لما مات سليمان اتحد الأشراف والعامة وكان الوسيط بين الطرفين رجل منهم اسمه ابن عمران الذى كان اطلاق سراحه على يد عبد الرحمن الخامس [المستظهر] طيبة منه وغفلة ، هذا على الرغم من معارضة أحد أصدقائه له فى ذلك بقوله له : « ان مشى ابن عمران فى غير سجنك باعا بتر من عمرك عاما » .

والواقع أن ابن عمران كان رجلا شديدا الخطورة حاول استمالة زعماء الحرس الى جانبه ، ولم يجد أدنى عسر فى هذا السبيل ، فكره « الدائرة » . (١) الخليفة ذلك أنه كان قد حدث قبل ذلك بيومين من هذا الحادث أن جاءت الى قرطبة كتيبة من البربر قصد العجل تحت امرة الخليفة الذى قبلها عن طيب خاطر لما أحسه من الخطر المحدق به ولحاجته الى الجند فأثار ذلك غيرة « الدائرة » الذين هاجمهم ابن عمران فتوجهوا الى الشعب قائلين : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم الينا وتمكينهم من نواصينا » .



كان الجمهور المثلث على الثورة فى انتظار الاشارة ، فلم يكن من العسير حمله على الاستجابة الى هذه التحريضات ولم يابث الرجال أن اقتحموا قصر عبد الرحمن على حين غفلة من صاحبه ومن فيه واستنقذوا الأشراف المحبوسين داخله ، وسرعان ما أدرك الحاكم المنكود ميل الجمهور الى الفتك به فسأل وزراءه المشورة - وكانوا هم أشد حرصا على حياتهم - فراحوا يتدبرون المسألة فيما بينهم ، واذا ذاك طمأنهم الحراس على أنفسهم ان هم تخلوا عن عبد الرحمن وانفضوا من حوله ، وحينذاك تغلبت الانانية على معظمهم فتسللوا عن خليفتهم وانصرفوا عنه واحد أثر آخر ، الا أنهم سرعان ما أدركوا الا قيمة لعهود الحراس الذين فتكوا بالكثيرين منهم حين هموا بمغادرة القصر من باب الحمام ، وكان من بين القتلى متقلد (٢) المدينة .

امتطى عبد الرحمن جواده وطمع فى أن يتمكن من مغادرة القصر من نفس الباب فمنعته الدائرة بتسديد أطراف رماحهم اليه وانهاكوا عليه سببا فارتد على عقبينه وترجل عن فرسه ودخل الحمام وتجرد من ملابسه كلها الا من قميصه واستخفى فى موقد الحمام .

فى هذه الأثناء كان العامة والدائرة يتصيدون البربر المنكودين كأنهم الوحوش الساردة ويقتلونهم . أنى تفقوهم سواء آكانوا فى القصر أم فى الحمام أم فى المسجد ، وتقاسم الحراس حريم عبد الرحمن وحملوهن الى بيوتهم .

بذلك انتصر محمد [بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر] ونودى به خليفة فى الحجرة التى كان الخليفة المخلوع مختفيا بها ، ثم اتجه [محمد] نحو « دار الملك » وجلس على السرير وحوله الدائرة والعامة ، غير أن مركزه كان لا يزال مهددا بالخطر طالما كان خصمه على قيد الحياة ، لذلك أمر أن يبحث عنه فى كل ناحية ، حتى اذا عثروا عليه جاؤوه به فقتله بيده (٣) يوم ١٨ يناير ١٠٢٤ م .

لقب محمد بالمستكفى وحاول التقرب الى العامة بتوزيع المال وخلع الألقاب على كل طامع فيها ، غير أن سخط الطبقة الوسطى وجماعة الأشراف على محمد بلغ غايته حينما عهد بالحجابة الى صديقه الحائك ، ولذلك لم يقدر لعهد أن يدوم طويلا ، فقد أساء الولاية كما هو مفروض فيه ، ولما كان يعرف أن هناك جماعة تعمل للكيد له والتآمر عليه فقد زج فى السجن بالكثير من أعضاء أسرته وأمر بخنق أحدهم (٤) مما أدى الى تسعير نيران السخط عليه بقرطبة ، كما ألقى القبض على كبار رجال دولة الخليفة السابق كابن حزم ، فخاف أبو عامر بن شهيد وكثيرون معه أن يلقوا ما لقيه صاحبهم ابن حزم فغادروا العاصمة ويمموا وجوههم شطر مالقة حيث ذهبوا الى أميرها يحيى بن حمود وهونوا عليه القيام بعمل يقضى على الفوضى الضاربة بأجرائها على قرطبة (٥) ، غير أن محاولاتهم فى هذا السبيل لم تبق طي الكتمان فقد ذاع القول فى قرطبة بأن يحيى يتأهب للنهوض لمهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها فى شهر مايو (٦) سنة ١٠٢٥ م ، وفتك الناس بالوزير الحائك ، واستبد الغضب بالشعب فام يكف عن ضربه حتى بردت أوصاله .

ثم مضت العسامة الى قصر محمد المستكفى فأضربت به النيران ، وحينذاك جاء الحرس الخليفى وقالوا له : « قد اضطررنا الى مكافحة عدونا (٧) ونحن خارجون اليه ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا » . فلما

رأى محمد أن زمام الأمور قد أفلت من يده الى غير رجعة لم يجد مناصا من التلطف في الرد عليهم والأتقياد لهم ثم غادر القصر والمدينة ولبس ثياب ذوات الحجال وخرج متنقبا بين امرأتين ، ثم زاح ينشد ملجأ له في قرية صغيرة من قرى (٨) الثغر ، ولم يلبث أن مات مسموما بيد أحد جنسده (٩) .

بقيت قرطبة ستة أشهر بلا حاكم يدبر أمورها ، وقام مجلس الملك بإدارة حكومتها على خير وجه ، الا أنه ما كان لمثل هذا الوضع أن يدوم طويلا ، بل كان لابد من يوم تؤول فيه الحكومة الى خليفة ما ، لكن لم يكن هذا اليوم قد حان موعده بعد .

ومع أن العهد القديم كان قد زال الا أنه كان لابد للعهد الجديد من أن يواجه أدوارا من المحن ، وكانت هناك جماعة من ذوى التفكير الصائب رأت أن الملوكية لا تزال الصورة الوحيدة التي يمكن أن تكون عليها الحكومة لاقرار النظام ، لكنهم كانوا في حيرة لمن يسوقون هذه الملوكية ، وهل تبقى للأمويين ؟ واذن فليحاولوا ما أرادوا .

★ ★ ★

واختار القوم خير أمير من أمراء البيت الأموي جين ساقوا العرش الى عبد الرحمن الخامس الا أنهم أخفقوا في هذه المحاولة .

كان اقرار النظام وارضاء الشعب المضطرب النائر المستعد في كل لحظة للتمرد والسلب والنهب يقتضى اختيار أمير تكون تحته امرته قوات أجنبية مما لا يتوفر للأمويين ، ومن ثم أشار البعض أن يساق العرش الى يحيى بن حمود الذى لم يكن مكروها من الجماعة كل الكراهية ، ويخيل اليها أن الأخذ بهذه الفكرة لا يرجع الى ذوى المقاصد السيئة كما يذهب الى ذلك أحد المؤرخين العرب (١٠) ، بل نادى بها شيعة النظام الذين رأوا ألا سبيل للتفاهم سواها ، فأخذوا حينذاك في مفاوضة يحيى وكان مقيما بمالقة ، ولم يظهر يحيى لهفة في قبول ما عرضه عليه أهل قرطبة بل أبدى عدم الاكتراث ، ذلك أن حذره من قلب القوم الدائم ومعرفته أنه لم يكن أمامهم من أحد يسألونه هذا السؤال سواء دفعاهم للإقامة حيث هو ، واكتفى بأن يرسل الى قرطبة أحد (١١) القواد المغاربة على رأس بعض القوات ، وكان ذلك في نوفمبر (١٢) ١٠٢٥ م .

برهنت الأحداث على صدق ما رآه يحيى اذ سرعان ما تأفف سكان العاصمة من الاحتلال المغربي لهم واستمعوا بأذان واعية الى ما يقوله لهم كبيرا صقالبة الشرق : خيران صاحب المرية ومجاهد أمير دانية، وقال هؤلاء الرسل

ان مولييهما على استعداد له يد المعونة اليهم اذا كانوا يرغبون في التحرر ، ولم تذهب هذه العهود بلدا ، ففي شهر (١٣) مايو سنة ١٠٢٦ م جهز الأميران رجالهما وزحفا على العاصمة في عسكر غفير ، واذ ذاك قام أهل قرطبة بالثورة وخلعوا الحاكم الذي فرضه يحيى عليهم بعد أن قتلوا العدد الكبير من جنده ، حتى اذا فرغوا من ذلك فتعخوا أبوابهم لخيران ومجاهد فدخلاها ، لكنهما ما لبثا أن تنازعا الأمر فيما بينهما حين أخذ يتشاوران في اقامة الحكومة ، وخاف خيران أن يغدر حليفه به فأسرع بالعودة الى المرية (١٤) يوم ١٢ يونيو ١٠٢٦ م ، وبقي مجاهد فترة من الوقت بالعاصمة الا أنه غادرها هو الآخر دون أن يعيد اليها السلطنة التي صمم رجال مجلس المشورة على ارجاعها عقب خروجه من بينهم ، وهكذا كانت أمامهم تجربة محزنة أدركوا منها أنهم كانوا مقدمين على المستحيل .

ذلك أن المنجيء بأمير أموى الى العرش من غير أن تكون تحت امرته قوات أجنبية ووضعه بين طائفتين لا يمكن التوفيق بينهما معناه الحكم عليه مقدما بالهلاك اما عن طريق ثورة شعبية أو مؤامرة يدبرها ضده الوطنيون من أهل البلد . ومعنى ذلك أن ارجاع الأمويين الى العرش - لاقامة حكومة ثابتة الدعائم - كان محاولة فاشلة ، لكنها كانت في نظر رجال الساعة المسئولين الوسيلة الوحيدة التي لا بد لهم منها .

كان أبو الحزم بن جمهور - أبرز أعضاء مجلس الحكم - أشد الناس أخذا بهذه الفكرة وترويجا لها ، ومن ثم شرع في مشاوره ولاية الثغور من أنصار الحزب الأموى والصقالبة ، وان لم يكن ثم ما يربط بينهم أجمعين سوى كراهيتهم الشديدة للبربر .

تشاور القوم وقلبوا الموضوع طويلا فيما بينهم وانتهى الأمر ببعض هؤلاء السادة الى الموافقة على ذلك المشروع لاعتقادهم الجازم بخروج أزمة الأمور من أيديهم ، واقترح بعضهم أن يسوقوا العرش الى هشام أكبر اخوة عبد الرحمن المرتضى وكان ينزل اذ ذاك « ألبونت » التي كان قد فر اليها معتصما بها بعد مصرع أخيه .

ومنذ شهر أبريل (١٥) ١٠٢٧ م أخذ سكان قرطبة في مبايعته ، غير أنه انقضت قرابة ثلاث سنوات قبل أن تذلل من أمامه جميع العقبات ، وفي خلال هذه الفترة كان هشام الثالث الملقب بالمعتد (١٦) الذي دأب على التنقل من بلد الى آخر لمعارضة كثير من الزعماء للفكرة التي أخذ بها أهل قرطبة (١٧) الذين علموا بما هو جار ، وسرعان ما التأم شمل أعضاء « دائرة الملك » للاتفاق على الاستعدادات اللازم اتخاذها لاستقبال الأمير

أروع استقبال ، غير أنه تناهى اليهم الخبر (١٨) يوم ١٨ ديسمبر ١٠٢٩م بأن هشاماً قد دخل المدينة قبل أن يعدوا العدة لاستقباله ، واذ ذاك خف الجنود للقائه وتعاليت صيحات الفرح في جميع أرجاء البلد واحتشبت العامة في جميع الشوارع التي سيسير فيها الأمير وتوقعوا عرضاً ملوكياً رائعاً ، غير أن القوم أخفقوا فيما أملوه فقد أقبل هشام على فرس دون مركب الملوك مخنصر الحلية ، ودخل في زى تتقحه العين وتستنكره ، وعليه كسوة رثة لا تتفق أبداً ومرتبة الخلافة مما لا يحرك النفوس ، ومع ذلك فقد راح الناس يهنئونه ويصيحون بالدعاء في وجهه طامعين أن تكون دولة الفوضى قد دالت ، وممنين أنفسهم بحكومة عادلة حازمة .

كان هشام الثالث أضعف من أن يحقق الآمال المعقودة عليه ، ذلك أنه رغم طيبته وسماحته إلا أنه كان في الوقت ذاته ضعيفاً متردداً كسولاً ، لا يعنيه غير ملئ بطنه ، وقد تبين للأشراف غداة مقدمه عدم توفيقهم في اختيارهم إياه ، وعقد في دارة الملك اجتماع كبير قدم فيه جميع الموظفين إلى الخليفة الذي لم يألف هذه الاجتماعات ولا تلك الخطب ، فلم يفتح عليه بغير كلمات قلائل حتى لقد أناب في الكلام عنه أحد الوزراء ، أما هو فقد ارتج عليه ولم يفه بكلمة يطيب بها خاطر الشعراء الذين كانوا ينشدون بين يديه ما أعدوه من قصائد بمناسبة اعتلائه العرش ، بل لقد ظهر عليه أنه لم يفهم شيئاً مما كانوا ينشدونه .

هكذا بددت فاتحة عهد الخليفة كل أمل فيه لاسيما حين استحجب بعد قليل الحكم بن سعيد (اقزاز) الذي كان للموالى العامرين إلا أنه كان يحترف في بادئ الأمر الحياكة بالعاصمة حيث تعرف بهشام ، ذلك لأن الأمراء الأمويين كانوا كثيرى الاختلاط بطبقات المجتمع الدنيا ينشدون منها المعونة ، فلما دببت الفتن انخرط الحكم كجندى وسرعان ما رفعت شجاعته وكفاءته الحربية واكتسب تقدير أصحاب الثغور الذين خدم تحت امرتهم ، فلما بويع هشام بالخلافة راح الحكم يفتش عنه وذكره بصداقته القديمة له وعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم يلبث أن سيطر عليه ، فلما صار حاجبه بذل غاية همه لجعل مائدة مولاه مملوءة على الدوام بأطيب الطعام وألذ الشراب ، وأحاطه بالجوارى والمغنيات والراقصات ، ومجمل القول إنه حاول أن يجعل مولاه يتقلب في أعطاف البلهنية ، ولم يكن هشام الغبي يهمله سوى هذا ، بل لقد أرضاه كل الرضى أن يتخلص من عبء معالجة الأمور التي تزعجه ، وقرت نفسه أن يكل للحكم بن سعيد تدبير شئون الحكم .

وجد الحكم خزينة الدولة خاوية ، ورأى أن سد النفقات يتطلب منه توفير دخل أكبر وأعظم مما يأذن له به الشرع ، فكيف يتأتى له تحقيق هذا المطلب .

كان لابد من فرض ضرائب جديدة ، غير أن ذلك العمل لابد وأن يؤدي إلى ضياع مكانته عند الشعب لذلك اضطر الوزير إلى اصطناع الحيل المختلفة ، وهي وإن تكن بعيدة عن الشرف إلا أن الحاجة في الواقع هي التي حملته عليها فصادر كل ثمين اكتشف أن أبناء المظفر قد عهدوا به إلى أصدقائهم ، وأرغم كبار التجار على شراء ذلك كله بالثمن الباهظ ، كما ألزمهم بشراء الرصاص والحديد المتخلف من القصور الملوكية التي دكت أثناء الفتنة ، ومع ذلك فإن هذه الأموال المأخوذة بذلك الطريقة لم تقف بسد الحاجة ، فاتصل بفتيه مرذول هو ابن عبد الجبار الذي دل الخليفة عليا [بن حمود] من قبل على كل ما يملأ الخزينة وإن يكن ذلك بطرق مرذولة .

لم يعلم ابن الجبار في تلك المرة الوسيلة لتقديم مبالغ طائلة من وقف المساجد إلى الحكم بن سعيد ، ولم يبق خبر هذا العمل سرا مكتوما فقد أرجف به أهل قرطبة لاسيما الفقهاء ، وكانت رواتب الفقهاء من أعضاء المحكمة قد زادت قبل ذلك فلم يرفضوا تلك الزيادة رغم يقينهم بأنها جاءت من طلائق الضرائب غير الشرعية ، لذلك كان من الطبيعي أن ينحني الحكم على الفقهاء ، ومن ثم كان رده عليهم ردا قاسي اللهجة وضعه أبو عامر بن شهيد وتلاه علانية في القصر أولا ثم في الجامع ثانية في يونيو (١٩) سنة ١٠٣٠ م ، فاغتم الفقهاء أشد الغمة وحاولوا تحريك الشعب ودفعه لمشاطرتهم غضبهم ، لكنهم أخفقوا في محاولتهم هذه إذ الظاهر أن الجمهور لم ير في ذلك العمل ما يدعو للتبرم والسخط وضاعفت الحكومة من جانبيها ثقتها فقتلن وزيرا إلى إحدى المؤامرات ، وحثها ابن شهيد على إطاحة الرؤوس الكبيرة كما قال في قصيدة له رفعها إلى الخليفة ، وفيها ينصحها ألا يلقي سمعا إلى أصحاب المطامع هؤلاء وأن يترك للسان تآديبهم والنيل منهم .

ربما كان الأمر سهلا هينا على الحكم بن سعيد الحائك أنه لم يكن هناك من يعارضه سوى الفقهاء الذين كاتوا إذ ذاك أهون من أن يبلبلوا خاطرهم ويشغلوا باله ، لكنه كان يواجه أعداء أشد خطرا وأقوى شكيمة وأعنى بهم أولئك الأشراف الذين ناصبه معظمهم العداء ، فقد كانت وضاعة نشأته قد نغمت في عيونهم لا يزول ، فلم ينظروا إليه كجندى سما به جده ، بلت به كفاءته ، بل نظروا إليه على أنه حائك وضع لا يفرقونه

أبدا عن وزير محمد الثاني عى الرغم من الفارق الكبير بين الوزيرين ،
اذ كان أحدهما صانعا أما الآخر فقد قضى الشطر الأكبر من حياته فى
المعسكرات وفى حاشية أمراء الثغور ، ولما كانوا قوما لا يأنهون بالأساليب
التي تتخذ لملء الخزينة فقد كان من اليسير عليهم غض النظر عما قد
يعمد اليه أحد رجال طبقتهم من الوسائل المالية التي اضطر الوزير
[القزاز] اليها ، ولكن وضاعة نبعته دفعتهم للتشهير به عند العامة التي
استغلوها لتشاطرهم حقدهم الذي حملتهم عليه منفعتهم الخاصة .

لم يفضى الحكم فى بادىء الأمر منهم ، لذلك لم يحرمهم نصيبهم من
المساهمة فى الحكم بدليل معاطاته ابن شهيد وده واتخاذة اياه موضع
ثقتة ، لكنه لما رأى أنهم لم يجيبوا نداءه الا بالازدراء والاحتقار وأنه
لا يحركهم سوى سوء الطوية والكراهية والعداوة فقد تسعر غضبا وراح
ينشر موظفيه بين الرعاع ، وكان هؤلاء الذين استعملهم ممن استجابوا
لدعوة الأشراف ، ولسنا فى حاجة لأن نقول ان الوزير لم يعهد بالوظائف
الا الى « أغمار من ديدنهم حث الكاس ، وتنضيد الآس ، والتفكه بأعراض
الناس ، فان ضج مظلوم سخرؤا منه » .

وكانوا يعدون الحكم بن سعيد متأما مسلوب القدرة ، وجنديا لكن
تعوزه الشجاعة ، وفارسا تغلب عليه السذاجة ، وربما أعمتهم الكراهية
عن حقيقته وان يكن الثابت المؤكد أنهم عمدوا الى أدنا الأساليب لاسقاط
عدوهم ، ذلك أنهم حاولوا أولا تحريك الناس للتمرد عليه قائلين لهم ان
ركود التجارة الذى كان السبب الفعلى للنكبات العامة لا يرجع الا الى فداحة
الضرائب التي فرضها الوزير على معظم أنواع التجارة ، وأتت هذه
الأقوال أكلها ، فاتفق جماعة من الشعب مع الخاصة على مهاجمة بيت
الوزير الذى أنهى اليه أحد معارفه الخبر قبل أن يقدم المتآمرون على انجاز
ما اتفقوا عليه ، فغادر داره وأقام بقصر الخليفة ، وأسقط الضرائب التي
يتنمر الناس منها ، وقرأ على الناس منشورا طويلا قال فيه انه لم يفرض
تلك الضرائب الا لسد حاجات بيت المال المتزايدة ولكنه لن يعمد الى ذلك
بعد الآن ، فركن الناس الى الهدوء ، واذ ذاك عمد الأشراف الى باب آخر
يحققون به غرضهم ذلك انه لما كان الحكم قليل الثقة فى الجنود البلديين
صنائع الخاصة فقد حاول تكوين بعض الفرق البربرية (٢٠) ، وما دؤم
الأندلسيين للتدمير ، وعمد الأشراف الى عمل ما يزيد تسعير السخط
عاليه ، فلما عرف ابن سعيد ما يدبرونه ضده سلك السبيل الناجحة
لابقاء الجند على الطاعة له بأن عاقب رؤوس الفتنة فأخر أعطيساتهم ،
واذ ذاك حاول الأشراف افساد ذات البين بينه وبين هشام فأخفقوا .

لأن تأثير الحكم على السلطان الضعيف كان أشد من تأثيرهم هم عليه ، حتى حرم عليهم دخول القصر ، لم يستثن من ذلك سوى ابن جهور وحده - رئيس المشيخة - فقد احتفظ بشيء من السلطان على الخليفة الذي كان يعد نفسه رهين فضله اذ يدين له بالجلوس على العرش ، أو بلفظ آخر أنه كان مسدينا له بالمكانة الجوفاء التي هو فيها ، لذلك فشلت جميع المحاولات التي بذلها الحكم لصرف ابن جهور عما بيده من الأعمال ، ومع ذلك لم يداخله اليأس بل دأب على ملاحقة الخليفة حتى تمكن في النهاية من التغلب على تردده ، وشعر ابن جهور بما يدبر له ، ولعله أحس بضعف مركزه فقرر أن يبعد الوزير والخليفة معا ليكون الحكم للمشيشة وحدها ، ورحب زملاؤه بمشروعه هذا .

لكن كيف يتأتى لهم أن يجدوا من يناصرهم في هذا العمل ؟

هذا كانت المشكلة .

لقد كان في المجلس كثيرون ممن لا يعجبون عن المساهمة في خلع هشام الثالث عن العرش ، لكن يظهر أنه لم يكن هناك غير أعضاء المجلس ممن يفكرون في استبدال الفوضى بالملوكية لأن القلوب والأذهان كانت لا تزال متعلقة بالخلافة ، لذلك رأى الأعضاء أن الحكمة تقتضيهم كتمان ما هم بسبيله ، وتظاهروا بأنهم يريدون ابدال هشام بخليفة غيره ، وأخذوا يفاوضون - على هذا الأساس - أحد أقارب الخليفة ويدعى أمية [بن عبد الرحمن العراقي] ، وكان شايبا شديد التهور طباعا قليل التبصر ، وأفهمه الأعضاء أنه من اليسير عليه الاستحواذ على العرش اذا رضى أن يتزعم الفتنة ، فرحب الأمير الشاب بما عرضوه عليه دون أن يفكر في انه لن يكون سوى آلة في أيديهم يلقونها جانبا حين يتم لهم ما يريدون تحقيقه ، ولما كان أمية بن عبد الرحمن العراقي مبسوط الكف فقد سهل عليه أن يضم اليه الجند الذين حرمهم القزاز أعطياتهم .

وفي ديسمبر ١٠٣٠ م (محرم ٤٢٣ هـ) (٢١) كمن هؤلاء الرجال في كمين نصبوه للحكم بن سمسعيد ثم وثبوا عليه وهو يقادر القصر وطرحوه أرضا وفتكوا به قبل أن يتمكن من تجريد سيفه ، ثم حزوا رقبته وغسلوها في طشت سمك لأن الدم والوحل عفراها ورفعوها على رمح ، وحينذاك مضى أمية فقاد الجموع من المسكر والعمالة الذين انضموا اليه ، بينما اعتلى هشام « العلية » ومعه نساؤه وأربعة من غلمانه ، وقد ارتجفت أوصاله حين سمع الصيحات المروعة تتجاوب بها أبهاء قصره ، ثم توجه إلى الثوار الذين دخلوا القصر وسألهم ماذا يريدون منه وهو لم يفعل

شيئا ينكرونه عليه ، وعرفهم أن كانت لهم ظلامة فليرفعوها الى وزيره .
فأجابوه « وأي حاجب نعتي ؟ » ثم رفعوا رأس حاجبه ابن القزاز على
سنان رمح .

بينما كان هشام يحاول تهدئة ثائرة أولئك الرجال السفاكين الذين
كانوا لا يجيئون الا بالسباب والقذف تقدمت طائفة أخرى الى مخدع الخريم
ونهب كل ما وصلت اليه يدها ، وعثروا على قيود جديدة زعموا أن الحكم
صنعها لتصفية الأشراف ، فأثار أمية ثائرة البهاب بالحركة والقول
اذ قال لهم : « هذه لكم فاستبقوها عندكم ، وتسلبوا العليقة وافتكروا
بالخبث » .

وحاول بعضهم الصعود فلم يفلح لشدة ارتفاع العليقة ، واستغاث
هشام بأهل البلد الذين لم يساهموا في النهب فلم يفتبه أحد .

واعتقد أمية أن الوزراء سوف يستخلفونه ، فمضى الى إدارة الملك
وجلس على أريكة هشام وحوله وعياء الفتنة الذين خلع عليهم الوظائف
المختلفة ، وأصدر اليهم أوامره كما لو كان هو الخليفة حقا ، فقال له
أحدهم : « انا تخاف عليك في هذا اليوم القتل لما نرى من انقلاب
الناس عليك » .

فقال له أمية : « بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غدا » (٢٢) .

لم يكن هذا الشناب الطموح يدرى شيئا عما يجري في بيت
ابن جهور اذ ذاك ، فقد اجتمع منذ بداية الفتنة رئيس المجلس للتشاور
مع رفاقه الذين دعاهم الى دار واجتدوا يتباحثون عما يتخذونه ، فلما تم
اتفاقهم فيما بينهم تهادوا الى القصر في مواليتهم وخدمهم وكلهم شناساكي
السلح وصاحوا بهم « لاسلب ولا نهك حرمة » ، سنخلع هشاما وعلينا
اللعنة . وننوا ان كان حضور هؤلاء الرجال القظام قد أزعج الجمهور
فإن الله يخاف أن يعتمد حرسهم الى فضه ، أم لم يعد ثم شيء قيم ينهبونه
فقد أخذ النظام يعود بالتدريج ، واذ ذاك هتف الوزراء بهشام « أن انزل
من الملية فانك مخلوع » ، ولكننا نمنع عليك بالحياة » ، وابستسلم هشام
لهم مكرها اذ لم يكن في العلية مثونة ، ونزل فقاده الشيوخ هو ونساءه
الى ناحية من الساحة المصاغبة للمسجد الجامع فقال لهم أثناء سيره :
« ليتني قرب البحر ترهون بني في لجة فيكون أخف لسانتي ، فافعلوا
بما شئتم واحفظوني في ولدي وأهلي » .

فلما كان المساء دعى الوزراء زعمساء قرطبة الى الجامع وتبشاوروا
ما يصنعون بهشام فقرر الرأى فمنهم على المبادرة الى حبسه فى قلعة اتفقوا
عليها فيما بينهم ، ووكل الى جماعة من المشيخة حمل هذا القرار الى
أسيرهم الخليفة .

حين بلغ الشيوخ الدهليز طالعوا منظرًا مخزنا ، اذ رأوا هشاما
مفترشا الأرض ومن حوله نساؤه يبكين مسيلات شعورهن مشقوقات
الجيوب ، وقد ارتسم الاسى والشجى فى عينى هشام وهو يحتضن طفلة
سأترا لها بكه من قر ليله وكان شديد الحب لها ، وكانت الطفلة
المسكينة أصغر من أن تدرك الخطب ألملم بأبيها فظلت تنتفض بردا فى
هذه البقعة الفاسدة الهواء الرطبة ، اذ كانت الليلة شديدة الزمهرير وكادت
الطفلة أن تموت جوعا اذ لم يفكر أحد فى ارسال شئ من الطعام لتلك
العائلة المنكودة ، ولعل مبعث ذلك هو الاهمال أو المبالغة فى النكاية
والقسوة .

ثم تكلم أحد الشيوخ فقال انهم جاءوا اليه ليعلنوه أن المشيخة
ووجوه أهل البلد المجتمعين بالمسجد قد اتفقوا على

فلم يدعه هشام يتم مقالته بل قال له « ليكن ما أرادوا ، لكن
سألتكم كسرة خبز أسد بها جوع هذه الطفلة » .

وهز الموقف مشاعر الشيوخ فلم يستطيعوا أن يمسكوا دمعهم
وجأؤوه بالخبز ، ثم تكلم الشيخ الذى كان يدير دفة الحديث قائلا له :

« لقد استقر الرأى على أن تؤخذ عند انبلاج الصبح الى احدى
القلاع » .

فقال هشام : « ألا سألتكم سراجا آنس بضوئه مع نسائى ؟ » .

ثم جاء الغد .

ونقل هشام الى ظاهر المدينة وأصدر الشيوخ بيانا الى أهل قرطبة
أنبأوهم فيه أن رسوم الخلافة زالت ، وأن زمام الأمور قد انتقل الى أيدي
المشيخة ، ثم عادوا الى القصر حيث كان أمية الذى كان شديد الثقة بعهود
الوزراء السرية ، لذلك استدعى وجوه الجند ليبايعوه لكن سرعان ما زالت
الغشاوة عن عينيه حين أخذ الوزراء فى لوم الموظفين والجند على تسرعهم
فى مبايعة مثل هذا الافاق دون أن ينتظروا قرار مشيختهم ، وقال
ابن جهور :

« ان الشيوخ محوا رسم الخلافة وارتاح الناس لما فعلوه فلا تشيروها
يا عسكر فتنسة تذهب بالكل ، وهذه نعمتنا عليكم ، وترقيسوا المزيد
كلما ازددتم لنا طاعة » .

ثم التفت الى الحرس وقال لهم : « لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية
ولا يكنفهم أحد ، واستنزلوا أمية ذاته وأخرجوه نغما بيده » .

حواشی کتاب

حواشي الفصل الأول

- (١) راجع ابن النديم ٢٨٩/١ .
- (٢) G. Weill : Geschichte der Califen, t. II, p. 107.
- (٣) فيما يتعلق ببيانك والخرمية راجع ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية .
- (٤) Browne : A Literary History of Persia, Vol. I, Ch. IX.
- (٥) راجع نص المقرئ الوارد في :
Journal Asiatique, III^e Serie II, p. 134.
- (٦) فيما يتعلق بهذه الناحية انظر ما كتبه هوتيسمان في الدائرة .
- (٧) Browne : Op. Cit., Vol. II, p. 405 seq.
- (٨) راجع الجويني في الجريدة الآسيوية (النبعة الرابعة) المجلد الثامن ،
ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
- (٩) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes (Paris 1836).
Introd. p. CLXIV.
- (١٠) Ibid., pp. 139-153.
- (١١) De Sacy : Op. cit., pp. 112, 153-156.
- (١٢) راجع ما كتب عن الاثنى عشرية في الدائرة .
- (١٣) أما اسمه الكامل فهو الحسين بن أحمد بن محمود ، وكان يدعى أيضا بالحنطب ،
راجع في ذلك دائرة المعارف الإسلامية والمراجع المذكورة هناك ، ونضيف الى ما قاله
المؤلف من أن علة تسميته بالحنطب هي أنه كان محتسبا باليمرة وفي غيرها من مدن
العراق .
- (١٤) De Sacy : Op. cit., p. CXIX.
- (١٥) انظر مقال « الفاطميون » في الدائرة .
- (١٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزي) = ١٩٠/١ ، وترجمته
ص ٢٦٤ .
- (١٧) مثل الخليفة المعز عن صحة النسب الذي يربطه بالرسول (صلى الله عليه
وسلم) لأجاب أجابة حاسمة بأن استل سيفه من غمده الى مقتحفه وقال : « هذا حمبي ،
ثم ملا كفيه بيدرة من الذهب ونجروا على الحاضرين وقال « وهذا نسبي » وبهذا سكت كل
معترض ، انظر :
Journal Asiatique, 3^eme. Serie, p. 167.

(١٨) أمر عبيد الله بسب الصحابة في الصلوات العامة ولم يستثن سوى على وأربعة آخرين .

(١٩) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٩٥/١ ، وترجمته ص ، ٤٢٤ .

(٢٠) ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة دي خويه) ليدن ١٨٧٢ ، ٧٤-٧٣/٢ ، وقد نقل المقرئ هذه العبارة في نفح الطيب ١٢٠/١ .

(٢١) تاريخ ابن حبيب ، ص ١٦٠ .

(٢٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية .

(٢٣) راجع صاعد الطليطلي : طبقات الأئمة (طبعة لويس شيخو) ، بيروت سنة ١٩١٢ ، ص ٦٤ .

(٢٤) راجع الحميدي ، مخطوط أكسفورد ، ورقة ٤٧ - ب ، وقد تجم دوزي هذه النبعة في : Journal Asiatique, 5ème Serie, t. II, p. 93.

ثم قارن هذه المجتمعات المذكورة في النص بما جاء في أبي المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة جينبول) ، ج ١/٤٢٠ - ٤٢١ : والمتعودي في نقولسون ، والمرجع السالف ١٢٢/٢ .

(٢٥) المقرئ نفح الطيب ، ١٢٦/١ .

(٢٦) جاء في أماري : المكتبة العربية الصقلية Amari : Bibliot. Ar. Sicula

« كان ابن مسرة كلفا بفلسفة أبيد تلمس تملأها للراستها ، وخرج الى المشرق فارا لما اتهم بالزندقة لأكثره في فلسفة أبيد قلص واشتغل بملاحاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد الى الأندلس فأظهر التمسك والورع ، واغتر الناس بظاهره واختلفوا اليه ثم ظهوروا على معتقده ، وقبح مذهبه ، فانقبض منه البعض ولازمه بعض ودانوا بنحلته ، وكان له لسان خلوب يتوصل به الى مراده ونضيف الى ما ذكره دوزي في المتن أن ابن مسرة كان يعرف بالجبلي ، وفي زيادة التعريف به نقول هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن مسرة ، وقد درس على جماعة من أئمة العلم في قرطبة ، ثم تفقه على يد المعتزلة وأهل الكلام في المشرق ، ثم تظاهر بالنسك ويصفه ابن حيان « بالظنين المنطوي على نخل السريرة ، الرابض للفتنة » وذلك في مخطوط له اطلع عليه المرحوم محمد عبد الله عنان ونقل عنه في كتابه دولة الاسلام في الأندلس ، ٤٣٢/٢ . وانظر الحاشية التالية . (المترجم)

(٢٧) راجع عن ابن مسرة ما كتبه القفطي في تاريخ الحكماء (طبعة ميللر) ، ص ١٦ ، والفتح في المصنف (طبعة القسطنطينية ، ١٣٠٢) ص ٥٨ ، ويوجد هذا الفصل أيضا في المقرئ : نفح الطيب ١٢٦/٢ ، وقد ألف الزبيدي كتابا يحض فيه آراء هذا الفيلسوف ، راجع أيضا عن ابن مسرة : الضبي : بغية الملتصق ص ٧٨ ، ترجمة رقم ١٦٣ ، وابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ترجمة رقم ١٢٠٢ ، وقد كتب الأستاذ ميشيل آتين بلاثيوس (مدريد ١٩١٤) رسالة مفصلة عن ابن مسرة بعنوان :

Abenmasarra y escula, origines de la filosofia hispano musulmana.

(٢٨) لقد بلغ من مدى نجاحهم أن عبد الرحمن الثالث - كما سنقص فيما بعد - أطاح برأس أمير من أسرته لأرائه الشيعية .

(٢٩) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٧٦/١ .

(٣٠) جاء فى Moralés : Chronica General, II, p. 324. الموضوع فى القرن السادس عشر وصف مسهب وتصويرى قوى لهذا الوادى وتلك الكهف .

(٣١) راجع المقرئ : نفع الطيب ، ٩/٢ ، ١٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ .

(٣٢) المقرئ : شرحه .

(٣٣) هذا هو الأرجح فى أصله وإن كانت هناك رواية نصرانية تزعم أنه نصراني من زعماء أشتوريس وهى رواية ضعيفة ، والصواب أنه زعيم مسلم كان قد ولى بعض الولايات الشمالية (فى سبتمانيا) فى الأندلس فسعى الى مهاجمة الدوق النصراني « أودو » أمير أكويتانيا حتى زوجه إحدى بناته واسمها « لامبيجيا » ونستطيع من استقراء الأحداث التاريخية أن نقول أن الذى دعى « أودو » لمخالفة منوسة هو ما كان من نزاع شديد بين الدوق النصراني وبين شارل مارتل الذى كانت أطماعه تمتد الى ولاية أكويتانيا . (المترجم)

(٣٤) أما المؤرخون الاسبان الذين بالغوا كثيرا فى أهمية النجاح الذى صادفه بلاى فيزعمون كذلك أن منوسة قتل أثناء ارتداده ، لكن الواقع هو عكس ذلك تماما ، إذ أن هذا القائد ظل حيا بضع سنوات بعد هزيمته هذه ، ثم مات فى شرطانيس ، انظر : Isidore, e. 58. وقارن ذلك بما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧/٢ . وترجمته ، ص ٣٨ ، حاشية رقم ٢ .

(٣٥) تكلم ايزيدور (الفصل ٧٦) عن هذه المجاعة الكبرى .

(٣٦) يقول دوزى فى Recherches, t. I, p. 126. ما نصه « وكان نزولهم فى مقاطعة شذونة ، ولما كانت سفن المسلمين المعدة للسفر موجودة بنهر رباط فقد سعى المسلمون هذه السنوات المهلكة بسنى رباط » ، راجع أيضا أخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، وترجمته ص ٦٧ ، والبيان المغرب ، ٣٩/٢ ، وترجمته ص ٥٧ .

(٣٧) أخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، وترجمته ص ٦٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٣٨/٢ - ٣٩ ، وترجمته ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣٨) Sebastien : Chronic. (Esp. Sagrada), t. XIII, p. 14

(٣٩) Dozy : Recherches, t. I, p. 140-141.

(٤٠) لقد ظلت بعض المدن مثل أشتورقة وتوى غير مسكونة حتى بعد سنة ٨٥٠ م .

(٤١) Dozy : op. cit., t. I, p. 116 et seq.

(٤٢) أما أحمد بن يعقوب الذى كتب حوالى سنة ٨٩٠ م فيقول أن امارة ماردة (الواقعة على نهر الوادى اليانع) هى حصن على الحدود ، راجع دى خويه فى ص ١٦ من النص العربى الوارد فى :

Specimen Liter. Exhibens descriptionem al Maghreb.
Menachi, Silensis Chronicon (Esp. Sagr.) t. XVII ; Chron. (٤٣)

Albeldense. وكذلك المجلد الثانى والعشرين من نفس المجموعة .

(٤٤) Chronic. Albeldense. (E p. Sagr. 1, t. XIII, p. 64.

أما لفظ Castra de Napza الذى يستعمله مؤلف هذه الحوليات فالمقصود به حصون القبيلة البربرية نفزة التى كانت تسكن المنطقة الواقعة بين تريجلو والوادى اليانع ، راجع ابن حيان ، ورقة ٩٩ ب ، ١١٠١ .

(٤٥) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٩ ب .

(٤٦) المقتبس ، ورقة ٨٢ ب ، راجع كذلك وصف سمورة الذي ذكره المسعودي في مروج الذهب (طبعة باربييه دي مينارد) = ٣٦٢/١ ، وقد ورد هذا الوصف في نفح الطيب . ٢٢٢/١ ، وترجمته ، في : Dozy : Recherches t. I, p. 165-166.

(٤٧) أسهب ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٨ ب - ١٠٢ ب ، في ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، راجع أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٤/٢ ، وترجمته ص ٢٣١ ، حيث يشير الى أن أحمد بن معاوية مات في مستهل ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، (= فبراير سنة ٩٠١ م ، راجع أيضا Sampiro : Chronicon (Esp. Sagr.), t, XIV c. 14.

(٤٨) Chronica de los principes de Asturias y cantabria, Escr. I.

هذا وتوجد وثيقة أخرى (من سنة ٩٩٢ م) في :

España Sagrada, t. xix, p. 383.

(٤٩) Charle chez Berganza ; Antigüedades de España, t. I, p 197, Col. 2.

حواشي الفصل الثاني

(١) كانت هذه القلعة تقع جنوبي ماردة ، وكانت في هذه الأيام التي يتكلم عنها دوزي مسكنا ليرانس كتامة بقيادة زعيمهم المعروف بابن راشد الذي مات في محاربه الملك النصراني ومحاولته دفعه عن الحصن ، وقد تمكن أردونيو الثاني من الاستيلاء على الحصن : الأمر الذي أفرغ بقية المسلمين في ماردة التي يادر صاحبها وهو محمد بن تاجيت الى موادة أردونيو الثاني بما بعث اليه من الهدايا والتحف ، فاكتمل الأمير النصراني بذلك وعاد الى بلاده ، وقد أشار الى ذلك ابن خلدون في تاريخه . (المترجم) :

(٢) Chronique du Moine de Silos, c. 44, 45.

وابن خلدون ، العبر ، ١٢٨/٤ ، هذا وقد اتبعنا المؤلف الأخير فيما يتعلق بتحديد التاريخ .

(٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٦/٢ ، وترجمته ص ٢٩٤ .

(٤) البيان المغرب ، ١٧٧/٢ ، ١٧٨ ، وترجمته ص ٢٨٢ ، وانظر أيضا : Sapiro Chronicon, c. 17 ; Moine de Silos, c. 46, 47.

ويلاحظ أن هذه القلعة كانت من أمنع حصون تلك الناحية .

(٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ١٧٧/٢-١٧٨ ، وترجمته ، ٢٨٤ ، والفصل السابع عشر من حوليات سامبيرو ، وكذلك مذكرات كاهن سيلوس ، الفصل ٤٦ ، ٤٧ ، ويضيف المترجم الى ذلك أنه يلاحظ أن هناك اختلافا بينا في تقدير هذه المعركة بين المصادر العربية الاسلامية والمصادر النصرانية ، اذ تذكر الأولى أن الجيش المسلم ارتد بقيادة امرائه سالما الى أرضه ، على حين تؤكد المصادر المسيحية أن الهزيمة كانت تامة ، وأن ساحة القتال كانت مغطاة بجثث قتلى المسلمين وأسلحتهم وعتادهم ، وقد بنى دوزي على هذه المصادر الأخيرة رايه ، وإن كان في الوقت ذاته استعمل المراجع الاسلامية وفي مقدمتها البيان المغرب ، لكن ليس من شك في أن الجماعة الاسلامية التي قدرت لها الحياة والعودة الى أرضها كانت من القلة بالصورة التي تشير صراحة الى مدى النكبة ، يدل على هذا ما أورده ، ابن حيان في المقتبس (المخطوطة) من قوله في التعليق على هذه الهزيمة « وانقلب الكفرة لعنهم الله الى بلادهم أعزة » فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحركه لجاهدة أعداء الله » . انظر عنان : ٣٩٥/٢ ، حاشية ١ - (المترجم) .

(٦) أما عن هذه البلدة التي كانت تقع الى الجنوب قليلا من الغرضة المسماة اليوم Alhircemas الرابضة على شاطئ مراكش في الريف فيمكن مراجعة الادريسي في Description de l'Afrique et l'E pagnie, p. 199, 205. وانظر أيضا البكري :

Description de l'Afrique Septentrionale, p. 212-213.

وبكتاب الاستبصار ، ترجمة دي فانيان ، ص ٤٥ .

(٧) راجع Dozy : Recherches, t. II, 281. نقلا عن البكري (شرحه) ، ص وكذلك ابن عذارى البيان المغرب ، ١٧٩/١ وترجمته ص ٢٤٩ ، وابن خلدون : العبر =

= ٢٨٢/١ وترجمته ١٢٩/٢ ، ويذكر البكري أن هاتين الأميرتين هما ابن المعتصم بن صالح وتدعيان أمة الرحمن وخولة .

(٨) البيان المغرب ، ١٧٩/١ ، وترجمته ص ٢٤٩ ، ونزيد على ما قاله دوزي في المتن. ان مصرعه كان حين حضر غزوة أبي العباس القائد ، أما ديسم بن اسحق فكان الرجل الذي اشتد أمره في تدمير « فسير اليه الأمير عبد الله في سنة ٢٨٢ هـ (= ٨٩٦ م) جندا جعل الامارة فيهم الى عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم الذي انتصر وان لم يكن انتصاره حاسما . (المترجم) .

(٩) واسمه الكامل سعيد بن صالح بن سعيد بن ادريس بن منصور .

(١٠) أورد البكري : Description de l'Afrique Septentrionale, p. 219.

نص هذه الأبيات ، وكذلك ابن عذارى : البيان المغرب ١٨١/١ وترجمته ص ٢٥٢ ، وابن خلدون : العبر ، ٢٨٤/١ وترجمته ١٤٠/٢ ونضيف الى ما ذكره دوزي في المتن أعلاه أن مما جاء في رسالة عبيد الله الشيعي قوله :

فان تستقيموا استقم لصلاحكم وان تعدلوا عني أقتلكموا قتلا وأعلو بسيفي قاهرا لسيوفكم وأدخلها عفوا وأملئوها عدلا

وانظر ما قاله دوزي عن نص الأبيات الواردة في المتن ومرماها في :

Gottingische Anzeigen, 1858, p. 1091-92.

وكذلك تعليق دي سلين على ابن خلدون . (المترجم) .

(١١) وهذه هي المدة من أول الى ثالث ذي الحجة .

(١٢) كان هذا القائد رجلا من البربر واسمه أحمد بن العباس من بني يطوفت .

(١٣) ذكرت المراجع العربية أنهم كانوا يلقبونه باليتيم .

(١٤) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع البكري :

Description de l'Afrique, p. 94-95.

وابن عذارى : البيان المغرب ١٧٧/١ - ١٨٣ ، وترجمته ص ٢٤٧ - ٢٥٥ ، وابن

خلدون : العبر ، ٢٨٢/١ - ٢٨٥ ، وترجمته ١٢٨/٢ وما بعدها .

(١٥) انظر ما سبق .

(١٦) كان هذا الحليف هو شانجة بن غرسية ملك نفارة حينئذ ، وقد اكتفى دوزي بالإشارة الى ملكة نفارة .

(١٧) Chronic. de Moine de Silos, c. 47.

(١٨) لاندري مكانة الصدق في قول البيان المغرب ، غير أن ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، رقم ١٤٥٧ ، والفتح في العقد ، ٣٧٣/٢ ، قد تناولاها في حياد بقيق ، راجع فانيان في ترجمته للبيان المغرب ، ٢٨٦/٢ ، حاشية رقم ١ .

(١٩) راجع ابن عذارى البيان المغرب ، ١٧٩/٢ - ١٨١ ، وترجمته ص ٢٨٥ - ٢٨٧ وانظر

أيضا : Sampiro : Chronicon c. 18.

(٢٠) هكذا في البيان المغرب ، لكنها واردة في دوزي باسم Osma - (المترجم) .

(٢١) هكذا اسمها في البيان وهي في دوزي Alcubilla (المترجم) .

(٢٢) راجع مرادد الاطلاع .

(٢٣) يشير المؤلف هنا الى ما كان من قيام أهل نفارة بمحاربة شارلمان وصدده عن عاصمتهم بآنبيلونة لكن لم تجد محاولتهم هذه المرة ولم تمنع المدينة من السقوط في يد المغير الفرنجى الذى أعمل يد التخريب والتدمير فيها حتى لا تكون مصدر مضايقة له . ثم تاهب للرجوع وفي أسره أمير عربى كره ولداه ما ألحقه شارلمان بأبيهما فهاجما مع جماعات أخرى مؤخرته عندما بلغ ناحية تعرف بممر روتشفال أو باب شيزروا ، واتسم الهجوم الاسلامى بعنصر المباغته التى لم يكن يتوقعها شارلمان ، على أن الرواية النصرانية تقول أن البشكنس هم الذين قاموا بهذا الهجوم المباغت . (المترجم) .

(٢٤) يقع هذا الوادى بين استيلا وبآنبيلونة ، أو على وجه الدقة بين مويش وساليناس دى أور .

(٢٥) نزيد على ما ذكره المؤلف ما قاله أحد المؤرخين مشيرا الى هذه الظاهرة من الرخص فيقول « كانت تبدل كل ستة أفقرة بدرهم فلا يوجد من يشتريه » . (المترجم) .

(٢٦) وذلك يوم الخميس ١٢ ربيع الثانى سنة ٣٠٨ ، كما تذكر المراجع الاسلامية . (المترجم) .

(٢٧) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٢/٢ - ١٨٩ ، وترجمته ص ٢٩١-٢٩٧ ، وابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ وانظر أيضا ما جاء فى : Sapiro : Chron., c. 19 ; Ragull : Vita Vel Passio Sancti Pelgi (Schott), t. IV, p. 348.

(٢٨) كان الواجب أن تعتبر حملة أردونيو فى هذه السنة ذلك لأن سامبيرو يقول ان الملك فى عودته الى سمورة وجد زوجته قد ماتت ، والثابت ان الملكة ماتت فى صيف سنة ٩٢١ م ، انظر فى ذلك Espagna Sagrada, t. XXXVII, p. 269.

(٢٩) Sapiro, Ch. c. 18.

(٣٠) Ibid., c. 19.

(٣١) تكلم ياقوت فى معجمه عن بقيرة فذكر موضعين فى اسبانيا بهذا الاسم ، احدهما متاخم لطليطلة والآخر فى اقليم مرية ، راجع أيضا ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ٢/٢٦ ، انظر فيما بعد حاشية رقم ٣٣ .

(٣٢) اورد شائجة هذا النص فى انعام ممنوح بعد الاستيلاء على بقيرة ، انظر : Espagna Sagrada, t. xxxiii, p. 488.

(٣٣) كان القوامون بالدفاع عن بقيرة جماعة من كبار وجوه بنى لب وبنى ذى النون ، وقد وقعوا أسرى فى يد عدوهم أردونيو الذى قتلهم ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى بن ذى النون لفراره من حبسه ، وكان لذلك وقع شديد فى نفوس المسلمين تمثل فى لومهم الشديد للناصر . - (المترجم) .

(٣٤) نصيب هذه الشائجة من الصحة ضئيل ، وقد نجحت شرذمة قليلون من الاشراف فى النجاة ، قارن ما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٩٥/٢ ، وترجمته ص ٣٠٥-٣٠٦ بما جاء فى ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٥٥ ب .

(٣٥) فيما يتعلق بهذه الحملة راجع البحث الفصل عنها فى البيان المغرب ، ١٩٦/٢ - ٢١٠ ، وترجمته ص ٣٠٧ - ٢١٣ .

(٣٦) كان ذلك في أواخر سنة ٣١١ هـ ، راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢ ، ١٦٥ ،
ص ٢٠٧ ، والواقع أنها كانت قبل ٩ أبريل سنة ٩٢٤ م .

(٣٧) Dozy : Recherches, pp. 142-152.

(٣٨) فيما يتعلق بالجوانب التاريخية والسياسية لهذه المسألة راجع ما كتبه سير
توماس أرنولد في الدائرة تحت كلمة « خليفة » .

(٣٩) Nicholson : a Literary History of the Arabs, p. 264.

(٤٠) ابن خرداذبة ، مخطوط أكسفورد ، ورقة رقم ٩٠ .

(٤١) ابن عذاري : البيان المغرب ، ص ١٦٢/٢ ، ٢١١-٢١٢ ، وترجمته ص ٢٦١ ،
٢٢٣-٢٢٨ .

(٤٢) راجع ما كتبه ليفي بروفنسال في الدائرة تحت مادة « مغراوة » .

(٤٣) في الأصل الفرنسي « الحاكم الاسباني » وقد آثرت بدلا منها كلمة « عبد الرحمن »
لايضاح المعنى (المترجم) .

(٤٤) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٠٨/١ ، ٢١٢ ، ٢٢٠/٢ ، وترجمته ص ٢٨٩ ،
٢٩٧ ، ٢٣٩ .

(٤٥) Espagna Sagrada, t. xxxiv, p. 241.

(٤٦) راجع البيان المغرب ، ٢٢٠/٢ ، وترجمته ص ٢٣٩ .

(٤٧) Dozy : op. cit., p. 150.

(٤٨) Samiro : Chronicon, c. 22.

(٤٩) البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ ، وترجمته ص : ٢٤٢ .

(٥٠) Samiro : Chronicon, c. 22.

(٥١) Dozy : op cit., pp. 152-156.

(٥٢) ابن خلدون : كتاب العبر ، ١٣٦/٤ .

(٥٣) بنو قصى أسرة قوطية الأصل جبت المسيحية وقت الفتح العربي . (المترجم) .

(٥٤) الواقع أن هذه مبالغة من دوزي ، ولعل الذي بعثه على أن يقول هذا القول
هو ما رآه من محاولة محمد بن هاشم التجيبي في موادة النصاري ، والحقيقة أن
استقرار تاريخ هذه الأسرة في تلك الحقبة يفسر اتجاهه ، ذلك أن التجيبيين كانوا يتحدثون
عن سياسة الناصر في استنزاله الولاة ، هذا على الرغم من أنه لما مات محمد بن عبيد
الرحمن التجيبي سنة ٣١٢ هـ ، أقر الناصر ولاية ولده هاشم الذي أظهر المودة للسلطان
قلما مات هاشم ٣١٨ تطلع ولده محمد للحكم مكانه فقتل الناصر ثم عاد فأقره ، فبقى
في نفس محمد بن هاشم التجيبي شك ظهر أثره حين تخلف دون بقية آل بيته عن السير
مع السلطان في خروجه سنة ٣٢٢ ، ما حمل السلطان على التريث لقتاله ، ثم ما كان بعد
ذلك من موادة محمد بن هاشم لراميرو ملك ليون . (المترجم) .

(٥٥) راجع ابن خلدون في Dozy, Recherches, t. I, p. 221. وانظر أيضا
الملحق رقم ١٢ بنفس المرجع ، P. xxxii - xxxiii

(٥٦) Ibid., op. cit., loc. cit.

(٥٧) يكاد مطالع هذه الصفحات وهذا الكتاب الذي بعثه الناصر الى أحمد بن اسحق يؤكد أنه من أسرة وضيفة ، لكن الواقع أنه كان يمت الى الناصر بصلة القربى ، وان كنا لا نعرف مدى هذه القرابة ، فإذا تذكرنا ذلك عرفنا السر فيما يقوله دوزي في المتن أعلاه من أن أحمد بن اسحق هذا كان يتطلع لولاية العهد ، كما يفسر عدم تسرع الناصر في قتله الا حين اتصل بالفاطميين في المغرب ، انظر ابن الأثير ، ١١٥/٨ - (المترجم) .

(٥٨) نص هذا الخطاب وارد في أخبار مجموعة ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٥٩) وكان خروجه للصيد - المترجم .

(٦٠) أما هذا القائد فهو أحمد بن محمد بن العباس ، وكان يشغل منصب قائد القوات السلطانية المرابطة قرب سرقسطة ، وكان السلطان قد بعثه لمحاربة نصارى برشلونة الذين حاولوا غزو البلاد الاسلامية ، وهزمهم أحمد بن محمد بن الياس هزيمة منكرة أفنت عددا لا بأس به من مقاتليهم ، واستولى على الكثير من عتادهم وسلاحهم ، وذلك في شوال سنة ٣٢٤ هـ ، أما الكلام الذي بالمتن فيؤرخه جمادى الاولى سنة ٣٢٦ هـ حين سار الى ملك ليون وحليفه أمية بن اسحق ، فقد أمر الناصر قائدا آخر هو عبد الحميد بن بسيل بالانضمام الى أحمد بن محمد بن الياس . (المترجم) .

(٦١) راجع ابن خلدون في : Dozy : Recherches t. I, app. II. وانظر أيضا
المسعودي في مروج الذهب طبعة باريبييه دي مينارد ، ٧٢/٣ ، والمقرى : نفع الطيب
٢٨٨/١ .

(٦٢) كان أحمد بن هاشم التجيبي قد راسل السلطان في المصالحة وطلب الامان ثم عمد الناصر - على غير انتظار الى القبض على من أرسلهم ابن هاشم من اخوته وأصحابه الى السلطان لتوكيد المواقعة . وحين ذاك تبين لابن هاشم الخسر الذي أصابه وما يترتب عليه من تقليص أظافره ، فعاد طلب الامان وكتب الناصر أمانا له ولاخوته وأصحابه من أهل سرقسطة ، واشترط عليه شروطا اذا وفى بها كتب له السلطان عهدا على مدينة سرقسطة ويستعمله عليها وتم ذلك كله وفق ارادة السلطان الذي دخل سرقسطة في محرم ٣٢٦ هـ (= نوفمبر ٩٢٧ م) دخول الظافر المنتصر . (المترجم) .

(٦٣) كانت طوطة ملكة نفارة وأرملة شانجة والوصية على ولدها غرسية ، وكان وفودها على الناصر وهو في قلعة - (المترجم) .

(٦٤) راجع ابن خلدون في : Dozy : Recherches, t. I, p. xxxii-xxxiii, app. xii.

حواشي الفصل الثالث

(١) Vita Johannis Gorziensis (Pertz. Mon. Germ.), c. 316.

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٢٤ .

(٣) راجع المقرئ : نفح الطيب ٩٢/١ ، وراجع أيضا ما كتبه ليفي بروفنسال في الدائرة ، مادة « الصقالبة » وما أورده هناك من المراجع .

(٤) انظر ما كتبه بارتولد في الدائرة ، مادة Slaves وراجع أيضا ابن حوقل المسالك والممالك ٧٥/٢ ، ويطلق مؤرخو قرطبة على أوتو الأول اسم « ملك الصقالبة » ، انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٢٣٤/٢ ، وترجمته ص : ٣٦٢ ، حاشية رقم ٢ ، والمقرئ : نفح الطيب ، ٢٢٥/١ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ .

(٦) Liudraprand : Antapadosis, t. VI, c. 6.

(٧) راجع ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ ، والمقرئ : نفح الطيب ٩٢/١ ، وقارن هذا بما جاء في :

Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, p. 233.

راجع المقرئ : نفح الطيب ، ٥٧/٢ . أما الكتاب المشار اليه في المتن فاسمه « كتاب... سيرة والمبالغة على من أنكر فضل الصقالبة » ، أما مؤلفه الذي أشار اليه ابن الأبار في كتابه : تكملة الصلة رقم ٨٩ فقد عاش زمن الخليفة هشام الثاني . انظر : Pons Boigues : En aya-bio-bibliographico sobre los Hitoria dores y geografos arabigo espanoles, (Madrid 1898), pp. 114-116.

(٩) المقرئ : نفح الطيب ، ٣٧٢/١ - ٣٧٣ .

(١٠) أخبار مجموعة ، ص ١٥٦ .

(١١) ليس من شك في أن ما انطوت عليه قلوب البعض من الحقد على الناصر لتقريبه الصقالبة وعلى رأسهم نجدة بن حسين قد كان له دخل كبير في هذه الهزيمة ويصرح بذلك المؤرخ ابن الخطيب حين يقول « أن طائفة من جند الناصر لدين الله حسدته على ما هبأه الله من الصنع له ولم تناصحه في الحرب حق النصيح ، فجالت داخل مصاف القتال وجرت الهزيمة على المسلمين بسببها » . وما كاد الناصر يصل الى قرطبة حتى قبض على نحو الثلاثمائة من الفرسان فصلبهم وأمر بالنداء عليهم « هذا جزاء من غش الاسلام وكاد أهله ، وأضل بمصاف الجهاد » وهذا ما يشير اليه دوزي في المتن أعلاه قبل صفحات قلائل في عبارة موجزة ، انظر في ذلك ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٣٧ (طبعة بيروت ، ١٩٥٦) . المترجم .

(١٢) لا أقل من أننا لن نعود نسمع عنه شيئاً ما .

١٢) لقد بذل الخليفة قصارى جهده لفك أساره ، غير أن محمد بن هاشم لم يسترد حريته إلا بعد عامين .

١٤) فيما يتعلق بوقعتي شلمنقة والخندق ، راجع ما كتبه Dozy : Recherches t. I, pp. 156-70. ولم يرد لهزيمة المسلمين هذه ذكر في حوليات مؤرخي عهد عبد الرحمن ولا في ابن عذارى ، وإذا استثنينا ما كتبه المؤرخون المسيحيون أمثال Sampiro : op. cit., c. 22, 23 ; Liudprand : Antapodosis, L. V, c. 2 de l'edition de Pertz, Annales de Saint Gall, (in) Pertz : Monum. Germ., t. I, p. 78.

فلا يعرف المرء إلا شيئاً قليلاً من تاريخ أخبار مجموعة ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، وابن خلدون والمسعودي في مروج الذهب ٢٦٢/١ ، ٧٢/٢ . وقد نقلها عنه المقرئ في نفع الطيب ٢٢٨/١ ، أما النصوص العربية المبعثرة هنا وهناك فقد جمعها دوزي في المرجع السابق ، انظر نفس المرجع ، ملحق رقم ٤ ، ص xxviii-xxix كما أن هناك بعض الروايات العربية المتعلقة بهذه الحملة وهي واردة في الحلة السيرة ، ص ١٥٠ ، وفي الكامل لابن الأثير . انظر أيضاً : Annales du Maghreb et d'Espagne, pp. 323-324.

راجع كذلك البكري (مخطوط باريس) رقم ٥٩٠٥ ، ورقة ١٥٠ ، وترجمة ثانيان الليبان المغرب ، ٢٤٨/٢ ، حاشية رقم ٢ .

١٥) عرف هذا باسم Tejiare أو Teliare وقد وردت كلمة Patalium في كتاب Sampiro, op. cit., c. 19 (طبعة فلوريز) ولكن الصحيح فيها هو أن تكون Placitum على أن البحث الصحيح المتعلق بهذا الموضوع وارد في مخطوط ليدن fonds Vossius, no 91. أما لوكاس Lucas du Tuy فقد استعمل في ص ٩٢ كلمة Iuncia وهي خونتا Junta في الإسبانية الحديثة التي هي أقرب ما تكون للكلمة Placitum راجع في تحقيق ذلك : Espagna Sagrada, t. IX, p 383.

Sampiro : op. cit., c. 19. (١٦)

Bergenza : Antigüedades de Espagna, t. I, p. 215. (١٧)

١٨) أضفنا ما بين الحاصرتين من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى . (المترجم)

Sampiro, op. cit., c. 23 (١٩)

٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٦/٢ ، وترجمته ص ٢٤٨ .

٢١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٤٠ .

٢٢) يقصد المؤلف بذلك أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . (المترجم)

٢٣) انتهى كثير من المؤرخين الى نتائج خاطئة فيما يتعلق بإقامة أبي يزيد الأولى في القيروان ويمكن الاعتماد على ما جاء في البيان المغرب ، ٢٢٤/١ - ٢٢٦ ، وترجمته ص : ٣١٦-٣١٢ ، وذلك نقلاً عن ابن سعدون وهو مؤلف معاصر يفوق غيره من المؤلفين في أن كتاباته مطبوعة بطابع الدقة أكثر منهم .

٢٤) فيما يتعلق بالقائم راجع ما كتبه سويرنهايم عنه في الدائرة

٢٥) كان ذلك سنة ٩٣٦ م . (المترجم)

Alkairawan, Histoire de l'Afrique, trad., Pellisier et Remusat, (٢٦)
p. 104.

(٢٧) فيما يتعلق بأبي يزيد وثورته راجع ما كتبه ياسيه في الدائرة والجبال الواردة
هناك .

Sampiro : op. cit., c. 23. (٢٨)

Berganza : Antiquidades de España, t. II, Esc., 329, et (٢٩)
Hisco : Historia de Leon (Madrid, 1792), t. I, p. 211.

Bergaza : op. cit. . انظر المراسيم الواردة في المرجع السابق .

(٣١) فقد أعطي علي سبيل المثال بستان الكونت الى دير كاردين . انظر مرسوم.
٢٢ أغسطس ٩٤٤ في المرجع السابق ، وثيقة رقم ٢٤ .

Cronica Rimada, p. 12 (Wleper Jahrbüchen) Anzeige — (٣٢)
Blatt du Tome cxvii.

Sampiro, op. cit., c. 23. (٣٣)

(٣٤) أهملت النسخة الإنجليزية ترجمة هذا السطر وما يليه - (المترجم) .

Sampiro, op. cit., c. 23.

: البيان المغرب ، ٢٢٦/٢ - ٢٢٧ ، ٢٢٠ ، وترجمته
كوية النصر في هذه المعارك هما احمد بن العباس وقتد

(٣٧) راجع البيان المغرب ، ٢٢٩/٢ - ٢٣٠ ، وترجمته من ٢٥٤ - ٢٥٥ . وقد انتهت
هذه الاعمال في صفر سنة ٣٣٥ (= سبتمبر ٩٤٦ م) .

Sampiro, op. cit., 24. (٣٨)

Dozy : Recherches, t. I., : راجع موت راميرو راجع : (٣٩)
pp. 170-173.

ويلاحظ ان دوزي في هذا البحث يميل لترجيح الرواية القائلة بأنه مات في سنة
٩٥١ م .

(٤٠) وكذلك اعتمادا على تأييد جدته الملكة طوطة - (المترجم) .

(٤١) كانت أم شانجة وزوجة فرديناند شقيقتين .

Sampiro : Chronic. c. 25. (٤٢)

(٤٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ ، وترجمته من ٢٦٠ .

(٤٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ - ٢٢٦ ، ويلاحظ ان احمد بن يعلى هو
قائد هذه الحملات .

Chronicon de Cardéna (España Sagrada), t. XXIII, p. 317. (٤٥)

(٤٦) العبر لاين خلدون ١٤٢/٤ .

(٤٧) فيما يتعلق بهذا العالم اليهودي راجع :

Graetz : Les Juifs d'Espagne, trad., G. Stienne, Paris 1872, p. 75. cf. also History of the Jews, 1892 ; Vol. II, pp. 220-225.

(٤٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، وترجمته ص ٢٦٧ ، هذا وينبغي قراءة حسداى بن « سبروط » بدلا « من شبروط » الواردة فى المخطوط ، انظر ابن خلدون : العبر ، ١٤٢/٤ .

(٤٩) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصيغة .

(٥٠) Amari : Storia della Musulmane di Sicilia, II, pp. 242-248.

(٥١) Amari : op. cit., II, p. 249-250.

(٥٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، وترجمته ص ٢٦٦ .

(٥٣) يقصد المؤلف بذلك تونس - (المترجم) .

(٥٤) ورد اسم اردونيو الثالث فى المنشورات حتى شهر مارس ١٥٧٠ . انظر فى ذلك :

España Sagrada, t. XXXIV, p. 268.

على انه بمقارنة ما جاء فيها بما هو وارد فى الحواشي العربية يتجلى خطأ التاريخ المذكور فى مخطوطات سامبيرو حول موت هذا الملك من القول بأنه مات فى سنة ١٥٥٠ م .

(٥٥) كان عبد الرحمن قد قلده أمر بطليطلة عام ١٥٤٠ م ، انظر ابن الابار : الحلة

الببراء ، ص ١٤٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٥/٢ وترجمته ص ٣٦٢ .

(٥٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، السطر الاخير ، ص ٢٢٨ وترجمته ،

ص ٣٦٨ .

حواشي الفصل الرابع

- (١) ابن خلدون في : Dozy : Recherches, t. I, p. 97.
- (٢) قال سامبيرو ما يقرب من هذا القول في معرض حديثه عن راميرو الثاني .
- (٣) كما كان في الوقت ذاته صهر فرديناند جونثالنت - (المترجم) -
Luzzato : Notices sur Abu-Jousuf Hasdai ibn Shaprut, p. 24.
- (٤) انظر ابن خلدون : العبر ١٤٢/٤ : Dozy : op. cit., loc. cit.
- (٥) Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 269.
- (٦) وكذلك جدته الملكة طوطة ملكة نفارة . (المترجم)
- (٧) كما كان في الوقت ذاته صهر فرديناند جونثالنت - (المترجم) -
- (٨) انظر ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥/١٢ ، وترجمته ص : ٢٨٨ .
- (٩) سيمر عليك فيما بعد قصة لقاء اردون الرابع مع الحكم الثاني .
- (١٠) ويسمونه في الاسبانية بال Il-malo أي الخبيث أو الرديء ، راجع
المقرئ : نفع الطيب : ٢٥٢/١ .
- (١١) لقد أخطأ سامبيرو في تنبيهه فحشاء بالآخطاء فيما يتعلق بتاريخ مملكة ليون
حتى انه كثيرا ما يقول ان اردون الثالث طلق « أوراك » فكان ذلك علة ثورة فرديناند
عليه ، أما ريسكو Risco - كما جاء في Esp. Sagrada, t. xxxiv, p. 261-263. فقد اعتمد على ما جاء في الوثائق فدل على ان « أوراك » ظلت تحت اردونيو الثالث
حتى موته .
- (١٢) Sampiro : c. 26.
- (١٣) البيان المغرب ، ٢٣٧/٢ ، وترجمته ص ٣٦٧-٣٦٨ .
- (١٤) راجع حياة جوهانس حيث يقول :
Judem quendam cui nomen Hasadew, quo neminem unquam
prudentiorem se vidisse aut audisse nostri testati sunt; cf. Vita
Johannism, Gorziensis, c. 12.
- (١٥) يلاحظ ان دوزي لم يشر الى المرجع الذي استقى منه هذه القصيدة وتابعه في
ذلك الأستاذ ليفي بروقتسال ، أما الترجمة الانجليزية فقد اشارت الى المصدر وذكرت
انه هو : Graetz : History of the Jews Vol. III, p. 232. - (المترجم) .
- (١٦) المقرئ : نفع الطيب ٢٥٣/١ .

(١٧) هكذا في الأصل الفرنسي ، أما في الترجمة الانجليزية فهو راميرو الثالث .
والصحيح هو كما جاء في الأصل وما اثبتناه هنا في الترجمة العربية - المترجم .

(١٨) راجع في Sampiro : Chronicon, c. 26. قصيدة « دوناش بن لبرت »
العبرية وقصيدة مناحم بن سرك الواردة في :
Luzzato : Notices sur Abu Jousowf Ha daii Ibn Schaprut, pp. 24, 25,
29-31.

وعبارة ابن خلدون التي بعث بها دوزي الى مسيو لوزاتو والتي طبعها هذا العالم
في كتابه السابق ، ص ٤٦-٤٧ ، والتي يراها القارىء في كتاب :
Dozy : Recherches, t. I, p. 98.

(١٩) لم يشر المؤلف دوزي ولا ليفي بروفنسال الى تاريخ هذه الحملة لكننا تثبت هنا
بناء على ما جاء في المصادر العربية - أن هذا الابحار كان يوم أول المحرم سنة ٢٤٧ هـ .
- وأن السفن قصدت مدينة الشيعي « معد بن اسماعيل » - (المترجم) .
(٢٠) راجع ترجمة العبر لابن خلدون ٤٥/٢ ، وابن عذارى البيان المغرب ، ٢٨٢/٢ ،
وترجمته ص ٣٦٩ .

Sampiro : Chronicon, c. 26. (٢١)

Dozy : Recherches, t. I, p. 98. (٢٢) انظر ما ورد من ابن خلدون في

Esp. Sagrada, t. XXXIV, p. 270. (٢٣)

Sampiro : op. cit., c. 26. (٢٤)

España Sagrada, t. XXXIV, pp. 270-271. (٢٥)

(٢٦) راجع ابن خلدون : العبر ، ١٤٣/٤ .

Dozy : Recherches, وراجع ابن خلدون في Annales Compostellino, (٢٧)
t. I, p. 98.

Sampiro : Chronicon, c. 26. (٢٨)

(٢٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٦١/٢ ، ٢٣٩ ، وترجمته ص ٢٥٩ ، ٢٧٠ .

(٣٠) الاضافة من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى . (المترجم) .

(٣١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٤٧/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٢ .

(٣٢) ابن حوقل ، المسالك والممالك ، ٧٧/٢ .

(٣٣) بن حوقل ، نفس المرجع والجزء ، ص ٧٦-٧٧ .

(٣٤) نفس المؤلف والمرجع ، ص ٧٦ ، ٧٨ .

(٣٥) انظر كتاب حسداى الذى بعث به الى الخزر في :
Carmoly : Des Khozars au Xeme siecle, p. 37.

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٨-٢٤٧/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٣ ، انظر أيضا
ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٧٦/٢ ، والمقرئ : نفع الطيب ٣٦٦/١ ، ٣٧٣ .

(٣٧) المقرئ ، شرحه ، ٢٠٢/١ .

المسلمون في الأندلس ج ٢ - ٢٤١٠

Hroswitha : Passio, s. Pelagii.

(٢٨)

(٢٩) أضفنا هذا التاريخ في الترجمة العربية فقد وجدناه مكتوبا بالقلم الرصاص بخط الأستاذ تسبولد في هامش المرقى : نفح الطيب : ٢٤٤/١ . في النسخة الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة - (المترجم) .

(٤٠) فيما يتعلق بأعمال التنقيب في مدينة الزهراء ، راجع ما جاء في جريدة التيمس بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، تحت عنوان an arabic Pompeii أما عن صور ولوحات المكتشفات والدراسة الفنية فانظر عليها :

E. Wikishaw : Hispano-arabic Art at Medina-el-Zahra'a (Burlington Magazine, August 1911).

(٤١) راجع ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٦/٢-٧٧ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٤٦/٢-٢٤٧ ، وترجمته من : ٢٨١-٢٨٢ . والمرقى : نفح الطيب ، ٢٤٤/١-٢٤٦ ، ٢٧٠ ، وما بعدها ، وانظر ما كتبه ليفي بروفنسال في دائرة المعارف الاسلامية ، تحت كلمة « الزهراء » .

Vita Iohannis Gorziensis, c. 135.

(٤٢)

حواشي الفصل الخامس

- (١) المقرئ : نفع الطيب ٢٥٤/١ .
- (٢) راجع ابن خلدون في : Dozy : Recherches t. I, p. 98.
- (٣) Sampiro : Chronicon, c. 26.
- (٤) راجع ابن خلدون : العبر ، ١٤١/٤ .
- (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٠/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٨ .
- (٦) كان هذا القصر يعرف بدار الناعورة - المترجم .
- (٧) ورد في عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، ص ٤٥٨ باسم « خيزون » وقال انه قاضى قضاة أهل الذمة في قرطبة - (المترجم) .
- (٨) وردت هذه القصة بأكملها في ابن حيان وفي المقرئ : نفع الطيب ٢٥٦-٢٥٢/١ ، انظر أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ وترجمته ص : ٢٨٨ . وفي هذا المرجع ينبغي على القارئ أن يستبدل عام ٢٥١ هـ الوارد في صفحة ٢٥٠ بعام ٣٥٢ ، وذلك لأن حوادث سنة ٢٥٢ لم تبدأ الا من صفحة ٢٥١ ، سطر ١٩ ، راجع أيضا ابن خلدون العبر ، ١٤٥/٤ .
- (٩) ابن خلدون : العبر ١٤٥/٤ ، وكذلك : Dozy : Recherches, t. I, p. 98.
- (١٠) أما ابن خلدون فيسميه في نفس الجزء والصفحة بابن المغيث ، ويسميه المقرئ بابن الخيرزان .
- (١١) نعت ابن خلدون : العبر ، ١٤٥/٤ بالكاثوليكي ، ومنه نعرف أن القوم في قرطبة كانوا يسمون المطران بهذا الاسم الذي يطلق على القسيس النسطوري في الشرق ، راجع كتاب البلدان لأحمد بن يعقوب .
- (١٢) ويسميه ابن خلدون : العبر ١٤٥/٤ بعبد الله .
- (١٣) انظر ابن خلدون ، نفس المرجع والجزء والصفحة .
- (١٤) Sampiro : Chronicon, c. 27.
- (١٥) الواقع ان الخوف تسرب الى نفس شائجة من هذا العطف الكبير من جانب الخليفة الحكم على أردونيو الرابع ، وأترك أن ما تعهد به الحكم للملك النصراني لأبد وأن تكون له عواقبه الوخيمة عليه هو ذاته ، لذلك لم ير بدا من أن يفعل ما فعله أردونيو حتى يفسد عليه خطته أو على الأقل يكف خطر الحكم عن ناحيته ، لذلك يادر لارسال سفارة من قبله الى الحكم يجدد ما قطعه على نفسه لآبيه الناصر من تسليمه بعض القلاع ، انظر الحاشية التالية - المترجم .

(١٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ ، وابن خلدون :
العبر ، ١٤٥/٤ .

(١٧) مخطوط ميا ، ورقة رقم ١٥ ، Sampiro : op. cit., c. 26.

(١٨) راجع البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ .

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ ، وابن خلدون :
شرحه ١٤٥/٤ .

(٢٠) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٧/٢ ، وترجمته من ٣٩٨ . هذا
ويلاحظ أن الحملة التي زحفت على قلعة كانت بقيادة غالب بن عبد الرحمن وسعيد بن
الحكم الجعفرى وكانت سنة ٣٥٧ .

(٢١) Sampiro : op. cit., c. 27.

(٢٢) كان من بين ما قام به الكونت يوريل للتدليل على حسن نيته تجاه الخليفة انه
بعث مع سفارة من رجاله ثلاثين من أسرى المسلمين كانوا لديه - (المترجم) .

(٢٣) ابن خلدون : وعبر ، ١٤٦/٤ .

(٢٤) Sampiro : Op. Cit., 27. وقد مات شاذي حوالى نهاية سنة ٩٦٦م
(= ٢٥٥هـ) انظر فى ذلك : Risco : Historia de Leon, t. I, p. 212.

(٢٥) Chron. du Moine de Silos, c. 70.

(٢٦) راجع خبر هذه الحملة من Dozy : op. cit., II, p. 286-299.

(٢٧) Sampiro : op. cit., c. 28.

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٥/٢ ، وترجمته من : ٢٩٥ .

(٢٩) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، من ١٠١-١٠٢ ، والمقرئ : نفح الطيب
٢٥٦/١ ، أما فيما يتعلق بابن الفرج الأصفهاني فانظر ما كتبه عنه بروكلمان فى الدائرة
والمراجع المذكورة هناك .

(٣٠) راجع طبقات الأمم لصاعد الطليطلى ، من ٦٥-٦٦ .

(٣١) ابن خلدون فى المقدمة .

(٣٢) راجع البيان المغرب ٢٩٦/٢ ، وترجمته من : ٢٩٧ .

(٣٣) نفح الطيب ، ١٣٦/١ .

(٣٤) فيما يتعلق بهذا المحدث المعروف أيضا باسم ابن الأحمر والمتوفى سنة ٢٥٨هـ
(= ٩٦٨م) راجع ما كتبه الضبى فى بغية الملتصق ، رقم ٢٧١ ، من ١١٦-١١٨ ، وابن
الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ، رقم ١٢٨٧ ، من ٣٦٢-٣٦٤ ، وابن عذارى : البيان
المغرب ٢٧٤/٢ وترجمته ، من ٤٢٩ حاشية رقم ٥ .

- (٢٥) فيما يتعلق بأبي علي القالي راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب في الدائرة .
- (٢٦) فيما يتعلق بابن القوطية راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب في الدائرة .
- (٢٧) المقرئ : نفح الطيب ، ٢/٢٤٦ .
- (٢٨) يعني بذلك المنصور بن أبي عامر .

حواشي الفصل السادس

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٧٤ ، وترجمته ص ٤٢٦ .
- (٢) يقصد بالاسفنج : التين - (المترجم) .
- (٣) فيما يتعلق بهذه القصة راجع ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط جيانجوس) ورقة ١١٧ ب ، وعبد الواحد المراكشي : المعجب : ص ١٨ ، ١٩ وترجمته ص ٢٢-٢٣ .
وذلك نقلا عن الحميدى فى كتابه الأمانى الصادقة .
- (٤) سيرى القارىء حين مراجعته النسخة الفرنسية اختلافا بسيطا اقتضاه الوضع الفرنسى ، وقد أثرتنا فى هذه الترجمة العربية إيراد النص كما هو مذكور فى المصادر العربية (المترجم)
- (٥) ذلك هو القاضى محمد بن بشير بن شراحيل المعافى ، راجع عنه على وجه الخصوص الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٥١ وما بعدها .
- (٦) هو محمد بن اسحق بن السليم الذى أصبح قاضى قرطبة عام ٢٥٦هـ (= ٩٦٧م) ،
كما فيما يتعلق به فراجع الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٢٠٧ .
- (٧) أورد هذه القصة أيضا عبد الواحد المراكشي فى كتابه المعجب ، ص ١٨ ، وترجمته ص ٢١-٢٢ ، نقلا عن الحميدى حين كلامه عن ابن حزم ، أما مضيف ابن أبى عامر لحاسمه : أبو عبد الله محمد بن اسحق التميمي .
- (٨) راجع ابن عبد الملك المراكشي (مخطوط باريس ، رقم ٦٨٢) ، ملحق عربى ورقة ١٠١ .
- (٩) وردت بشأنه كلمة موجزة فى المقرئ : نفح الطيب ، ١/٩٠٤ ، راجع أيضا ابن الأبار : تكملة الصلة ، رقم ١٢٥١ ، ص ٤٣٧-٤٣٨ .
- (١٠) فيما يتعلق بهذا الشخص راجع ما ورد عنه فى طبقات الأمم لصاعد الأندلسي (طبعة لويس شيخو) ص : ٧٨ ، وابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (طبعة بولاق) ، ١٢٩٩ هـ ، ٤٣/٢ ، كذلك الضبى : بنية الملتمس ، رقم ١٦٤٠ ، ص : ٤٨٣ ، والمقرئ : نفح الطيب ١١٩/٢ .
- (١١) راجع ابن عذارى : البيان ، ٢/٢٧٢-٢٧٤ ، وترجمته ص : ٤٢٤-٤٢٦ ، وعبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص : ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، وترجمته ص ٢١ ، ٢٢ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٤٨-١٥٢ ، وهذه هى سلسلة نسبه الكامل : أبو عامر محمد بن أبى حفص عبد الله (وأمه بريهة) بن محمد (وابن بنت يحيى الحاجب) بن عبد الله بن عامر (نديم السلطان) بن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

(١٢) راجع أبيات محمد بن حسين التبنى الواردة في ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٧٢ ، وترجمته ص ٤٢٥ .

(١٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة ، ٢٧٤ ، وترجمته ص : ٤٢٦ .

(١٤) راجع ابن الأبار الحلة السيرة ، ص ١٥٢ .

(١٥) المقرئ : نفع الطيب ، ٢٥٩/١ .

(١٦) الخشتي : تاريخ قضاة قرطبة ، ص ٢٠٧ .

(١٧) البيان المغرب ، ٢/٢٥١ ، وترجمته ص : ٢٨٩ .

(١٨) في الترجمة الانجليزية ، ٢٢ فبراير . (المترجم) .

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٧-٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٥ . وكذلك يوجد اسم « عامر » منقوشا على سكة ذلك العهد .

(٢٠) قارن ذلك بما جاء في المقرئ : نفع الطيب ، ٢/٢٥١ .

(٢١) المقرئ : نفع الطيب ، ٢/٦١ .

(٢٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٦-٤١٧ ، وكذلك المقرئ : نفع الطيب ٢/٦١ .

(٢٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة ، وترجمته ص ٤١٧ .

(٢٤) ابن عذارى : شرحه ، ص ٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤١٧ .

(٢٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٥-٤١٦ .

(٢٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ١٦٠ ، ١٧٠ ، وترجمته ، ص ٢٠٤ ، ٢١٩ .

(٢٧) نفس المرجع والجزء ، ص ٢٧٥ ، وترجمته ص : ٤٢٩ .

(٢٨) واسمه الكامل هو : محمد بن قاسم بن طملس ، ويتضح من البيان المغرب ضبط اللفظ الأخير ، أما القاموس فقد ضبطه بفتح الطاء والميم وتشديد اللام المفتوحة ، وقد جراه في هذا الضبط مترجم البيان - (المترجم) .

(٢٩) أما عن هذه الناحية التي ترسها البكري ، ص ٤٦ ، فيمكن مراجعة البيان المغرب ، ٢/٤٠٦ ، حاشية رقم ١ .

(٣٠) كانت هزيمة بن طملس في ناحية تعرف بفحص مهران . - (المترجم) .

(٣١) أسس هذا الحصن جماعة من الإدارة عام ٢١٧هـ (= ٩٢٩ م) . أما فيما يتعلق بحجر النسر وتأسيسه فيمكن مراجعة ما كتبه ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٢/٥٦ ، وكذلك الإدريسي ، Description de l'Afrique, p. 203 ، وكذلك البكري في Description, pp. 250-257 وانظر ابن خلدون . العبر ، الجزء الأول ، في الملحق .

(٣٢) ترجمها دوزى فى الفرنسية بصخرة النسور Roche des Aigles وتبعه فى ذلك ستوك فى الترجمة الانجليزية فجعلها The Eagles' Roch - (المترجم)

(٣٣) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع بن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٠/٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤٠٤-٤١١ ، ٤١٧-٤١٨ ، وابن أبى ذرع : روض القرطاس ، ص ٥٨-٥٩ ، وابن خلدون : العبر ١٤٩/٢ - ١٥٠ ، ٢١٥/٢ - ٢١٦ من ترجمته .

(٣٤) البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ - ٢٦٧ ، وترجمته ص ٤١١-٤٢٩ .

(٣٥) البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ ، وترجمته ص ٤١١ .

(٣٦) البيان المغرب ، ٢٦٩/٢ - ٢٧٦ ، وترجمته ص : ٤١٨-٤٢٩ .

(٣٧) ابن أبى ذرع : روض القرطاس ، ص ٥٨ ، وابن خلدون : العبر ، ١٥٢/٢ من الترجمة .

(٣٨) راجع بن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ ، وترجمته ص ٤١٢ ، وابن خلدون : العبر ١٥١/٢ - ١٥٢ ، ٢١٦/٢ .

(٣٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ ، وترجمته ص ٤١١ ، وقارن ذلك بما جاء فى ابن خلدون : العبر ، ٢١٦/٢ .

(٤٠) وردت كلمة « الاحوس » فى الترجمة الانجليزية . - (المترجم)

(٤١) البيان المغرب ، ٢٦٦/٢ ، وترجمته ص : ٤١٣ .

(٤٢) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، وترجمته ص ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٤٣) المقرئ : نفع الطيب ، ٥٩/٢ .

(٤٤) يسميه ابن عذارى بالجعفرى ، اما « جعفر فاسم أطلقه الحكم على « صبيح » - انظر فى ذلك البيان المغرب ، ٢٦٩/٢ ، وترجمته ص : ٤١٨ ، ولهذا السبب سعى هذا العبد الطليق بالجعفرى ، او « الجعيفرى » ، هذا ويلاحظ ان الخلفاء - فى بغداد - كانوا يحبون ان يطلقوا اسماء الرجال على نسائهم .

(٤٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ - ٢٦٦ ، وترجمته ص ٤١٢ .

(٤٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٤٩ ، وترجمته ص : ٢٨٥ ، ويلاحظ انه فى صفحة ٢٦٩ من الاصل العربى من البيان (ص ٤١٨ من الترجمة) وردت كلمة « رمضان ، بدلا من صفر ، وهذا خطأ .

(٤٧) البيان. المغرب ، ٢٦٨/٢ ، وترجمته ص : ٤١٦ .

حواشي الفصل السابع

- (١) ويعرف في المراجع العربية بالنظامي .
- (٢) هذا النص الذي أورده المؤلف مأخوذ من البيان المغرب ٢٧٦/٢ - ٢٧٧ - (الترجم)
- (٣) راجع فيما يتعلق بترجمته ما كتبه دوزي في كتابه :
Notices sur quelques manuscrits arabes, 1851, p. 141-147.
- والمراجع الواردة في الحواشي هناك . (المترجم)
- (٤) تفسيراً وتأكيذاً لما أورده دوزي في المتن أعلاه تنقل ما جاء في ابن عذارى ،
شرح ٢٧٧/٢ : « وقد عزمنا على رد الأمر للمغير بن الناصر أخى مولاهما الحكم خشية من
إيثاره على ابنه هشام لصغر سنه وإنكار الناس لتقديمه ، على أن يقر ابن أخيه
هشاماً على العهد بعده ، فيمنان على المغيرة بسوق الخلافة إليه وبقياً لمولاهما بارتقاب
كبر ولده ، ويكون الملك في أيديهما بخاله » . (المترجم)
- (٥) ليس هناك من المراجع ما يشيّر إلى أخوة الدم بين فائق وجوذر ، لكن جرت العادة
بإطلاق هذا اللفظ على الخصيان ، انظر عبارة ابن الخطيب الواردة في :
Dozy : Recherches, I, p. 37.
- وانظر أيضاً الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ، ٤٢٢/٢ ، حاشية رقم ١
- (٦) هذا ما جاء في ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٧/٢ حيث أشار إلى أنه قال :
« هل أنا لا تتبع لكما وأنتما صاحباً القصر ومديراً الأمر ؟ » والظاهر أن جل اعتماد دوزي
كان على ابن عذارى وحده في هذه الناحية ،
- (٧) في الأصل الفرنسي « وابن أخته » ، ولكن ابن الأبار في الحلة السيواء ،
ص ١٤٢ يذكر أنه « أخوه » .
- (٨) ابن الأبار : نفس المرجع ، ص ١٤٨ - ١٥٣ .
- (٩) نفس المؤلف والمراجع ، ص : ١٥٤ - ١٥٥ .
- (١٠) هذه العبارة كلها مأخوذة من ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٩/٢ ، ويلاحظ
أن دوزي قد أورد هذه العبارة في شكل خطابي على لسان المغيرة ، وكذلك فعلت الترجمة
الانجليزية ، أما المقرئ : نفح الطيب ، ٦٠٩٢ فنراه لم يورد في هذا الصدد سوى هذه
الجملة « أنا سامع مطيع !! » - (المترجم)
- (١١) إضافة إلى ما يقوله دوزي في المتن وتأكيذاً لهذا المعنى نسوق ما ذكره المقرئ
في نفح الطيب ، ٢٧٩/٢ ، في هذا الصدد حيث قال في شأن جوذر وفائق أنهما « أنكفاً
إلى جعفر فإظهرا له السلامة والاستبشا بما آتاه الله ، والاعتذار مما رآياه ، وقالاه :
إن الجزع أذهلنا عما أرشدك الله إليه فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً ، وعن دولتنا
وعن المسلمين » ، فإظهر لهما بعض القبول » - (المترجم)

(١٢) كل ما سبق وارد بالتفصيل في البيان المغرب ، ٢٧٦/٢ - ٢٧٩ ، وترجمته
ص ٤٢٠ - ٤٢٥ ، وراجع أيضا القرى : نفح الطيب ٥٩/٢ - ٦٠ .

(١٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٠/٢ - ٢٨٠ ، وترجمته ص : ٤١٩ - ٤٢٠ ،
وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٤١ .

(١٤) القرى : نفح الطيب ، ٦٠/٢ .

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٥/٢ - ٢٧٦ ، وترجمته ص ٤٢٩ .

(١٦) المقصود بذلك المصحف وابن أبي عامر - (المترجم) .

(١٧) المرجع الوحيد في كل ما يتعلق بهذه الحوادث هو ابن عذارى البيان المغرب ،
٢٨٠/٢ - ٢٨١ ، وترجمته ص : ٤٢٥ - ٤٢٨ .

(١٨) نزيد على ما قاله المؤلف في المتن أن الفرقة استولت على الأندلسيين واستبدت
بهم إذ أحسوا أنهم تخلصوا من الصقلية وشروع ، واطمأنت نفوس القوم فقد زالت
دولتهم ، ولم يكتفوا ذلك في أحاديثهم وظهر على السنة شعرائهم حتى ليقول أحدهم :

أخرج من قصر أمير الهبدي كل فتى متبسـط حـائـر
غمن رأينا منهمو قال : لا مـسـاس قبل الناس بالشساكر
فخف ظهور المسلك المرتضى إذ خف من ثقلهم الظاهر .

والقول في ذلك كثير ، والشعر جم ، والفرقة عامة - (المترجم) .

(١٩) نزيد على ما قاله المؤلف ابن الأبار من أنه « لما انتفض العدو على أثر
ذلك وخيف الاضطراب ولم يكن عند المصحف غنى ولا دفاع ضمن محمد بن أبي عامر
لصبح أم هشام سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها ، على أن يهد بالمال ويميل
إليه قواده » ، انظر الحلة السيرة ، ص ١٤٨ - (المترجم) .

(٢٠) يسمى المؤرخون العرب هذه القلعة باسم حصن الحامة ، وهي من أرض
جليقية ، وهذه الكلمة ترجمة حرفية لكلمة Balneos كما هو مذكور في : Sarnpiro
Chronic. c. 23. أما اليوم فتعرف هذه القلعة باسم : Los Banos أما فيما يتعلق
بحملة ابن أبي عامر فراجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٨٢/٢ ، وترجمته ص : ٤٣٩ .

(٢١) ومن شعره الذي يفخر فيه بنفسه ومخاطراته قوله :

رميت بنفسي حول كل كريهـة وخاطرت ، والحر الكريم مضاطر
وما صاحبي الا جنسان مشيع وأسر خطى وأبيض باتر
وانى لزجساء الجيوش الى الوغى أسود تلاقيها أسود خواد
ومن شيمي أنى على كل طـالب . أجود يمسا لا تتقيسه المعاذير

راجع البيان المغرب ، ٢٩٢/٢ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٢ . وقد
جاء في هذا المرجع الأخير قوله :

الم ترني بعثت الاقامة بالسي
تبدلت بعد الزعفران وطيبه
اروني فتى يحمي حمى وموقى
انا الحاجب المنصور من آل عامر
تلاذ أمير المؤمنين وعبيده
فلا تحسبوا اني شفت بغيركم

ولين الحشايا بالخيل الضواهر
صدا الدرع من مستحكات المسامر
اذا اشيتجر الاقران بين العساكر
يسبقني اقد الهسام تحت المعافر
وناصحه المشهود يوم الفاخر
ولكن عهدت الله في قتل كافر

(٢٢) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٨١/٢-٢٨٢ ، وترجمته ص : ٤٣٧-٤٣٩ ،
والقرى : نفح الطيب ، ٦٠/٢-٦٩-٦٠

حواشي الفصل الثامن

(١) ذكر ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٤٢-١٤٧ ، جملة من أشعاره فراجعها هناك .

(٢) ابن الأبار : نفس المرجع ، ١٤٢-١٤١ ، وابن عذاري : البيان المهيّب ، ٢٧١ ، ٢٢١/٢ ، وترجمته ص : ٣٥٦ ، ٤٢٠ ، وهناك كثير من المراجع عن المصحف ، أما اسمه الكامل فأبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر القيسي ، ويمكن للقارئ الرجوع الى ما ذكره الضبي عنه في بغية الملتبس ، رقم ٦١٤ ، ص ٢٤٠ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ٦٠/٢ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيرة : ص ١٤٢ .

(٥) المقرئ : نفح الطيب ، ٦٠/٢ .

(٦) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصحة .

(٧) شرحه : ص ٦٦ .

(٨) راجع ابن خلكان ، ترجمة دى سليمان ، ١٣٠/٢ .

(٩) لم يعد لهذه الناحية وجود اليوم ، راجع البيان المغرب ، ٤١٠/٢ ، حاشية رقم ١ .

(١٠) لم يشر دوزي الى المصدر الذي رجع اليه ، ولكننا نقلناه من ابن عذاري : البيان المغرب ٢٨٣/٢ ، ويلاحظ أن المقرئ : نفح الطيب ٦٢-٦١/٢ يوجز في هذه الناحية ايجازا شديدا - (المترجم) .

(١١) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٤٢ ، وقارنها بما جاء في ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٨٤/٢ ، وترجمته ص : ٤٤٢ .

(١٢) انظر ابن عذاري : نفس المرجع والجزء ، ص : ٢٩٠ ، وترجمته ص : ٤٥١ .

(١٣) وذلك شريكا لأبي جعفر المصحف - (المترجم) .

(١٤) انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص : ١٤٢ .

(١٥) لم ينفرد ابن عذاري وحده بذكر هذا التاريخ بل ذكره أيضا النويري (طبعة- واميرو جاسبرو) ، ص ٢١٨ .

(١٦) راجع في كل ما سلف ابن عذاري : المرجع السابق ٢٨٥-٢٨٢/٢ ، وترجمته ص ٤٤٤-٤٢٩ ، والمقرئ : نفح الطيب ، ٦١/٢ ، ٦٢ .

(١٧) ابن عذارى : شرحه ٢/٢٨٨ ، وترجمته من ٤٤٨-٤٤٩ ، والمقرئ : نفح الطيب ، ٣٩٥/١ .

(١٨) ابن عذارى : المرجع السابق ، ٢/٢٨٥ ، وترجمته من ٤٤٤ ، والمقرئ : نفح الطيب ٢/٦٢ ، أما فيما يتعلق بهشام فراجع : Dozy : Recherches, t. II p. 237.

(١٩) فيما يتعلق بوصف هذا القصر وأحداث هذه الفترة راجع ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١/٢٠٠-٢٠١ (تحقيق د/شوقي ضيف) دار المعارف القاهرة ١٩٦٤ - (المترجم) .

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٨٥ ، وترجمته من : ٤٤٤ ، ونفح الطيب ٢/٦٢ .

(٢١) وردت هذه الأبيات في الفتح ، ص ٧ ، والبيان المغرب ٢/٢٩١ وترجمته من ٤٥٢ ، والحلة السيرة ص ١٤٧ ، ونفح الطيب ١/٢٧٥ .

(٢٢) وردت هذه الأبيات بصورة أطول من هذه في النخبة لابن بسام ، ق ٤ ، المجلد الأول ، القاهرة ، ص ٥١١ .

(٢٣) وذلك في قوله تعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها » أو ردوها ، سورة النساء ، آية ٨٦ - (المترجم) .

(٢٤) البيان المغرب ، ٢/٢٨٦ ، ٢٩١ ، وترجمته من : ٤٤٥-٤٤٧ ، ٤٥٢ ، والمقرئ : نفح الطيب ٢٧٥-٢٧٦ .

(٢٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٨٩ ، وترجمته من ٤٥٠ .

(٢٦) مما كتبه الى المنصور بن ابي عامر قوله :-

هبنى أسأت العفو والكرم إذ قادتني نحوك الازعان والندم ؟
يا خير من مدت الأيدي اليه أما ترى لشيوخ تعاء عندك القلم
بالغت في المسخط فاصفح صفح مقتدر ولو تشفع فيك العرب والعجم
على أن ذلك لم يرقق عليه قلب المنصور الذي رد عليه ردا غليظا بقصيدة على الروى
نفسه ختمها بقوله :

نفسى اذا سخطت ليست برأئيتية ولو تشفع فيك العرب والعجم
وهذا البيت وغيره مما يوضح ما انطوت عليه نفسه من حقد كرهه كان أولى به أن
ينزه نفسه عنه لاسيما وقد بلغ من النفوذ والقوة والتمكن ما بلغ - (المترجم) .

(٢٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٨٦ ، وترجمته من : ٤٤٥ ، والمقرئ : نفح الطيب ١/٢٩٦ .

(٢٨) البيان المغرب ، ٢/٢٨٨ ، وترجمته من ٤٤٩ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ص : ١٤٢ ، والنويرى : ص ٢١٨ .

(٢٩) 'المقصود بذلك كاتب المنصور بن ابي عامر - (المترجم) .

(٣٠) البيان المغرب ، ٢/٢٨٨ - ٢٨٩ ، وترجمته من : ٤٤٩-٤٥٠ .

حواشى الفصل التاسع

- (١) راجع النويرى ، ص ٢١٩ .
- (٢) يقصد بذلك غالبا والد أسماء زوجة المنصور بن أبى عامر - (المترجم) .
- (٣) ابن حزم : طرق الحمامة ، طبعة بترول ، ص ٢٥ .
- (٤) لقد اضرينا عن ذكر البيت الذى يلى هذا رغم أن المقرئ : نفح الطيب ٣٩٦/١ .
أورده وذلك لا يغاله فى الفجش مما ينبو عنه السمع ويكره اللسان النطق به - (المترجم) .
- (٥) هو أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، راجع عنه ابن.
بشكوال : كتاب الصلة : رقم ١٢٧٦ ، ص ٦١٢ ، ٦١٤ ، والضبطى بغية الملتبس رقم ١٤٥١ .
ص ٤٧٨-٤٨١ ، والفتح : المطمح (طبعة القاهرة) ١٢٢٥ ، ص ٧٨-٨٣ ، وعبد الواحد
المراكشى : كتاب المعجب (الترجمة) ص ١٨ ، حاشية رقم ١ ، والشعالى : بقيمة الدهر
(طبعة دمشق ١٣٠٤ هـ) ٢٦٥/١ ، والمقرئ : نفح الطيب ٤٤٠/٢ ، وكذلك فهرسته .
- (٦) قارن ما جاء فى عبد الواحد المراكشى : ص ١٧ ، وترجمته ص ٢٠ بشمسعر
الرمادى الوارد فى الحاشية التالية .
- (٧) انظر الشعر الوارد فى المقرئ نفح الطيب ٤٤٢/٢ - (المترجم) .
- (٨) سورة المائدة ، آية رقم ٥ .
- (٩) راجع ابن الأبار : الحلة الصبراء ، ص ١٥٤-١٥٥ ، وابن حزم : طرق الحمامة ،
ص ٤١-٤٢ ، وانظر كذلك المقرئ : نفح الطيب ، ٢٨٦/١ .
- (١٠) راجع المراكشى : المعجب ، ص ١٧ ، وترجمته ص : ٢٠-٢١ ، الا أنه ظهر
أن الرمادى قد عفا عنه فيما بعد ، لأننا نجده مذكورا بين الشعراء الذين صحبوا ابن
أبى عامر فى حملته التى شنّها على برشلونة سنة ٩٨٦م ، انظر ابن الخطيب : الاحاطة
(طبعة القاهرة) ٧١/٢ .
- (١١) هو أبو محمد بن عبد الله بن ابراهيم الاموى الأصيلى (نسبة الى قبيلة أصيللة
Arcila بمراكش) وكان محدثا بارزا وفقهيا معروفا ، ومات سنة ٢٩٢ ، راجع
الضبطى : بغية الملتبس ، رقم ٩٠٦ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ،
رقم ٧٥٨ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(١٢) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرطقة بن نكوان آخر قضاة الجماعة بقرطبة في عهد الدولة الأموية ، وقد ولد سنة ٢٤٢ هـ ، هذا وقد وردت الإشارة إليه في ابن بشكوال : كتاب الصلة (نقلا عن ابن حيان) رقم ٦٢ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ - (المترجم) .

(١٣) هو أبو بكر بن الحسن الزيبيدئ النحوي الأندلسي الشهير ، مات في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، راجع الضبي : بغية الملتص ، رقم ٨٠ ، ص ٥٦-٥٧ ، وابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣٥٥ ، ص ٢٨٢ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٨٢/٢ ، والفتح : المطمح ، ص ٦١-٦٢ ، راجع أيضا الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ٤٨٨/٢ ، حاشية رقم ٢ - (المترجم) .

(١٤) راجع صاعد الطليطلي : كتاب طبقات الأمم (طبعة شيخو) ص : ٦٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢١٥/٢ ، وترجمته ص : ٤٨٧-٤٨٨ ، والمقرئ : نفح الطيب ١٣٦/١ .

(١٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢١٥/٢ ، وترجمته ص ٤٨٧ ، وقارن ذلك بالأسطر الثلاثة الأخيرة الواردة في المكتبة العربية الصقلية (جمع أماري) .
Amari : Biblioteca Arabo-Sicula, p. 674.

(١٦) انظر على سبيل المثال ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥١-١٥٢ .

(١٧) راجع المقرئ : نفح الطيب ٢٦٦/١ .

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٠٩/٢-٢١٠ ، وترجمته ص ٤٨٠ ، والمقرئ : شرحه ، نفس الجزء والصفحة .

(١٩) المقرئ : نفس المرجع ٥١/٢ .

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٧٠/٢ ، وترجمته ص ٤١٩ .

(٢١) وكان ذلك في سنة ٣٦٨ كما ذكر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨١ .

(٢٢) فيما يتعلق بالزاهرة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٩٤/٢-٢٩٥ ، وترجمته ص ٤٥٧-٤٥٨ ، والمقرئ : نفح الطيب ، ٢٨٠/١ ، ومقال ليفي برونسفال في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « مدينة الزاهرة » .

(٢٣) راجع البيان المغرب ، ٢٩٦/٢-٢٩٨ ، وترجمته ص : ٤٥٩-٤٦٠ .

(٢٤) البيان المغرب ، ٢٩٦/٢-٢٨٩ ، وترجمته ص ٤٥٩-٤٦٠ .

(٢٥) Dozy : Recherches, t. I, p. 81-83.

(٢٦) انظر ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٧٨ .

(٢٧) راجع ابن خلدون : العبر ٥٥٦/٢ ، ٢٢٧/٢ .

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٠/١ ، ٢٢٧/٢ .

(٢٩) فيما يتعلق ببلجين وأسرته راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٨/٢ وما بعدها ،

وترجمته ص ٢٩٩ وما يليها ، وابن خلدون : العبر (الترجمة) ٥٥٢/٢ وما بعدها .

(٣٠) راجع ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ص ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٢١٦ ، وترجمته

ص ٤٤٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩٠ .

- (٣١) راجع المقرئ : نفس المرجع ص ٢٧٣ ، السطر الاول .
- (٣٢) المقرئ : نفس المرجع ١ / ٢٧٢ .
- (٣٣) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصفحة ، وانظر أيضا :
Dozy : Recherche , t. I, append, p. xxx.
- (٣٤) المقرئ : شرحه ، ١٨٦/١ .
- (٣٥) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٠٣ .
- (٣٦) راجع المقرئ : نفح الطيب ١٤/٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٩/٢ ، وترجمته ص : ٤٦٤ ، وابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٦١ ، وراجع أيضا ابن الأبار في :
Dozy : Recherches, t. I, append, p. xxx.
- أما فيما يتعلق بالتاريخ فراجع نفس المرجع ، ١٧٦/١ ، وكذلك :
Codera : Boletín de la Roy. Acad. de Historia, t. XXXII, p. 101.
- (٣٧) الثابت أنه مات يوم ٤ من المحرم سنة ٢٧١ هـ .
- (٣٨) هذه الكلمة تعريب لكلمتي Pierre Sécha وأما اسمه الكامل فهو أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضي ، أما نعتة بالبطركشك فالأرجح أن ذلك نسبة إلى بخله ، وإن قال ابن الأبار « البطركشك : ومعناه الحجر اليابس » ، انظر أيضا :
Dozy : Recherche , t. I, p. 173-181.
- (٣٩) ويعرف باسم « شانجة بن غرسية » أو « شانجة أباركة » Sancho Abarka - (المترجم) .
- (٤٠) وتقع « رومة » هذه Rueda أو « روضة » في مقاطعة بلد الوليد .
- (٤١) Cf. Chronic. du Moine de Silos, c. 71 ; Dozy : op. cit., I, p. 180-181.
- (٤٢) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٩/٢-٣٠٠ ، وترجمته ص : ٤٦٥ .
- (٤٣) راجع المقرئ : نفح الطيب ١ / ٢٥٨ .
- (٤٤) العبر لابن خلدون ١٥٢/٢ ، ٥٥٤ ، ٢١٦/٣ .
- (٤٥) انظر ابن عذارى : البيان المغرب : ٣٠١-٣٠٠/٢ ، وترجمته ص : ٤٦٦-٤٦٧ ، راجع أيضا المقرئ : نفح الطيب ، ٢٦٠/١ .

حواشي الفصل العاشر

- (١) راجع ابن خلدون في الطبعة الثالثة من :
Dozy : Recherches, t. II, pp. 99 et 174.
- (٢) Sampiro : Chroni. c. 29; Chronicon Iriense, c. 12.
- (٣) Dozy : op. cit., I. 179-180.
- (٤) ابن خلدون في Dozy : op. cit., I, p. 99.
- (٥) Dozy : op. cit., I, p. 180.
- (٦) Dozy : op. cit., t. I, p. 99.
- (٧) Chronicon Iriense, c. 12. وابن خلدون في دوزي ، المرجع السابق (١/١٠٠).
- (٨) ابن خلدون في دوزي ، المرجع السابق ، ١١٤-١١٥ .
- (٩) يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت لذي الحجة سنة ٢٧٤ وهو الخامس من
حاية ، راجع ابن أبي الفياض في ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٢٥٢ ، وكان يوم
٥ مايو من سنة ٩٨٥ م يطابق يوم الثلاثاء .
- (١٠) يذكر ابن الخطيب في مقاله عن المنصور في الاحاطة (طبعة القاهرة ،
٧١/٢ ، ٧٢) قائمة بأسماء هؤلاء الشعراء الذين اصطحبهم المنصور معه - (المترجم) .
- (١١) أخذ بنو الخطاب منذ زمن ابن الأبار - اعني في القرن الثالث عشر الميلادي -
يزعمون أنهم عرب ، غير أن أسلافهم من أهل القرن العاشر لم يفكروا أبدا في الانتساب
إلى هذا الأصل .
- (١٢) يقول ابن أبي الفياض ، ان ذلك كان لمدة - ثلاثة وعشرين يوما ، غير أننا
اتبعنا ما نكره ابن حيان .
- (١٣) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٢٥١-٢٥٢ .
- (١٤) ابن الخطيب : الاحاطة ٧١/٢ .
- (١٥) سقطت يروشلمة - كما جاء في ابن الخطيب : الاحاطة ، ٧١/٢ - يوم الاثنين
منتصف صفر سنة ٢٧٥ ، وهو يوافق يوم ٦ يوليو ٩٨٥ م ، ولا تدع الوثائق العربية
مجالا للشك في تحديد سنة سقوط يروشلمة ، وهي تتفق تماما مع الوثائق اللاتينية التي
أوردتها العالم « بوفارول » الذي يذهب إلى أن سقوطها جاء بعد سنة من ذلك التاريخ ،
ولم يلاحظ بوفارول أن رأيه يناقض الوثيقة التي اعتمد عليها ، كما أن عبارة Kalendarum
Juli feria quarta الواردة في وثيقتين تشير إلى أن بدء الحصار مطابق تمام المطابقة
لسنة ٩٨٥ ، وليس للسنة التالية له .

Bufarull : Les Condes de Barcelona, t. I, pp. 163-164. (١٦)

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٢٥١ ، كما أن المنصور قام بعدة حملات ضد كونت قشتالة وملك نقارة ، وهي حملات لا توجد لدينا التفاصيل الكافية عنها .

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٤٨ ، وترجمته ص ٣٥٠ ، كما نرى عدم اتفاق كل من ابن الأثير : الكامل ج ٩ - ص ٢٤٠ ، Annales, p. 394. وابن خلدون : العبر ١٢/٢ ، ٢٥٩/٣ .

(١٩) راجع ما جاء عنه في هذا الجزء من الترجمة العربية . - (المترجم) .

(٢٠) يقصد المؤلف بذلك العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله - (المترجم) .

(٢١) يلاحظ أن المؤرخين الذين يقولون بأن المنصور أرسل أيضا إلى أفريقية جيشا بقيادة ابنه عبد الملك المظفر إنما يخلطون بين هذه الحملة وبين حملة أخرى بقيادة زيري سوف نتكلم عنها فيما بعد ، ذلك أنه في الوقت الذي نحن بصدد لم يكن عبد الملك يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، راجع النويري Histoire d'Espagne. p. 221. أما اسم عسقلجة الحقيقي فهو عبد الله بن عمرو .

(٢٢) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ٥٨-٥٩ ، وأين خلدون : العبر ٢/١٥٢ ، ٢/٢١٩ ، ٢٧٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب : ٢/٢٠٢ ، وترجمته ، ص ٤٦٧-٤٦٨ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٢٥٤ .

المنصور كان رجلا شديد الاستقامة .

(٢٤) وردت هذه الأبيات بأكملها في ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٣٠١-٣٠٢ ، وترجمته ص ٤٦٨ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١١٩ ، والمقرئ : نفع الطيب ، ٢٨٩/١ .

(٢٥) راجع المقرئ ، شرحه ١/٢٥٩-٣٦٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢/٣٠٧ ، وترجمته ، ص ٤٧٧ وما بعدها .

(٢٦) راجع ابن خلدون ، في Dozy : Recherches, I, p. 100.

(٢٧) Chronicon Conimbricense (Esp. Sagrada, t. XXIII) pts. I et IV.

(٢٨) انظر وثيقة الأب فلورا في : Espagna Sagrada, t. XXXVI, no. 14.

وكذلك ما أوردته ريسكو في Histoire de Leon, t. I, p. 228.

(٢٩) Dozy : Recherches, t. I, p. 100.

(٣٠) هذه التفاصيل واردة في Lucas de Tuy أما فيما يتعلق بتاريخ هذا القائد واسمه فراجع : Dozy : Recherches, t. I, pp. 181-184.

= وانظر كذلك القصة التي أودعها ابن الأثير في الكامل ٢٤/٩ ، وترجمته في :
Annales, p. 393.

(٣١) انظر الوثائق الأثينية الواردة في :
Risco : Historia de Leon, p. 228 ; Espagna Sagrada, t. XXXIV p. 308.

(٣٢) راجع ابن خلدون في : Dozy : Op. Cit., p. 100.

(٣٣) Dozy : op. cit., t. I, p. 224 et suiv.

(٣٤) يقصد المؤلف بالتوسط هنا ما يعرف بالحضرة ، وبالشمال الثغر - (المترجم) .

(٣٥) 311. p. XXIII, (Esp. Sàgr.), Annales Complutenses أما التاريخ

الوارد في : Annales Foldanes, 383. فهو تاريخ منلوط .

(٣٦) في كل ما يتعلق بهذه الأحداث وما يليها راجع على الأخص ابن عذاري :
البيان المغرب ٢/٢٠٢-٢٠٦ ، وترجمته من : ٤٧٢-٤٧٥ ، وكذلك ابن الأبار في الحلة
السيراء .

(٣٧) Dozy : op. cit., (1 ere. ed.), t. I, p. 24-27.

(٣٨) راجع عبد الواحد المراكشي : المعجب : من ٢٤-٢٥ ، وترجمته من ٢٠ ،
وأبا الفداء : ٥٢٤/٢ ، والمقرئ نفع الطيب ٥٧/٢ ، والضبي : بغية الملتنس . من ٢١٠ ،
وابن الأثير : الكامل : ٧٩/٩ ، وترجمته : Annales, pp. 400-401. أما فيما
يتعلق بموت غرسية فراجع ابن خلدون في : Dozy, Recherches t. I, p. 106.

وانظر أيضا في كل ذلك ما أوردته المصادر التالية :

Chronicon Burgense (Espagna Sargada, t. XXIII, p. 309); Annales Com-
pul., p. 313; Annales Compost., p. 320, Ann., Toledo, p. 384.

أما الحوليات المسماة Kal. Ianuarii فيجب أن نقرأ كلمة Iunii بدلا من "Ianuarii"

(٣٩) المتأمر الآخر الذي يقصده المؤلف هو عبد الله البطرشك - (المترجم) .

(٤٠) راجع الوثيقة رقم ٩٩٠ الواردة في مجموعة :
Esp. Sagrada, t. XIX, p. 382.

(٤١) راجع ابن خلدون في الطبعة الثالثة من
Dozy, Recherches, t. I, p. 100, note 3.

(٤٢) Ibid., p. 101.

(٤٣) Ibid., p. 102, note, 1.

(٤٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ، من ١١٢ .

(٤٥) راجع ابن الأبار فيما نقله دوزي عنه في الطبعة الأولى من كتابه :
Recherches, t. I, p. 280.

Ibid., t. I, p. 280.

(٤٦)

(٤٧) ونضيف الى ما ذكره المؤلف في المتن أعلاه ما وجهه البطرشك هذا وهو في
حبسه الى المنصور من شعر نقتبس منه القصيدة التالية التي تصور شدة تعلقه
بالحياة :

لمررت فلم يفتن القرار ومن يكن
رواه ما كان القرار لحالة
ولو أنتى وفقت للرشد لم أكن
وأجمع كل الناس أنك قاتلى
وما هو الا الانتقام فنشيتلى
والا لعفو يرتضى الله قعيله
ولا نفس الا دون نفسك فليكن
لما خاب من جدواك منذ كنت سائلا
وقد منحت كلك ما يعجز الورى
وان هم تأخير لنفى فليكن

مع الله لا يعجزه فى الأرض هارب
سوى حذر الموت الذى انا راهب
ولكن امر الله لا بد غيبالب
وريت ظن ربه فيه كساب
وتركك منه واجبى لك واجب
ويجزيك منه فوق ما أنت طالب
على قدرها قدر الذى أنت واهب
ولا رد دون المتسفى عنك راغب
وعمت عموم الغيث منك المواهب
لتلفها من حاجب الملك حاجب
يسير بها فى الأرض ماش وراكب
ليصرف عنى الخطب والدمر غائب
(المترجم)

Dozy : op. cit, t. I, p, 279. • ١١٤

حواشي الفصل الحادى عشر

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٣١٥ ، وترجمته ص : ٤٨٩ .
- (٢) راجع ابن أبى ذرع : روض القرطاس ، ص ٧٣ .
- (٣) راجع ابن عذارى ، نفس المرجع والجزء ، ص ٣١٦ ، وترجمته ص ٤٩١ .
- (٤) المقرئ : نفح الطيب ، ١/٢٨٩ .
- (٥) المقرئ : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٩٣ .
- (٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣/٤١ (طبعة ليفى بروكسسال ، باريس ١٩٣٠) والنويرى ، ص ٢١٩ .
- (٧) ابن خلدون : العبر ، ٢/٤١ ، وابن أبى ذرع : روض القرطاس ، ص : ٦٥ .
- (٨) راجع المقرئ : نفح الطيب ٢/٦٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ١٠/٢٦٢ . وترجمته ص : ٣٧٢-٣٧١ ، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ، ٣/٢٤٢ ، وترجمته ص ٢٤٣ ، وابن أبى ذرع : روض القرطاس : ص ٦٥-٦٦ وابن الأبار فى الطبعة الأولى من : Dozy : Recherches, t. I, p. 285.
- (٩) انظر الأبيات الأخيرة من مراثية ابن دراج البسطلى لصبيح فى الثعالبي : يتيمة الدهر ١/٤٢٨ .
- (١٠) راجع ابن أبى ذرع وابن خلدون فيما سبق .
- (١١) ورد فى تعليق بالترجمة الانجليزية بناء على ما جاء فى : F. Myrich : The Church in Spain, (1892), p. 237.
- انه جاء فى رواية أخرى ان البابا ليو الأول هو أول من اداع هذا النبأ - (المترجم) .
- (١٢) فى الترجمة الانجليزية « الفونسو الثانى » والمصحح هو الوارد بالمتن . - (المترجم) .
- (١٣) انظر ما جاء فى Florey : Esp. Sagr., t. iii and xix. وقارنه بما ذكره ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٣١٦-٣١٧ ، وترجمته ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
- (١٤) فيما يتعلق بشنت ياقب راجع المؤلفين العرب الذين تكرم ليفى بروكسسال فى دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة « شانت ياقب » .
- (١٥) جاء فى المرجع الذى اعتمدنا عليه وهو ابن عذارى « مدينة غاليسية أى عاصمتها » ، وكلمة « غاليسية » هنا قاصرة جدا فهى تعنى الولاية البرتغالية التى تسمى اليوم « بيرة » وكثيرا ما كانت هذه الولاية مملكة عاصمتها « بازو » انظر فى ذلك : Dozy : Recherches, t. I, p. 150.

(١٦) يشير ابن عذارى فى البيان المغرب ٢/٢١٧ ، وترجمته ص ٤٩٢ الى اقليم فى هذه الولاية يسمى « فلطارش » Valadares وقد ورد اسم هذا الاقليم أيضا فى الوثيقة رقم ١١٥٦ ، المطبوعة فى : Esp. Sagrada, t. XXII, p. 275.

(١٧) فيما يتعلق بالأخبار السابقة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢١٦-٢١٧ ، وترجمته ص ٤٩١-٤٩٢ .

(١٨) يستفاد من وثيقة « برميديو » الثانى المطبوعة فى : Espagna Sagrada, t. XIX, p. 381. أن هذا الفج واقع على شاطئ نهر منيهو .

(١٩) راجع ابن حيان فى ابن عذارى : شرحه ٢/٢١٢ ، وترجمته ص ٤٨٢-٤٨٤ . والمقرئ : نفح الطيب ، ١/٢٦٨ ، ويظهر أن ابن عذارى أضاف من عنده عبارة « الى باب الزهراء » .

(٢٠) وهى « مليقة » عند ابن عذارى .

(٢١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢١٨-٢١٩ ، وترجمته ص : ٤٩٢-٤٩٥ ، وكل ما يطالعه المرء عن هذه الجملة مما هو وارد فى :
Historia Compest., (Esp. Sagr.) t. XX, L.I., c. 2881.
انما هو صحيح ، أما ما يزعمه هذا المؤرخ من أن Rodrigo Valdesquez قد أصبح من حلفاء المنصور فهو خطأ لأنه مات قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، انظر فى ذلك

Espagna Sagrada, t. XIX, p. 166-169.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الواردة فى الحوليات اللاتينية عامة فيمكن مراجعة :
Dozy : Recherches, t. I, p. 199.

(٢٢) راجع ابن خلدون فى : Dozy : op. cit., I, p. 101.

(٢٣) راجع المقرئ : نفح الطيب ٢/١٤٦ ، وكذلك :
Rodrigo de Toledo : De Relves Hispaniels L. V. c. 16 ; Lucas du Tuy : Chronicon mundi.

(٢٤) راجع ابن أبى زرع : روض القوطاس ، ص ٦٦-٦٧ ، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ٢/٢٤٤-٢٤٨ .

حواشي الفصل الثاني عشر

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٣١٠ ، وترجمته ص : ٤٨٠-٤٨١
وابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٧٢ ، والمراكشي : المعجب ص ٢٧ ، وترجمته ص ٢٢ .
- (٢) وتقع في إقليم رية على بعد تسعة فراسخ من ناجرة .
- (٣) راجع المقرئ : نفح الطيب ، ٢/٦٥ ، وابن الأبار : الحلة السراء ، ص ١٥١ ،
وابن الخطيب ، الاحاطة ٢/٧٢ ، وابن بسام : في الذخيرة ، وعبد الواحد المراكشي :
المعجب ص ٢٦ ، وترجمته ص ٢٢ ، ويلاحظ أن المرجع الأخير يجعل وفاة المنصور بن
أبي عامر في سنة ٢٩٣ هـ .
- (٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٧٢ ، والمقرئ : نفح الطيب ، ١/٢٥٩ .
- (٥) Chron. Borgense (Esp. Sagr., t. XXII), p. 309.
- (٦) Charte de 1027 ; Llorente : Noticias de los tres Provincias
Vascongades, Madrid, 1806). t. III, p. 355.
- (٧) Chron. du Moine de Silos (Esp. Sagr., t. XVII), c. 72.
- (٨) انظر المقرئ : نفح الطيب ، ١/٢٩٢ ، وقارنه بما جاء في
Rodrigue de Tolède ; Histor. Arabum, c. 31.
- (٩) المقرئ : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٩٢ .
- (١٠) شرحه ١/٢٧٤ .
- (١١) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصفحة .
- (١٢) هذه هي القراءة الصحيحة لاسمه ، انظر Dozy : Recherches, t. II, p. 237, note 3.
« سننسي » بضم السين وسكون النون وضم الباء الموحدة ، وقد
ذكره الضبي في كتابه بغية المتلئس ، ص ٤٣٢-٤٣٣ ، باسم قاسم بن محمد الفرسى
الشبانسى . - (المترجم) .
- (١٣) هو أبو عمرو أحمد بن عبد الملك بن هشام الاشبيلي المعروف بابن المكوى ،
راجع عنه ابن بشكوال : كتاب الصلة رقم ٣٢ ، ص ٢٣-٢٤ ، والجميدى (مخطوط
أكسفورد) ورقة رقم ٥٦ ب ، ١٥٧ ، والمقرئ : نفح الطيب : ٢/١١٧ ، ونضيف الى
ما ذكره دوزى ما ترجمه به ابن بشكوال في كتابه الصلة حيث قال « انه كان حافظا للفقهِ
مقدما فيهما على جميع أهل عصره ، عارفا بالفتوى على مذهب مالك ، ولا يداهن
السلطان ولا يميل معه بهواه ، وكان القريب والبعيد عنده في الحق سواء ، ودعى الى
القضاء بقرطبة . » توفي ليلة السبت لصلاة العصر لسابع خلون من جمادى الاولى سنة
٤٠١ هـ ، وكانت جنازته عظيمة شهدها واضح حاجب هشام بن الحكم ، وكان مولد ابن =

المكوى سنة ٣٢٤ ، وسمع أبو محمد بن الشقاق الفقيه يقول على قبره يوم دفنه : رحمتك الله يا أبا عمرو فضحت الفقهاء بقوة حفظك في حياتك ولتفضحتهم بعد مماتك ، أشهد أني ما رأيت أحدا حفظ السنة كحفظك ولا علم من وجوها كعلمك ، - (المترجم) .

(١٤) كان هذا القاضي يعرف بأبن السريع الذي سيشير اليه المؤلف دوزي بعد قليل في المتن - (المترجم) .

(١٥) Dozy : op. cit., t. II, p. 237-240. وهذه العبارة التي قالها المنصور واردة في سراج الملوك لأبن أبي رندكة الطرطوشي .

(١٦) هو صاعد بن الحسن الربيع البغدادي ، وفد من المشرق الى الأندلس زمن هشام ، ثم غادرها ومات بصقلية سنة ٤١٧ هـ (= ١٠٢٦ م) ، راجع عنه ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٢٦ ، ص ٢٣٥-٢٣٦ ، والضبي : بغية الملتبس ، رقم ٨٥٢ ، ص ٢٠٦-٢١١ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١/٦٢٢ ، وعبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص : ٥١٩ ، وترجمته ص : ٢٢ ، وما بعدها ، والمقري : نفح الطيب : ٢/٥٢ ، وما يليها . وكذلك الفهرست .

(١٧) هناك قصة أخرى غير التي أوردها دوزي في المتن أعلاه لا نرى بأسا من إيرادها هنا أيضا وتأكيدا لما ذكره المؤلف ، وهي التي ذكرها عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب ، ص : ٢٠-٢١ ، إذ روى أن أبا العلاء دفع هذا الكتاب - حين كمل - الى غلام يحملة بين يديه وعبر النهر : نهر قرطبة ، فخانت الغلام قدمه فزل فسقط في النهر هو والكتاب فقال ابن العريف :

قد غاص البصر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقیل يفوص
فضحك المنصور والحاضرون فلم يرح ذلك صاعدا وقال من فوره مرتجلا :
عاد الى معبدنه ، انفسبا توجد في قعر البصار « الفصوص »

وقد وردت الإشارة الى كتاب الفصوص أيضا في كشف الظنون ، ولقد ثبت أن هذا الكتاب الذي أجمع الأدباء والمؤرخون على فقدته لا يزال موجودا ، فقد ذكر السيد هاشم الندوي في كتابه « تذكرة النوادر من المحفوظات العربية » ص ١٢٩-١٣٠ ، المطبوع في حيدر آباد للدين بالهند سنة ١٣٧٠ هـ ، وجود نسخة فائدة من هذا الكتاب في مكتبة جامع القرويين بفاس ، وذلك نقلا عما جاء في مجلة « معارف » التي تنشرها دار المصنفين ببلدة أعظم كده ، ومع ذلك فإن الأستاذ ليفي بروفنسال لم يشر في طبعته الفرنسية للكتاب الذي نترجمه الى هذه المسألة الهامة . (المترجم) .

(١٨) توجد في هذا الموضوع قصة تخالف ما أورده المؤلف دوزي في المتن ، وقد ذكرها المراكشي في المعجب ، ص ٢٠ ، إذ قال أن أبا العلاء هذا دخل يوما على المنصور بن أبي عامر في مجلس أنسه ، وقد تقدم أنه اتخذ قميصا له من رقاع الخرائط التي كانت تصل اليه فيها الأموال منه ، فلبسه تحت ثيابه ، فلما خلى المجلس ووجد فرصة له أراد التجرد ، وبقي في القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له المنصور « ما هذا يا أبا العلاء ، فقال « هذه الخرائط التي وصلت الي فيها صلوات مولانا اتخذها شعارا » ، فأعجب المنصور ذلك ، وقال : « لك عندي مزيد » - (المترجم) .

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٠٩ ، وترجمته ص ٤٧٩ .

- (۲۰) المقرئ : نفح الطيب ، ۲۷۴/۱
- (۲۱) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصفحة
- (۲۲) ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط جاينجوس) ، ورقة ۱۱۸ ب
- (۲۳) المقرئ : شرحه ، من ۲۷۳
- (۲۴) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ۲/۳۱۰ ، وترجمته من ۴۸۱
- (۲۵) المقرئ : نفح الطيب ، ۴۰۶/۱-۴۰۷
- (۲۶) اورد هاتين القصتين ابن عذارى : البيان المغرب ۲/۳۱۰-۳۱۱ ، وترجمته من ۴۸۱-۴۸۲

حواشي الفصل الثالث عشر

- (١) راجع النويرى ، ص ٢٢١ . . .
- (٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٩ ، وابن حبان : الذخيرة ، ورقة ١٣٠ ب ٢١ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢٧/٢ ، وما بعدها ، وقد أورد كل واحد من هؤلاء المؤرخين قصة هذه المؤامرة بالتفصيل .
- (٣) ابن الأبار . الحلة السيرة ، ص ١٤٩ ، ولتقصان الوثائق يلاحظ القارئ أن المؤلف انتقل سريعا إلى عهد المظفر ، على أن المعجب ، ص ٢٧ ، يقول أن أيامه كانت أعيادا في الخصب والنماء والأمن ودامت سبع سنين إلى أن مات - (المترجم) .
- (٤) كانت هذه الأسرات الأربع هي التي لها الصدارة بين أشرف البلاط ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٠/٢ ، وترجمته ص ٢٥١ .
- (٥) يندرج تحت لفظ « الصقالبة » نصارى شمال اسبانيا الذين كانوا يعملون في الجيش الاسلامي ، انظر ابن الخطيب ، مادة « حباسة » (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٢٤ ب .
- (٦) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٧٥-١٧٦ .
- (٧) راجع ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ٢ ، ورقة ٨٠ ب ، ١٤٦ أ ب ، من مخطوط لندن ، وراجع بشأن هذه الطائفة كتاب أزين بلاثيوس : *Aben Mesarra y su escuela*.
- (٨) فيما يتعلق بهذه الأفكار راجع : *Gobineau : Trois ans en Asie, p. 347.* حيث يصفها بأنها أفكار هندية خالصة ، وانظر أيضا ترجمة دى سلين مقدمة ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢-٣ ، وحاشية رقم ٣ .
- (٩) ابن حزم : الملك والنحل ، ورقة ٢٢٨ ١ - ٢٣٠ ب .
- (١٠) راجع المقرئ نفح الطيب ، ٢٨٧/١ ، والحميرى : الروض المعطار (مادة : الزهراء) ، وراجع على الخصوص ابن عذارى : البيان المغرب ، ٦٤/٣ - ٦٥ .
- (١١) *Dozy : Recherches, 3eme ed., t. I, p. 184-192.*
- (١٢) أما اليوم فيسمى « شانجيلو » إلا أنه في العصر الذي نحن بصددده كانوا يقولون « شانجول » ، انظر : *Dozy : op. cit., t. I, p. 188.* راجع أيضا ابن عذارى البيان المغرب ، ٢٨/٣ ، ويذكر ذلك المؤلف أن أم عبد الرحمن كانت تسمى « عبدة بنت شانجة » النصراني ، ويمكن التأكيد من عدم ثقة المؤلف بصحة نسبه حيث يشير في صفحة ٤٢ من النص إلى أنها كانت نفارية « بشكنسية » .
- (١٣) راجع النويرى ، ص ٢٢٩ لاسيما البيان ٦٨/٣ نقلا عن ابن عون الله والرقيق .

(١٤) راجع ابن الأثير : الكامل (طبعة نورمبرج) ٤٩٩/٨ ، Annales, 384-5 .
وانظر أيضا ما ورد لدى : Annales Toledono , II, 403. ولم يكن هذا
الأسلوب من التسميم بالنادر ، ويذكر البكري . (Description de l'Afrique, p. 121) .
(طبعة دي سلين) مثلا آخر على ذلك ، ويشير ابن عذارى إلى أن المظفر مات مسموما
بتدبير أخيه على يد إحدى نساء الجريم .

(١٥) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٠ .

(١٦) أورد ابن بسام في النخبة ، ج ١ ورقة ٢٤ ب ، نص هذا العهد (طبعة
كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وج ١ ، ق ١ ، ص ٨٤-٨٦) ، راجع ابن عذارى :
البيان المغرب ، ص ٤٤-٤٦ ، والنويري : ص ٢٢١-٢٢٤ ، وابن خلدون : العبر (طبعة
جولاق) ١٤٨/٤-١٤٩ ، والمقرئ نفع الطيب ٢٧٧/١-٢٧٨ .

ونسوق في هذه الترجمة العربية نص ذلك العهد ليتعرف القارئ على ما جاء به
دوذي ، وهذا النص نقلناه عن النخبة ، قالت : « هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام
المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى
به صفقة يمينه : بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهله ما جعل الله
له من إمامة المسلمين ، وعضب من أمره واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف
فزلول القضاء بما لا يصرف ، وخشى - أن هجم محتوم ذلك عليه ونزل به مقدوره ، ولم
يرلح لهذه الأمة علما قاوى إليه ، ولم يوجرها ملجأ تنعطف عليه أن يكون بقاء الله
تعالى مفرطا فيها ، ساميا عن أداء الحق إليها ، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياء
قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن
يستوجب به دينه وأمانته وهدية ورعيه ، بعد أطراح الهوادة والتبرؤ من الهوى ، والتحري
للحق والتزلف إلى الله بما يرضيه ، وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب ، عالما أن
لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، موقنا ألا وسيلة إليه أذكى من الدين الخالص ،
فلم يجد أحد أجدر أن يقلده عهده ، ويفوض إليه أمر الخلافة من بعده ، في فضل نفسه ،
وكرم خيمه وشرف مركبه ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ، ومعرفته وأشرافه ،
وحزمه وثقافته ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة
أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر وفقه الله ... وأمير المؤمنين
- أيده الله - بما يطالع من مكنون العلم ما وعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولي عهده
القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص بتحقيق ما أسنده أبو هريرة إلى
النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق
الناس بعصاه ، « فلما استوت له به الأخبار ، وتقابلت عنه فيه الآثار ، ولم يجد
عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلا ، خرج إليه عن تدبير الأمور في حياته ، وفوض إليه
النظر في أمر الخلافة بعد وفاته » - (المترجم) .

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٠ ، وانظر Dozy : Recherches
t. I, p. 189.

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٦٥/٢ ، والمقرئ : نفع الطيب ، ٢٨٨/١ .

(١٩) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٤٨ .

(٢٠) فيما يتعلق بهؤلاء القوامس ، راجع :

Sandoval : Cinco Reyes, fol. 62 et suiv.

(٢١) أى على المهدى بالله - (المترجم) •

(٢٢) هذا هو لقب شانجول التشريفي الذى اتخذته لنفسه أيام حكمه ، أما ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٢/٣ قيسيه « بالمأبون » •

(٢٣) فى كل ما يتعلق بهذه الحوادث راجع ما أورده النويرى عن هذا فى : Histoire d'Espagne, pp. 227-230. وانظر أيضا ما ورد بالتفصيل فى كل من المقرئ : نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٢٧٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ٧٤-٤٩/٢ ، حيث يسهب هذا المرجع الأخير فى سرد خبر الحوادث التى صحبت مقدم ابن عبد الجبار وخاتمة شانجول •

حواشي الفصل الرابع عشر

- (١) سماه دوزى فى الأصل الفرنسى باسم *Le Bulveur* أما المراجع العربية فاشتغته بهذا اللقب الذى أثبتناه فى المتن - (المترجم) .
- (٢) كان اسم الوزير الذى يشير اليه دوزى هو : الحسن بن حى - (المترجم) .
- (٣) تكلم ابن حزم عرضا فى كتابه طوق الحمامة ، ص ١٢٦ ، عن ثورة هشام الذى تسمى بالرشيد .
- (٤) أى مبايعة سليمان بن أخى هشام - (المترجم) .
- (٥) ابن الخطيب : الاحاطة : ص ٢٢٤-٢٢٥ .
- (٦) ورد اسمه « وادى آره » فى الاحاطة لابن الخطيب ، ص ٢٩/٢ .
- (٧) أوردته الذخيرة ٢٠/١ ، سطر ١٥ ، و ص ٢١ ، ص ١٢ باسم « قنتيش » - (المترجم) .
- (٨) يوجد هذا العدد فى أقدم وأصدق مؤرخ وهو ابن حيان (راجع الذخيرة لابن بسام ١ ، ورقة ٨ ب) ، ويذكر آخرون أنهم كانوا عشرين ألفا ، ويقول غيرهم بل كانوا ستة وثلاثين ألفا .
- (٩) أى انه ركض الى الثغر - (مترجم) .
- (١٠) كان ذلك يوم الأحد ١٤ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ - (المترجم) .
- (١١) هذا هو اليوم الوارد فى المراجع العربية ، لكن يستدل من جدول التوقيعات الالهامية ، ص ٢٠٠ ، أن يوم ٢٢ ربيع الأول كان الأحد ١٢ نوفمبر - (المترجم) .
- (١٢) انظر الادريسي *Descript. de Afrique, p. 213.* أما هذه المحلة فتعرف اليوم باسم *Castille de Bacher* .
- (١٣) هذا ما جاء فى النص الفرنسى ، والأرجح أن يكون النصف الثانى من يونيو ١٠١٠ ، لأن أول ذى القعدة (وهو الجمعة) كان يعادله يوم ١٦ يونيو ، راجع جدول السنين فى التوقيعات الالهامية ، ص ٢٠٠ - (المترجم) .
- (١٤) أورد هذا التاريخ النويرى فى تاريخه ، كما ذكر دوزى أنه وارد أيضا فى وثيقة لاتينية مطبوعة فى مجموعة *Espagna Sagrada, t. XLIII, p. 156.*
- أما التاريخ الذى ذكرناه ووضعناه بين قوسين والذى لم ينكره المؤلف فى الأصل الفرنسى فقد أثبتناه بعد مراجعة جدول السنين فى التوقيعات الالهامية ، ص ٢٠٠ - (المترجم) .

(١٥) في « أمواج البحر » كما يقول النويري ، ونعرف أن الماء يأخذ في المد حتى يصل الى الموضع الذي جرت فيه المعركة .

(١٦) كل الحوادث الواردة في هذا الفصل مذكورة في تفصيل كبير في ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٧٤-١٠٠ ، والنويري ، ص ٢٢٩-٢٣١ ، وابن خلدون : العبر ، ١٥٠/٤-١٥١ ، وابن حيان في النخبة ، لابن بسام ، جزء ١ ، ورقة ٧ ب ، ٨ - ب ، ويبدو أن ابن بسام اختصر الموضوع اختصارا شديدا ، وانظر أيضا : عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٢٨-٣٠ ، وترجمته ص ٢٢-٣٦ ، وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٩-١٦٠ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٥٠٠/٨-٥٠٢ ، ومقتبسات منه مترجمة بعنوان : Annales, pp. 388-389 والمقرئ : نفح الطيب : ٢٧٨/١ ، وانظر أيضا : Rodrigue de Toledé : Hist. Arab., c. 35-38.

أما فيما يتعلق بالتواريخ فيمكن للقارئ مراجعة المقال الوارد في الطبعة الأولى من كتاب : Dozy : Recherches, t. I, p. 238 et suiv. وأما فيما يتعلق بقبرية « أتوا ، أسقف ، جيرونا » فأنظر : España Sagrada, t. XLIII, p. 157 et suiv.

خَوَاتَمُ الْقَتْلِ الْعَشْرَ

(١) فيما يتعلق بهذه الاخبار والواردة هنا فيما بعد انظر ابن حيان في الذخيرة ١ - ورقة ٨ ب ، وابن عذاري : البيان المغرب ١٠٠/٣ وما بعدها ، والتؤيذ : ٢٢١-٢٢٢ ، وابن الاثير : الكامل ١٥٢/١-١٥٤ ، Annales, p. 408-411. وانظر ايضا : Rodrigue de Tolède, c. 38, 39.

(٢) Annales Compestellani (Esp. Sagr., t. XXIII) ; Chron de Cerdania (Ibid.).

(٣) المقرئ : نفع الطيب ٢٥٠/١

(٤) ابن حزم : طرق الحمامة ، ص ١٠٦ ، Rodrigue to Toledo, c. 38.

(٥) Rodrigue de Toledo, c. 38.

(٦) ابن عذاري : البيان المغرب ١١٢/٣ ، وابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٢٤ .

(٧) راجع ابن خرم : طوق الحمامة ، ص ٤١ ، وابن بشكوان : كتاب الصلة ، ص ٢١١ ، رقم ٤٧٠ ، ويذكر الاخير ان اسمه هو ابو عثمان سعيد ، وكان ابو المظفر ابن سعيد قاضي قرطبة السابق مات يوم الاثنين ٦ شوال ٤٠٣ هـ (٢٠ ابريل ١٠١٣ م) .
(٨) ابن حزم : طرق الحمامة ، ص ٩٧-٩٨ .

(٩) ابن بسام : الذخيرة ١/ورقة ١٦١ ب (= المجلد الثاني من القسم الاول ، من طبعة كلية الاداب جامعة القاهرة ، ص ١٢٠) ، والمقرئ : نفع الطيب ٥٤٦/١ ، اما فيما يتعلق بابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الفرضي فقد تناوله بالبحث وذكر تراجمه محمد بن شبيب في دائرة المعارف الاسلامية ، كما طبع جودراً بمدرسة سنة ١٨٩١ كتابه المسمى تاريخ علماء الاندلس في المجلد الثاني من المكتبة العربية الاسبانية .

(١٠) وذلك انه كان زائر مكة المكرمة لدخول الكعبة وتعلق بأستارها وسأل الله الشهادة فاستجاب له ، رحمه الله - (المترجم) .

(١١) ابن حزم : طرق الحمامة ، ص ١٠٤ .

(١٢) راجع ابن الأبار : الحلة الشيراء ، ص ١٦٤ .

(١٣) راجع ابن بسام : الذخيرة ، ورقة ١ ب وما بعدها ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ١١٢/٣-١١٤ ، والمراكشي : المعجب ، ص ٢٨ وترجمته ص ٢٣-٢٤ ، وابن حزم : طرق الحمامة ، ص ١٠٤ .

حواشي الفصل السادس عشر

- (١) ابن بسام : الذخيرة ، ١/ ورقة ١٦ - ب .
- (٢) المقرئ : نفع الطيب ١/ ٢٨٠ .
- (٣) ابن بسام : الذخيرة ، ج ٢ ، ورقة ١٥ .
- (٤) نفس المرجع والجزء والورقة .
- (٥) Dozy : Abbad., t. I, p. 222.
- (٦) المقرئ : نفع الطيب ١/ ١٠٢ .
- (٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/ ١٢٠ .
- (٨) المقصود بذلك فائق مولى الحكم المستنصر - (المترجم) .
- (٩) Dozy : Abbad., t. I, p. 214.
- (١٠) قارن ابن خلدون العبر ٢/ ٨ ، ٦١ بما جاء في ابن حيان : الذخيرة ، ورقة ١٢٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢/ ٢٦٨ .
- (١١) هذه التفاصيل الهامة واردة في ابن حيان وابن عذارى وابن الاثير ، أما ابن اللدا ٢/ ٢٨ فقد نقل عن هذا المؤرخ الأخير .
- (١٢) Dozy : Abbad., t. I, p. 222.
- (١٣) راجع ابن حزم في : Dozy : Catalogue des Manuscrits Arabes de Lyde, t. I, 225.
- (١٤) راجع المقرئ ١/ ٣١٥ ، كما توجد نفس الالفاظ في ابن حيان .
- (١٥) فيما يتعلق بالتاريخ العربي الذي لم يذكره المؤلف في النص الفرنسي فقد رجعنا في تحقيقه الى التوقيعات الالهامية ، ص ٢٠٤ ، حيث جاء فيها أن أول شوال كان الأحد ٢ مارس ١٠١٧ . - (المترجم) .
- (١٦) Dazy : op. cit., loc. cit.
- (١٧) أورد دوزي في الأصل الفرنسي هذا الخبر بصيغة القائية لكننا لم نعثر على هذه الصورة فوضعنا ما بين القوسين من المراجع العربية وهو أقرب ما يكون الى ما يريده المؤلف - (المترجم) .
- (١٨) يستفاد من جدول السنين في التوقيعات الالهامية ، ص ٢٠٤ ، أن أول ذي القعدة كان يوم الجمعة ٢١ مارس ١٠١٨ ، وأول ذي الحجة ٤٠٨ هو الأحد الخامس من أبريل ، وعلى هذا يكون هذا الاستعراض تم يوم الجمعة ٢٧ ذي القعدة .
- (١٩) يستدل مما ورد في الكتب العربية التي تشير اليه انهم كانوا ثلاثة اخوة =

= اثنان هما المذكوران بالمتن أما الثالث فاسمه ادريس وكان حاكم مالقة • - (المترجم) •

(٢٠) سورة الكافرون ، ١٠٩/٦-١ •

(٢١) قرآن كريم ، سورة التكاثر ، آية ٨-١ •

(٢٢) راجع ابن حيان ، ورقة ١٢٨ ، والمراكشي : المعجب ، ص ٥٤-٥٠ ، ونفح الطيب ٢١٦/١ ، ٢١٨ •

(٢٣) التاريخ الهجرى الوارد فى ذخيرة ابن بسام (طبعة كلية الاداب ، جامعة القاهرة) ، ص ١٣ ، حاشية رقم ١١ من المجلد الثانى للقسم الاول ، ص ١٨ ربيع الآخر سنة ٤١٢ ، أما ما وضعناه بين الحاصرتين فقد رجعنا فيه الى جدول سنة ٤١٢ فى التوقيعات الالهامية • - (المترجم) •

(٢٤) رجعنا فى التاريخ العربى الى التوقيعات الالهامية ، جدول سنة ٤١٤ هـ • - (المترجم) •

(٢٥) يعتقد المؤلف ان خير ما يمكن الرجوع اليه هو رواية أحد شهود العيان التى نقلها المقرئ فى نفح الطيب والتى ترجح ما ورد فى المعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٢٧ وترجمته ص ٤٤-٤٥ •

حواشي الفصل السابع عشر

- (١) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٦٥-١٦٦ ، وقد استعمل مخطوط ابن بسام : الذخيرة ج ٢ ، ورقة ١١-٦ - ب في تصحيح بعض أخطاء النص (وهذا يعادل ص ٤٠-٤١ من الذخيرة ، طبعة كلية الآداب جامعة القاهرة) .
- (٢) راجع المقرئ : نفح الطيب ، ٢٨٥/١ ، ويلاحظ أن هذه الأبيات تختلف عن الأبيات الواردة في ابن بسام : الذخيرة ، ورقة ١١ ب ، ١١٢ .
- أما فيما يتعلق بابن حزم فراجع ما كتبه عنه فان أرتدوناك في الدائرة ، وكذلك الجزء الأول من سلسلة الدراسات التي كان يصدرها الأستاذ ميخائيل أزين بلاثيوس عن :
Abenhazem de Cordoba y su historia critica de los ideas religiosos.
- (٣) Dozy : Catalogue des Manuscrits arabes de la bibliotheque de . Leyde, t. I, p. 227.
- (٤) ابن حزم : الفصل ، ٢٢٧/٢ .
- (٥) ابن حزم ، نفس المرجع والجزء والصفحة .
- (٦) Dozy : Catalogue ..., t. I, p. 225, 230.
- (٧) طوق الحمامة لابن حزم (طبعة بيروت) ص ١٠٢ - ١٠٥ .
- (٨) يوافق ذلك يوم ٢١ يونيو سنة ١٠١٢ - (المترجم) .
- (٩) يوافق ذلك يوم ١٢ يوليو سنة ١٠١٣ م ، راجع التوفيقات الإلهامية ، ص ٢٠٢ - (المترجم) .
- (١٠) يعادل ذلك شهر فبراير ١٠١٩ م - (المترجم)
- (١١) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٢-١٠٥ .

حواشي الفصل الثامن عشر

- (١) « الدائرة » لفظ استعمله ابن بسام في الذخيرة نقلاً عن ابن حبان ويقصد به « الحراس » .
- (٢) متبذل المدينة الذي يشير إليه المؤلف هو أحمد بن بسيل - (المترجم) .
- (٣) يستفاد من جدول السنين في التوقيعات الالهامية سنة ٤١٤ هـ ، ان يوم ١٨ يناير ١٠٢٤م هذا كان يعادل يوم السبت ٤ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ - (المترجم) .
- (٤) كان هذا المخلوق هو الذي عرفناه من قبل باسم محمد العراقي - (المترجم) .
- (٥) ابن بسام . الذخيرة ، ج ١ ، ورقة ٨٢ ب .
- (٦) ويعادله شهر ربيع الاول من سنة ٤١٦ هـ ، راجع التوقيعات الالهامية ، جدول السنين ص ٢٠٨ - (المترجم) .
- (٧) يقصد بذلك يحيى بن حمود - (المترجم) .
- (٨) وتعرف هذه القرية بقرية « اقلبيح » بفتح الهمزة وسكون القاف وكسر اللام بعدها باء مثناة تحتانية ، وآخرها حاء مهملة - (المترجم) .
- (٩) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن حبان في الذخيرة لابن بسام جزء ١ ، ورقة ٩ ب ١١ ، ١١٤ - ١١٥ - لا سيما ابن عذاري : البيان المغرب ٣/١٣٥-١٤٣ ، والكامل لابن الاثير ٩/١٩٢-١٩٤. Annales du Maghreb et d'Espagne, 428-430. وعبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٨-٤٠ ، وترجمته ص ٤٦-٤٩ ، والمقرئ : نفح الطيب ٢٢٠-٢١٩/١ ، Rodrigue de Toledé, c. 44.
- (١٠) صاحب هذا الرأي هو الحميدى الذى نقل عنه بقية المؤرخين المسلمين .
- (١١) اسم هذا القائد المغربي الذى لم يذكره دوزى هو أبو جعفر أحمد بن موسى - (المترجم) .
- (١٢) تشير التوقيعات الالهامية ، ص ٢٠٨ الى أن رمضان سنة ٤١٦ يطابق الفترة الممتدة من يوم ٢٦ أكتوبر ١٠٣٥ حتى ٢٣ نوفمبر ، ومن ثم يمكن أن تكون هذه الأحداث جرت في رمضان أو شوال سنة ٤١٦ هـ - (المترجم) .
- (١٣) يعادل ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ - (المترجم) .
- (١٤) يعادله يوم الاثنين ٢٢ جمادى الاولى سنة ٤١٧ هـ ، راجع في تحقيق ذلك التاريخ التوقيعات الالهامية ص ٢٠٩ - (المترجم) .

- (١٥) يعادله شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ - (المترجم) •
- (١٦) وفى قول آخر « المعتمد » •
- (١٧) عبد الواحد المراكشي . المعجب ، ص ٤٠-٤١ ، وترجمته ص ٤٩ •
- (١٨) يعادله بالتاريخ العربى يوم الخميس ٨ ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، انظر التوقيعات
الالهامية ، ص ٢١٠ - المترجم •
- (١٩) يعادل جمادى الثانية سنة ٤٢١ هـ • - (المترجم) •
- (٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٩٩/٩ ، وانظر ترجمته لدوزي بعنوان :
Annales du Maghreb et d'Espagne, p. 435-436.
- (٢١) انظر ابن بسام : الذخيرة ج ١ ١٥٧/١ •
- (٢٢) ابن الأثير : الكامل ١٩٩/٩ • Annales du Magreb, p. 436.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الجزء الثانى
٥	الفصل الأول
٢١	الفصل الثانى
٢٢	المواجهة بين الناصر ومراكز القوى المسيحية
٣٥	الفصل الثالث
٣٧	ظهور فرناند كوثالث
٤٩	الفصل الرابع
٥١	شأنجة وموت الناصر
٥٩	الفصل الخامس
٦١	خلافة الحكم من عبد الرحمن
٦٩	الفصل السادس
٧١	المنصور بن أبى عامر
٨٣	الفصل السابع
٨٥	أحداث استخلاف هشام بن الحكم
٩٣	الفصل الثامن
٩٥	تضارب نفوذ المصحفى وابن أبى عامر
١٠٥	الفصل التاسع
١٠٧	ابن أبى عامر صاحب الأمر فى الحكومة

١١٩	• • • • •	الفصل العاشر
١٢١	• • • • •	الأمور تتأزم في وجه المنصور
١٣١	• • • • •	الفصل الحادي عشر
١٣٣	• • • • •	المنصور في ذروة قوته
١٤٣	• • • • •	الفصل الثاني عشر
١٤٥	• • • • •	خاتمة المنصور
١٥٥	• • • • •	الفصل الثالث عشر
١٥٧	• • • • •	اضطراب الأوضاع
١٦٧	• • • • •	الفصل الرابع عشر
١٦٩	• • • • •	المهدي والبربر وهشام بن الحكم
١٧٩	• • • • •	الفصل الخامس عشر
١٨١	• • • • •	الأندلس بين الصبغالية والبربر
١٨٧	• • • • •	الفصل السادس عشر
١٨٩	• • • • •	المنازعات والخصومات الدموية حول الحكم
٢٠١	• • • • •	الفصل السابع عشر
٢٠٣	• • • • •	واحدة المؤرخ
٢١١	• • • • •	الفصل الثامن عشر
٢١٣	• • • • •	اضطراب الأمور الداخلية
٢٢٥	• • • • •	حواشي الكتاب
٢٢٧	• • • • •	حواشي الفصل الأول
٢٣١	• • • • •	حواشي الفصل الثاني
٢٣٦	• • • • •	حواشي الفصل الثالث

٢٤٠	• • • • •	حواشي الفصل الرابع
٢٤٣	• • • • •	حواشي الفصل الخامس
٢٤٦	• • • • •	حواشي الفصل السادس
٢٤٩	• • • • •	حواشي الفصل السابع
٢٥٢	• • • • •	حواشي الفصل الثامن
٢٥٤	• • • • •	حواشي الفصل التاسع
٢٥٧	• • • • •	حواشي الفصل العاشر
٢٦١	• • • • •	حواشي الفصل الحادي عشر
٢٦٣	• • • • •	حواشي الفصل الثاني عشر
٢٦٦	• • • • •	حواشي الفصل الثالث عشر
٢٦٩	• • • • •	حواشي الفصل الرابع عشر
٢٧١	• • • • •	حواشي الفصل الخامس عشر
٢٧٢	• • • • •	حواشي الفصل السادس عشر
٢٧٤	• • • • •	حواشي الفصل السابع عشر
٢٧٥	• • • • •	حواشي الفصل الثامن عشر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٧٠٦

ISBN — 977 — 01 — 3796 — 0

هذا هو الجزء الثانى من الترجمة العربية من تاريخ الإسلام والمسلمين فى الأندلس للمستشرق الهولندى «رينهت دوزى» ، يتضمن أحداث فترة انتقال هامة فى مسيرة الحضارة والإسلام هناك ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عديد من اللغات الأوربية ، وكانت أمنية القارئ العربى أن يطلع عليه فى لغة الضاد حتى نهض بذلك أستاذ جليل ومؤرخ حجة فى تاريخ الإسلام والعصور الوسطى هو الدكتور حسن حبشى فترجمه كله ترجمة اتسمت بالدقة وإشراق الأسلوب وصحة التعليقات.

ويسر هيئة الكتاب أن تقدم هذه الترجمة العربية لطلاب التاريخ بعامة ، والأندلسى بخاصة كإضافة جديدة فى مجال الدراسات التاريخية الصحيحة ، ومساهمة منها فى حركة التنوير.

تصميم الغلاف:

علياء أبوشايدة